هـنا ...

ماحدث للاستاذ !

الجزء الأول

قصـــة من تاليف

محمـــد نور الدين

اهـــداء

الى كل من يحمــل همـــوم مصر ..

- قلبه .. لا ينبض الا بها ..
- عقله .. لا ينشـــغل بغيرها ..
- احاسيسه .. لا ترتعش الا فرحا بها .. أو خوفا عليها ..

حتى ولو كان بعيدا عنها .

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

مقـــدمة

ان هذه القصـــة المكونة من الأجزاء الثلاثة .. أولها هذا الجزء الذى بين يدى القارىء ، هى ثمرة طبيعية لانفعالات ومشاعر متصـــارعة ، وافكار متعانقة ومتنافرة ، أملتها على تلك الظروف التى يمر بها مجتمعنا المصرى .. وكأنه الزلزال المفاجىء .

ولو كان هذا الزلزال قد سبب بعض الشروخ فى الجدران والبنيان .. لكان افضل الف مرة من تلك الشروخ التى أصـــابت نفس الانسان ، وذلك لسهولة ترميم وصيانة الأولى ، وصعوبة ترميم واصلاح الثانية .

ان ضـــمير المجتمع المصرى — وخاصة فى الريف — وأخلاقياته وقيمه وعاداته وتقاليده الحميدة الطيبة ، التى تكونت على مر السنين الطويلة والتى حافظت على التماســـك الوطنى ونشرت الحب والبركة فى كل مكان من أرجاء هذا الوادى الصابر المكافح على مر التاريخ وعندما تهتز وتصاب بالتصدع ، فلابد لكل من يحب هذا البلد — فى كل مجـــال — أن يفكر .. وأن يقـــول بأســـلوبه الذى يتقنه ، ويبحث عن الأســـباب التى ادت الى حدوث تلك التصدعات ، وكذلك التفكير فى الحلول المناسبة — لو استطاع —

وهـــذه القصـــة هى محاولة للنبش فى مشاكلنا المعاصرة العنيفـــة ، وهمومنا اليومية المؤلمة .. وعندما يقف الانســـان منا فى مواجهة المرآة ويرى نفســـه على حقيقتها ، فانه يســـارع على الفور الى تعديل هندامه وتهذيب شعر رأسه — ان كان موجودا — حتى يبدو أمام الناس مقبولا ..

وهذه القصة هى مجرد الوقوف فى مواجهـــة مرآة نقية جدا .

(الفصـــــل الأول)

صرخ الحاج ســعد فى وجه الحاضرين وكأنه يسبهم وينتقم لنفسه من جرح قديم : على الطــلاق بالثلاث .. على الطــلاق بالثلاث مرة ثانية .. أنك لن تشم ثوب ابنتى ســعدية مرة ثانيــة .. ولن تدخل بيتك أبدا .. مادمت حيا .. ومرة ثانية .. لو كنت رجلا حقا ... يافرج افندى .. أرنى ماذا ستفعل .. وأنا أقولها صريحة امام الجميــع .. أننى لو صرفت آخر جنيه معى حتى يتم الطــلاق فلن أتأخر .. أتولك وأقــول لغيــرك وبأعلى صوت ، سأحاربك فى كل مكان .. وبكل سلاح .. ومعى السلاح .. معى الفلوس .. الفلوس الكثيرة ولو جــرى ورائى قطــار الفقر فلن يلحق بى ابدا .. وصمت لحظة يبتلع لعابه الجاف وينفخ انفاسا ملتهبة متأججة ثم أردف هاتفا : ؟ أكررها مرة ثانيــة .. لن يفلح أحد .. مهما كان .. فى ان يسترجع ابنتى اليك مرة ثانية .. ولو كان عندك ذرة من كرامة ورجولة .. قم وطلقها وبذلك تكون قد وفرت على نفسك أى مشــقة وجهد .. وتكون وفرت على وعلى الناس الذين احضرتهم معــك التعب والمشــورة بين وقت وآخر .. فقاطعه الحاج أيوب مفتاح عمدة الكفر وهو يتميز من الغيظ ولكنه يكبت انفعاله بصبر نافذ : كل الحاضرين هنا جاءوا من أجل مصلحة بنتك سعدية قبل مصلحة الأستاذ فرج .. ومن مصلحة بنتك وبنتها الصغيرة .. الطفلة البريئة .. الرجوع الى بيت زوجها .. لكي تربى ابنتها بينهما .. واظنك تعلم أن البطيخة لا تكبر الا فى زرعتها و ....

وقاطعه الحاج سعد بلهجة متهكمة ساخرة .. وكأنه وصل الى تحقيق ما يريد : اسمع يا حضرة العمــدة .. انت هنا جالس فى بيت الحاج ســعد أبو رزق .. ولست جالسا فى غيط بطيخ .. ثم ان مصلحة ابنتى أنا أدرى بها منك ومن غيرك ....

وهدر الجميع غاضبين من تلك اللهجة الساخرة التى يخاطب بها حضرة العمدة .... وكان اكثرهم غضبا الأستاذ جمال المدرس بمدرسة القرية .. حيث صاح فى دهشة محاولا وضع حد لتطاول الحاج سعد على الحاضرين وبالذات العمدة الذى يحتل فى قلبه ونفسه مكانة خاصة : ماذا جرى ياحاج سعد ؟ .. انك تتحدث بطريقة غريبة لم نألفها منك من قبل .. لقد اعتدنا فيك الذوق والأخلاق الطيبة .. ولكن هذا الأسلوب فى التخاطب ، لا يجوز ان يكون منك انت .. ومع من .. مع حضرة العمدة ؟ و ...

فقاطعه الحاج سعد وهو يهز رأسه ويشيح بيديه فى سخرية أكبر ؟ نعم .. نعم يا استاذ جمال .. أنا آسف .. آسف يا سيدى .. أنا رجل جاهل .. لم أتعلم فى مدارس مثلك .. لم أتعلم الذوق والاخلاق .. لم أتعلم فى المدرسة كيف اتخاطب مع الناس المحترمين .. لذلك ارجوك .. أرجو من حضرتك أن تعطينى درسا خصوصيا فى الذوق وكيف أخاطب الناس الكبار و ....

واراد أن يقاطعه العمدة بغضب وانفعال شديد .. ولكن الشيخ مرزوق ابو رزق اخو الحاج سعد سبقه منفجرا فى أخيه بكل غضب : ماذا جرى لك يا ولد .. هل جننت .. أصبحت غير قادر على التمييز .. انتبه لنفسك .. اصح لكلامك .. أنت يا ولد تتكلم مع أكبر وأشرف ناس فى الكفر كله ...

انت يا ولد جالس فى بيتك والناس كلهم هنا ضيوفك .. الفلوس الكثيرة افقدتك عقلك أفق .. المثل يقول : (من ليس له كبير يشترى له كبيرا) .. لو كان كل واحد مثلك .. بنته تروح تشتغل فى السعودية كم سنة ممرضة وترسل الى ابيها فلوسا .. وأهلها يتكلمون مع الناس بطريقتك هذه .. قل على الدنيا السلام ...

وقبل أن يلتفت الى العمدة معتذرا له عن تجاوز أخيه الصغير الحاج سعد عما بدر منه .. وقبل أن ينتهى من تمثيل دور كبير العائلة فى أسرة الحاج سعد ويرجو من الحاضرين أن يغفروا لأخيه سعد ، لأنه زعلان ..

ومنفعل بسبب موضـــوع خاص ٠٠ وقبل ان يطلب منهم جميعا وخاصـــة الأسـتاذ جمال والعمدة أن يمســحوا هذا الخطأ فى لحيته هو بدلا من أخيه الذى اخطأ فى حقهم وهم فى بيته .. وأوشك على القيام ليقبل رأس العمدة الذى استحال الى كتلة من الغضب والاســتهجان ٠٠ قبل أن يفعل ذلك كله عاجله اخوه الحاج سعد قائلا فى سخرية واستهجان واضـحين لم يبذل فى هذه المرة أى جهد فى اخفائهما ، بل تعتمد أن تخرج الكلمات من بين شـفتيه الجافتين واسـنانه الصـفراء من أثر الدخان الذى يشربه ، تقطر احتقارا واشمئزازا ، لو وزعت على كل أهـل كفر مفتاح الذى يعيش فيه لكفتهم : اسمع يا مرزوق .. قصدى يا شيخ مرزوق ٠٠ أنت تجاوزت حدود الأخوة معى ٠٠ وأنا تركتــك تتكلم ليس لأنــك فى بيتى ٠٠ لا .. أو لأنك أخـى الأكبر .. لا .. ولكن لكى تخرج كل ما بنفســك المعتمة بالحقد الأســود على .. أنت أخـى .. ولكنك حاقد على ٠٠ لأن الله اعطانى النعمـة التى استحقها .. لأنك استكثرت على أن أصبح فى يوم من الأيام مالكا للأرض بعد أن كنت أجيرا .. أصبحت اتصــدق على الفقراء .. بعد ان كان الناس يتصدقون على .. كل ذلك فى قلبك .. موجود وأنا أشعر به منذ زمن ٠٠

رغم أنك تدفنه فى صدرك .. ولكن الحمد لله كلامك هذا .. كشف كل شيء مستور .. وفاحت منه رائحة الحقد .. واحب أن أقول لك .. لست أنا من يشترى له كبيرا .. لأننى أنا الكبير أنا كبير نفسى .. ومن يعتقد فى أنه جاء الى هنا كى يفرض على أمرا .. لأنــه كبير .. يكون قد ضـحك على نفســه ...

فقاطعه العمدة بعد أن أحس بأن الكلام موجه له شخصيا ؟ يا ســعد الكبرياء والعظمة لله .. ليس هنــاك أحد كبيرا .. الله وحـده هو الكبير المتعـال ..

ونهض مرة واحدة ، نافضا ثيابه وكأنه كان يجلس على أرض نجسه ، مكملا حديثه للغاضــب على أية حال نحن نســتأهل منك أكثر من ذلك ..

لأننا قدرنا واحدا مثلك .. وجئنا الى بيتك من أجل مصـــلحتك ومصـــلحة بنتك ... رجل لا يعرف اصـــول الضـــيافة ولا الأخلاق .. ثم هتف قائلا فى حـــزم : قوموا يا رجاله .. قم يا أستاذ جمال .. نحن المخطئين ...

ونهض الجميع وهم يحملون فى صـــدورهم مراجل الغضـــب تغلى ، ويعتصرهم الندم على سعيهم طريق الخير لأمثال هذا الشخص ...

(الفصـــل الثانـــى)

تفرق الجميع .. كل منهم اتجه الى بيته ، وهو يحمل فى صـــدره حية تفح غيظا ، يكاد يخنق أنفاســـهم ويعتصر قلوبهـــم حسرة وندما لأنهم لم يتصرفوا مع هذا الجلف محدث النعمـــة التصرف اللائق به فى حينه .. لكن عنصر المفاجأة وعدم التوقع فى ســـلوكه وخطابه لهم هو الذى كمم أفواههم وجعل الكلمات تهرب من فوق ألسنتهم لحظتها .. وكل منهم يتوعد له بينه وبين نفسه وبأنه سيرد له الصاع صاعين .. وسرعان ما وثبت الحكاية من الى بيت .. وأخذ كل منهم يحكى لأهله التفاصيل الكاملة .. وزيادة ــ فى ذهول لما تم فى جلسة الصلح عند سعد الأقرع .. ولكن هناك واحدا فقط من الحضور لم تنفرج شفتاه عن حرف واحد حول مادار فى تلك الجلســـة .. لا لأنه لا يحب نقل الكلام ، ولكن لأنه خرج من عند الحاج سعد وهو غارقا فى بحر سحيق من الذهول والدهشـــة وعدم التصـــديق .. كان يلفه ويحتويه الوجوم والصمت التام .. حتى أنه لم يعد لديه القدرة على الاشـــتراك مع آخرين فى التحدث او الاستماع .. ولذلك لم يتوجه حتى الى أمه التى تقبع فى البيت وحيـــدة تنتظر أبنها الوحيد .. ولكنه بتلقائية ودون تفكير ، حل عقال ســـاقيه ، فراحت تدفعان به بعيـــدا عن الكفر وبيوته التى أوشـــكت جدرانها أن تطبق على صدره وتختنق أنفاسه الى ان احس بجسده المحموم وسط الحقول واوراق الذرة الشامية التى بللها ندى المساء شرعت تحتك به وتعانق جلبابه الأبيض .. فيزداد ضيقا وانفعالا .. فيضربها برجله مرة و .. ويرتطم بها مرة أخرى .. فتحدث خرفشة تخدش بها هدوء الليل الذى أناخ واستقر فوق كل هذه الحقول منذ ان هربت شـــمس النهار الى الأفق الغربى البعيد .. وانتبه فجاة مأخـــوذا بشىء لامع أمام قدميـــه .. واذ به يدرك أنها صورة البدر كاملا .. تنعكس فى تماوج رقيق على صـــفحة الماء

الراكد فى احدى قنوات الرى .. فأسرع برفع جلبابه ، كاشفا عن ساقين مكسوتين بالشعر الكثيف .. ووثب متخطيا القناة ، وواصل سيره بعد أن أفاق وراح يلم بالموجودات التى تحيط به .. فها هو يغوص بجسده وسط أحد حقول الذرة وقد بلغت الشجيرات فيها نهاية نموها وارتفاعها .. ممتلئة بالأوراق الخضراء المفرودة وكأنها أكف تمتد للمصافحة والترحيب بالأستاذ .. وثمرة الذرة لم تنضج بعد ، والبدر فى العلياء قد نشر على المكان من حوله خيمته الأسطورة التى غزلها ونسجها من خيوط فضية هادئة باردة ببرودة نسمات الليل فى الكفر .. وبالرغم من بصيص الارتياح الذى بدأ يسرى الى داخله الا أنه شعر بالسخط تجاه تلك المصابيح الكهربائية التى زرعت فى طرقات الكفر .. لأنها دون قصد أفسدت عبقرية وجمال اللوحة التى أبدعتها يد الطبيعة الماهرة ، وراحت تلتهم ضوء القمر البادىء .. كما لو كان هو الآخر دودة ورق القطن تبتلع اللون الاخضر الجميل .. وهتف لنفسه متعجبا : تلك الكهرباء التى سعينا لها وكتبنا الشكاوى .. وبكينا للمسئولين .. ودعونا لها فى صلواتنا تأتى اليوم وتحرمنا من لوحات جميلة رائعة حفرت فى أعماقنا وخيالنا منذ أزمان ..

وهز رأسه فى أسى وهو يهمس لنفسه ، بينما امتدت أصابعه بخفة الى ورقة ذرة خضراء .. انتزعها .. وراح يعتصرها بين أصابعه بعنف ومرارة وكأنه يخنق كائنا يكرهه : هكذا .. كل شىء نعتقد أنه لصالحنا ونجرى وراءه .. ونسعى لتحقيقه بكل جهد وتفان .. واذا ما تحقق .. نكتشف بعدها .. أننا فقدنا فى مقابل تحقيقه أشياء كثيرة هامة .. ومن العجيب أننا لا ندرك أهميتها الا بعد أن نفقدها .. ولكنه الانسان المتعجل دائما .. القاصر العقل والتفكير ..

وفى الحقيقة لم يكن الأستاذ جمال صفى الدين .. يعنى بذلك فقط ما سلبته أضواء الكهرباء من روعة وبهاء تلك الليالى الريفية المقمرة .. ولكن الواقع كان ما حدث فى بيت الحاج سعد .. سعد الأقرع هو المرجل

الذى لم يزل يغلى ويفور فى صــدره .. وتنهد فى مرارة وحزن متســائلا فى استنكار : اهكذا ؟! أهكذا ينسى الأنسان اصله وماضيه ؟ .. اهكذا يتنكر سعد للآخرين أصــحاب الفضــل عليه .. ان المسافة الزمنية لم تبتعــد كثيرا .. عشر سنوات .. عشر سنوات تقريبا ·· منذ أن تســلم عمله فى مدرسة الكفر .. كفر مفتاح .. هذا الكفر الذى بدأ يفقد الكثير من قيمته ·· يومها كانت ســعدية ابنة ســعد تلميذة فى الصف الســادس الابتــدائى بالمدرسة .. وكانت المدرسة مشتركة من بنين وبنات .. عدد الصف يومها لم يزيد عن عشرين تلميذا وتلميذة .. ولذلك لم يكن من الصعب عليه يومها أن يعرف أســماء الأولاد والبنات فى الصــف السادس .. منذ اليوم التالى لوصوله الى المدرسة .. بل اكثر من ذلك اســتطاع أن يكون فكرة تقريبية عن كل تلميذة من حيث عمل الأب .. ومســتوى الأسرة ، وذلك من خــلال اطلاعه على بطاقة الحالة الاجتماعية والأسرية لكل طفل وطفلة .. وكذلك كل شىء يهم المدرس حول تلاميذه .. ترتيبه بين أخوته .. دخل الأسرة ·· مســكنه .. عدد أفــراد الأسرة .. وكلها فى الكفر تكاد تكون متشابهــة فالفوارق محدودة ، ولكن الذى أزعجة وجذب انتباهه من الوهلة الأولى هى تلك الطفلة التى تجلس فى المقعد الأخير الملتصق بالجدار .. وحيدة .. مع أن المقعد عريض ويتسع لأكثر من طفلة .. الا أنها تجلس وحيدة منفردة .. صامتة .. مضطربة أحيانا .. شاردة أحيانا أخرى ·· محملقة فى فضــاء الصف ولكأنها تبحث عن شىء مفقود منها فى فضاء الغرفة ..

وطفق الأستاذ جمال يجتر الذكريات .. فهو لم يزل يتذكر أنه أشار لها بيده منبها وسائلا اياها عن اسمها .. فنهضت يمتلكها الارتباك ، وهى تتلفت حولها ملاحظة بقية التلاميذ بالصف وكأنها فزعة من شىء ما .. وبعد تردد أجابت متلعثمة بينما كانت تفرك يدا بيد فى عصــبية ظاهرة وخجــل : سعيدة .. ســعد ·.·

وغمغم أحد الأطفال بكلمة لم اتبينها بوضوح ولكن على آثرها انفجر الأطفــال بالضــحك .. وطفق المتظاهرون منهم بالأدب يزمون شــفاهم

ويضــعون أيديهم على أفواههم محاولين اخفاء الضـحكات .. فانتهزت الفرصة وعنفتهم كى القنهم درسا فى الأدب والأخلاق .. وأن الضحك من غير سبب هو من قبيل قلة الأدب .. وأن الذى يريد منكم أن يقول نكته .. يجب أن تكون لديه الشـجاعة الأدبية ويخرج أمام الجميع ، ويلقيها علينا لنضـحك جميعا وأنا لا أمانع .. لأن الهمس من خلف الأدراج هو ســلوك الجبنــاء ، وأنتم مبثابة أولادى .. ولا أرضى .. او احب ان يكون احد من أولادى جبانا .. وأنا متأكد أنكم كلكم شـجعان وعلى خلق ولذلك فأنا لن أحاسـب ولن اعاقب على هـذا الخطأ هذه المرة .. وبدى على وجوههم الاحساس بالأسف والندم .. وجمدوا فى أماكنهم جميعا ، لا يلوى أحد منهم على شىء وقد لفهم الخزى ..

وبعد أن أمسـكت بزمام الموقف تماما ، عاودت النظر الى سـعدية ، وخاطبتها بود وحنان وتقدير ، مشجعا لها : أحسنت يا ســعدية .. يبدو عليك الذكاء والاجتهاد ..

وقبل أن يعاود التلاميذ الضحك الذى يحاولون كتمانه بصعوبة شديدة خلف أسنانهم وشـفاهم .. وانقاذا للموقف وتحويلا للأنظار والأفكار عن سعدية ســارعت بالانتقال الى تلميذ آخر ادركت أنه مرهوب الجانب منهم ، واوقفته وسألته عن اسمه .. وتكلمت معه فى موضــوع آخر جذب انتباه التلاميذ بعيدا عن سعدية ، التى حانت منى التفاتة سريعة لها طالبا — منها — بابتسامة أبوية — الجلوس .

وتطرقت الى موضوعات أخرى ، ولكن بعد أن قررت أن ادرس حالة هذه الطفلة محاولا الأخذ بيدها واخراجها من هذا الاضطراب وفقدان الثقة بالنفس التى تغرق فيهما .. ولكى تكون الدراسة جادة ومجدية ، لم ألجأ الى البطاقة الخاصة بالحالة الاجتماعية فقط — .. لأنها لن تمدنى بكل الحقائق والمعطيات الضرورية لدراسة الحالة .. ومعرفة السبب الذى اثار ضـحك زملائهـا عليها .. وما هو الشىء الذى تخجل منه .. لذلك يومها .. وبعد نهاية الحصة تقابلت مع الفراش فى المدرسة .. وبعد أن عرفت أنه من ابناء

كفر مفتاح ، ويعيش فى نفس الكفر .. طلبت منه أن يكلمنى بصراحة عن كل شئ يتصل بالبنت سعدية سعد التلميذة بالصف السادس ، وأدهشنى أن الفراش يسارع بتصويب الاسم قائلا : قصدك سعدية بنت سعد الأقرع .

استفسرت مستغربا : وهل جدها اسمه الاقرع ؟

فأجاب موضحا : لا يأستاذ .. جدها اسمة رزق .. ولكن الأقرع هذا لقب .. أطلقه الناس على أبيها منذ أن كان صغيرا لأن رأسة كانت بها حبوب وأورام كثيرة .. وكان دائما يضع عليها المراهم .. ومنذ ذلك اليوم والناس يطلقون عليه اسم الاقرع ..

وأضفت له سؤالا آخر : أنا أعرف أن اباها مزارع .. ياترى حالته المادية جيدة ؟ .. اقصد .. هل يمتلك أرضا زراعية ؟

ــ لا .. لا يأستاذ أبوها رجل فلاح بسيط .. على قد حاله كل الذى يملكه هو وأخوه مرزوق أبو رزق مؤذن الجامع لا يزيد عن ستة قراريط فقط .. ولذلك فان أباها فى أيام كثيرة يعمل بالأجر عند الناس الآخرين .. وخاصة فى ملف حضرة العمدة الحاج أيوب مفتاح ..

وسألته عن أمها .. أهى على قيد الحياة ؟ .. فأجاب بأنها موجودة ومثل القردة وأنجبت خمس بنات وأن سعدية هى أكبرهم ....

فقاطعته مندهشا : مادامت أمها على قيد الحياة .. فلما لا تهتم بنظافتها .. مريلتها متسخة .. وشعرها غير مصفف ..

فقال الفراش ملتمسا لهم العذر : أصلهم أناس غلابة يا استاذ ولا يعرفون اذا ما كانت المريلة وسخة أم نظيفة و ....

واعترضت على هذا التبرير قائلا : ان النظافة من الايمان .. والنظافة مطلوبة من الجميع لا فرق بين غنى وفقير ..

واكتشفت يومها بهذا القدر السريع من المعومات حول سعدية سعد ، وفضلت أن أترك لنفسى فرصة أستطيع خلالها ترتيب تلك المعلومات فى ذهنى ، بالاضافة لضرورة معرفة مستواها الدراسى ، بطريقة غير مباشرة فى

صباح اليوم التالى حيث ساطرح الأسئلة فى المواد المختلفة على كل التلاميذ بالصـــف وهى بالطبع ســتكون من بينهم .. ومن ثم أطلــع على خطها ومستواها الاملائى ، بالاضافة للوقوف على مستوى الذكاء عندها ..

وبالفعل استطعت أن أكون فكرة شبه كاملة عن سعدية .. واقتنعت بأن الطفلة لا بأس بها ، فمستواها الذكائى فوق المتوســـط .. وان وجدت من يأخذ بيدها ويزيل من حولها تلك التـــلال المتراكمة من المشـــاكل والقلق والتوترات بسبب ظروفها الأسرية ولقب أبيها (ســـعد الأقرع) وخاصـــة أنها مفرطة فى الحساســـية .. فاذا أفلحت فى ذلك ونجحت فى اعادة الثقة بالنفس اليها .. وبالتشجيع الدائم والمســـتمر يمكننى ان شاء الله مساعدة هذه الطفلة .

ولأننى كنت جـــديدا بعد .. ولم تزل كل المعلـــومات التربوية التى درستها فى معهـــد المعلمين بالزقازيق متوهجة فى عقلى وتفكـــيرى .. ولأن حماسى الفطرى ضد مواقف الضعف البشرى المفروضة على الانسان ، من قبل الظروف الخارجية والخارجة عن ارادته لم يزل متأججا بعد .. لذلك قررت ان اجعل من سعدية سعد حالة .. فحصتها .. وشخصت اسبابها .. ولم يبق الا العلاج ، وبالفعل سطرت لها كراسة باسمها ـــ خاصة بى ـــ وحتى لا تقع فى يد انسان آخر رمزت لها بالحرفين س . س .

ولكى ابدأ فى العلاج لابد من بناء جسر من العلاقات الطيبة يصل بينى وبين أسرتها ، وخاصة والدها .. لذلك قررت أن التقى معه .. ولم يكن فى ذلك مشـــكلة ما .. حيث أننى كنت قد أقمت فى دوار العمـــدة الحاج أيوب مفتـــاح .. فى نفس الوقت الذى كان ســـعد يأتى اليه للقيام ببعض أعمال النظافة فى الدوار بين وقت وآخر .. هكـــذا قال لى خفير الدوار القائم على حراسته وخدمته ليل نهار وقال أنه ســـيحضره لى .. وبالفعل أحضره فى نفس اليوم الذى طلبت منه ذلك .. و

وكانت رؤيتى لســـعد مفاجأة .. حقيقـــة كانت مفاجأة لى ، قلبت توقعاتى رأســـا على عقب ـــ كما يقولون ـــ .. فلقد رسمت لسعد ـــ من

قبل — فى خيالى صورة الفلاح ضعيف البنية ، شـاحب اللون ، الخجول ، ذليل المظهر ، متعلثم اللسان .. ولكن على عكس ذلك كله ، اذ به شاب فى حوالى الخامسـة والثلاثين من عمره .. طـويلا .. عريض الكتفين منتفخ الأوداج واسع الفم .. كثيف شعر الحاجبين ، ونظرت الى رأسـة فاذ به يتوجهـا بطاقية من الوبر الغالى .. بالرغم من فقره البادى عليـة والذى يفضحه العدد من الرقع المتناثرة على جلبابة الأزرق الرخيص الذى يرتديه .. وعندما تكلم زادت دهشتى أكثر .. كان طلق اللسان كمن يقرأ فى كتاب قد أجاد قراءته للمرة الألف .. لا يخطىء .. لا يتعلثم .. ولذلك لم أسـتطع منع نفسى لحظتها عن معالجتة بسـؤال فرض نفسة : هل تعلمت فى مدرسة يا أخ سـعد ؟

فأجاب وقد بدى علية احساس بالفرح والنشوة : الحقيقة يا أستاذ .. أنا لم أدخل مدارس .. ولكنى تعلمت فى مدرسـة الحياة .. وهى كما تعلم حضرتك أحسن مدرسة يمكن أن يتعلم فيها الانسان .. ولكننى عندما كنت طفلا صـغيرا ذهبت الى الكتاب فى القرية المجاورة لعدة أشـهر حفظت فيها « جزء عم » .. لكننى لم أكمل .. ولم أذهب الى المدرسـة .. وصـمت لحظة .. ثم استدرك قائلا كأنة نسى شيئا هاما : وليس السـبب فى ذلك قلة المال أو ضيق ذات اليد .. ولكن السبب الأهم هو أن الاهتمام بالتعليم فى تلك الأيام لم يكن موجودا من قبل القرويين عموما بعكس الحال اليوم .. كل الناس اهتمت بتعليم أولادهم .. الكل يعلم أولاده ..

وتوقف للحظات يزدرد فيها لعابة ، ثم أردف وكأنه يتحسر ويأسف على سوء الحال فى هذه الأيام : اليوم ابن الشحاذ صـار وكيلا للنيابة .. وابن الغسالة والخدامة أصبح ضابطا فى الشرطة أو الجيش .. لأن التعليم اليوم مجانا .. والفرصة متاحة للجميع .. وذلك بفضل الاشتراكية التى سـار عليها الرئيس جمال عبد الناصر .. ولذلك ضـاع أولاد الأصـول والناس الأفاضل بين رعاع القوم .. أصـبحوا تحت أمر ورحمة أولاد الشـحاذين

وأراد أن يسترسل ويستفيض فى الحديث وكأنه ابن أحد الباشــوات يتباكى على عصور أجداده الذهبية الغابرة التى محتها ثورة يوليو فى مصر .. ولكننى قاطعته فى هدوء موضــحا : لكن يا أخ ســعد .. انت بعقلك الكبير تستطيع أن تدرك أن كل هذه المفاهيم قد تغيرت وانتهت منذ قيام الثورة .. أى أنه لم يعد هناك ابن باشا .. أو ابن شحاذ ــ كما تقول ــ بل ان هذا الكلام اصــبح اليوم غريبا عن الآذان والاذهان .. نحن اليــوم نعيش أوج عظمة مصر .. اننا نعيش فى عصر عبد الناصر .. نحن نعيش فى سنة ١٩٦٦ ميلادية .. ولقد جاءت القوانين الاشتراكية لتضع الناس كل الناس فى أماكنهم الطبيعية والحقيقية ، أى ان كل واحد فى البلد اليوم يأخذ من خير البلد بقدر بقدر عطائه لها .. لم يعد الميراث وحده هو سبب الغنى أو الفقر .. فلم يعد الفتى من قال كان أبى ولكن الفتى من يقول ها أنذا ..

ولم يترك يومها ســعد الفرصــة كى أكمل كلامى .. ولكنه قاطعنى محتجا على واقع الحال وكأنه ناقم عليه اشد النقمة : وتلك هى المصــيبة يا أســتاذ ..

دهشت ، وسألته : وكيف ؟ !!

فاســتطرد مفسرا ومحللا : فى هذه الأيام .. العيل الذى يحصــل على شهادة الاعدادية العامة .. يركبه الغرور ويشعر بالتعالى على الآخرين .. حتى على اهله وأسرته .. وسبكرتير الجمعية الزراعية الحاصــل على دبلوم الزراعة أو التجارة ، يتعامل معنا ومع بقية أهل الكفر بقلة ادب وغطرسة ، كما لو كنا خدامين أبيه .. مع انك لو بحثت عن أبيه ســتجده شحاذا ، ولا يملك لقمة واحدة يأكلها .. ما عليك من هؤلاء ، أنظر الى الفلاح الجربوع الذى عاد من حرب اليمن ، بعد خدمته فى الجيش هناك .. تراه يرجع ومعه اكثر من ثلاثة آلاف جنيه .. وبعد أن كانت رائحة فمه تقرف الكلب من الجوع .. يأتى ويشترى الأراضى الزراعية ويصبح من ذوى الأطيان .. وليس هذا فقط ولكن الحكومة تشغله وتجعل منه موظفا له مرتب شهرى ثابت ويصبح

رزقة مضـــمونا ويركبه الغرور هو الآخر ، والواحد منا ماعاد يقدر يكلمه ..
وكأنه أصـــبح فرعونا .. والشيء يكون ثمنه خمســـة قروش ويسارع هو
ويشتريه بسبعة أو ثمانية قروش ، لأنه عنده الفلوس كثيرة ، ويرفع الأسعار
على الناس الغلابة من أمثالنا .. يعنى لو أن عبـــد الناصر لم يجعل التعليم
مجانا .. ولم يعط الجنود مكافآت .. وظل كل واحد من أفراد الشعب على
حاله .. لكان زمن الخير والبركة قد بقى على حاله .. ولدام الاحترام بين
الناس .. وظل الكبير كبيرا والصغير صغيرا و ....

وقتلت ابتســـامة ســـاخرة فى اعماقى وقاطعته قائلا : ؟ لكن يا أخ
ســـعد .. ليس العيب فى ما فعله عبد الناصر .. أى ان الرئيس عبد الناصر
لم يخطى فى مكافأة جنودنا الأبطال الذين ضحوا فوق جبال اليمن واستبسلوا
هناك .. وايضا لم يخطىء عبد الناصر عندما جعل التعليم مجانا وحقا للجميع
مثل الماء والهواء .. ولكن اذا كان هناك خطأ ما أو عيب ، فهو بالتأكيد فى
الانسان الذىاستخدم هذه الأشـــياء الخاصـــة به والحقوق المخولة له فى
التعالى على أهله وعشـــيرته او الآخرين أو استخدامها بطريقة خاطئة ترتب
عليها نوع من الخلل فى الحياة الاجتماعية التقليدية ..

وكأن الكـــلام لم يعجب ســـعد ، أو كأنه لم يقتنع ، فأراد أن ينهى
الحـــوار بلباقة .. فقال مبتسمـــا : على أية حال يا استاذ جمال .. أنت
استاذ ومتعلم .. ولن أقدر على حضرتك فى الكلام .. لكن والله العظيم أنا
اعتبر هذا اليوم هو أســـعد يوم فى حياتى ، لأنى تعرفت على حضرتك ..
واحببتك من كل قلبى ، وارجو أن تشرف أخاك الغلبان ســـعد أبو رزق فى
بيته .. وترفع مقامى قدام أهل الكفر .. وأنت يبدو عليك أنك ابن حلال ،
ومتواضع .. وابن أصل ....

فهتفت لنفسى مرتاحا : وهذا هو ما اســـعى اليه .. لعلاج مشـــكلة
سعدية ابنتك ثم رفعت عقيرتى مؤكدا له اســـتجابتى لرغبته : بالطبـــع أن
شـــاء الله ..

وبينما كان الأستاذ جمال يسترسل مســتعرضا شريط ذكريات قديم ، مضى عليــه أكثر من عشر ســنوات .. اذ به ينتبه مروعا على أثر جلبــة وخرفشــة حادة ومفاجئة .. واذ بحيوان برى يعدو وثبا بين شــجيرات الذرة .. ويمزق انتظام واستقامة الشــجيرات داخــل الحقــل القريب منه وأحس بأن شــجيرات القطن أصبحت أطول مما كانت ، وسرت انتفاضــة خرف مفاجئة فى كيان جمال وطفقت حبات من العرق تتجمع ساخنــة تحت ابطية ، وبعض منها يتجمع على شكل نهيرات رفيعة باردة منحدرة من تحت ملابسه الداخلية من فوق ظهره وكأنها ينبوع من خوف .

واســتدار تجاه الكفر فهاله أنه قد ابتعــد كثيرا عن بيوت الكفر .. وراحت أضواءه الشاحبة الواهنــة تتارجح أمام ناظريه تظهر تارة وتختفى تارة أخرى متوارية خلف صفوف من الأشــجار العالية التى اســتحالت الى عمالق فى بلاد المجهول تحاول أن تفصــل بينه وبين بيته وأمه حيث الأمن والآمان .. وشعر بنبض الذعر فى قلبه يعلو دبيبه ، حتى كادت تسـمعه أذناه وخاصة عندما تذكر أن هناك ذئبا يتحدث عنه البعض من أهل الكفر زاعمين أنه قد ظهر فى هذا المكان منذ أيام واعترض طريق أحد الفلاحين وهو يروى حقله ليلا .. وحاول جمال أن يتماســك .. وشرع يتلو بعضــا من آيات القرآن الكريم .. وهو ينشط بصعوبة فى خطواته .. وود لو مد يده وامسك بجدران بيوت الكفر التى خالها قد بعدت عنه مســافة أعوام وأعوام .

الفصـــــل الثالث

لم يكن جمال صـــفى الدين ، هو وحده الذى احتل عليـــه ما حدث كل تفكيره ، بل كان هناك .. وعلى الطرف الآخر من الكفر بالقرب من ترعة الجنابية ، وحيث تنتصب (فيلا) العمدة الجميلة الفخمة المحاطة بســـور حجرى نصف مرتفع تتوجه اغصان شجيرات الليمون المالح ، والبرتقال المتراقصة فى دلال كلما داعبتها أنامل النسمات الليلية الصيفية الرقيقة بين الفينة والفينة ..

وكان فى داخلها العمدة الحاج أيوب مفتاح لم يغمض له جفن بعد .. وبين لحظة وأخرى كان الزفير الهادر يشق صدره شقا كأنه بركان ثائر .. بينما كانت زوجته الحاجة صفية مستلقية فى قلق ، وبجواره ، فوق سرير من النحاس الأصفر اللامع ذا الأعمدة المربعة المرتفعة بناموســيته البيضاء التى تحضن الجميع بداخلها حمـــاية لهم من الناموس الصـــيفى الشرس المتوافد عليهم من الحقول القريبة ..

وارادت الحاجة صفية ان تهون الأمر عن زوجها ، وتخفف عنه تلك الانفعالات الثقيلة التى سببها له سعد الأقرع .. فقطعت الصـــمت قائلة : تأكد انك لم تخطىء ياحاج .. ولكن العيب صدر من أهل العيب .. من قليل الأدب عديم التربية و ....

وعلى الفور قاطعها العمدة محتجا فى قرف : أرجوك ياحاجة .. مرة ثانية لا تنادينى بلقب الحاج .. مادام سعد الأقرع صار اســـمه هو الآخر الحاج سعد .. فأنا فى غنى عن هذا اللقب الذى يجمعنى مع هذا البنى آدم الجلف الجربوع .. محدث النعمة .. أعوذ بالله .. استغفر الله العظيم .. قصدى الكافر بالنعمة ..

فقالت الحاجة فى توسل رقيق مخلص : من أجل خاطرى .. أرجوك ياعمدة .. هدىء من انفعالك وغضبك هذا .. أنت العمدة .. أنت الكبير فى الكفر .. والواجب عليك أن تتحمل الصغير ولو أخطأ .. وسعد الأقرع سواء زاد أو نقص لن يزيد عن كونه فلاحا أجيرا .. وكان فى يوم من الأيام علاف ماشـــيتك ..

فقاطعها العمدة وهو يضرب كفا بكف : انتهى .. خلاص .. انتهى كل هذا الكلام ياحاجة .. ولم يعد هناك كبيرا ، ولم يعد هناك صغيرا .. مادام الناس غيرتها الفلوس .. لم يعد هناك عمدة ، ولم يعد هناك احترام أو تقدير .. لقد قالها ســـــعد الأقرع الليلة « أنا كبير نفسى » .. وماذا نقول ؟ .. معه حق .. لم يعد فى حاجة الى العمدة أو غير العمدة .. الفلوس التى أتت بها ابنته المرضة .. من السعودية ، واشترى ثلاثة أفدنة .. وعمل مزرعة دواجن فيها عشرون ألف دجاجة .. وجــرار زراعى يؤجــره للفلاحين .. وســـيارة نصف نقل .. كل هذه الأشياء جعلته يستغنى عن الناس .. صدق الله العظيم « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » .. كل شىء موجود فى كتاب الله .. الولد المفترى يقول لو جرى خلفة القطار .. قطار الفقر فلن يلحق به هل تصدقين ياحاجة ؟ .. هل يوجد انســـان عاقل يفكر مثل هذا التفكير .. وهل تدوم النعمة لمخلوق .. هذا الجاحد بنعمـــة الله المغرور .. ويهيننى أنا .. أنا العمدة ؟ .. أنا أيوب مفتاح الذى لم يقصر فى تقديم الواجب تجاه اى انسان فى الكفر .. أنا الذى كنت ومازلت أقدم مصالح أهل الكفر على مصلحتى الخاصة .. يكون هذا جزائى .. ومن من ؟ .. من ســـعد .. سعد الأقرع .. اســـتغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم ..

قالت الحاجة صـــفية فى استعطاف ورجاء ، وهى تربت على صـــدره وكأنه طفلها الباكى الغاضب تهدىء من ثورته وحدة انفعاله : بالله عليك ياعمدة .. لا تغضب نفسك هكذا .. نحن فى حاجة اليك .. هذا الغضب الشديد يؤثر على صحتك .. لا قدر الله لو أصـابك مكروه .. لن ينفعك سعد

الأقرع ، ولا ابنته المرضة .. هو الآن نائم فى فراشة هادىء البال مرتاح الضمير .. بعد أن اخرج كل ما فى صدره من حقده .. بينما أنت هنا تغلى ضيقا وتقاسى بسببه .. وهو نذل وجبان ولا يستاهل منك مجرد التفكير فيه .. ارحم نفسك ياعمدة وارحمنا معك .. وأنا وبناتك ليس لنا أحد فى الدنيا بعده غيرك .. من اجلنا ياعمدة ..

وكأنه لم يستمع لما قالت .. فهمس فى أسى واستنكار : كل بنى آدم يذهب الى العراق أو السعودية أو ليبيا كم سنة .. يتغرب ويبهدل نفسه .. ويرجع ومعه كم جنيه .. يتنكر ، ويتكبر على الناس .. أليست تلك مصيبة .. انها علامة من علامات القيامة و ...

وقاطعته الحاجة قائلة : قليل الاصل فقط هو الذى يفعل ذلك .. هنا أولاد حلال كثيرون يسافرون ، ويعملون فى الخارج .. ومع ذلك يرجعون كما ذهبوا — رغم زيادة أموالهم — أخلاقهم الفاضلة تبقى كما هى لا تتغير .. عندك مثلا الأستاذ احمد أبو حسين .. راح الكويت اعارة أربع سنوات ورجع هو هو لم يتغير .. بل أصبح متواضعا أكثر من الأول .. ويساعد الفقراء والمحتاجين .. وأحضر معه مراوحا للمسجد .. ويساهم فى أى عمل خير يطلب منه .. لكن .. واحدا مثل سعد الأقرع هذا لم يجد من يربيه .. ليس له أصل .. وهو حاسس أنه ليس له قيمة وسط الناس ، ولذلك يحاول التطاول على أسياد الكفر حتى يتحاكى به الناس ، ويتقولون عنه انه أصبح كبيرا .. قلة عقل .. وسوء تربية .. ولكن والله ياعمدة ، مادام افتخر بماله .. ان شاء الله ربنا لن يتركه .. قد يمهله قليلا ولكن لن يمهله .. سيكون فى يوم من الأيام عبره لغيره من المغرورين بأموالهم وغناهم ..

وتمتم العمدة مستغربا : وما ذنب الولد الغلبان زوج ابنته سعدية .. الولد المسكين يحاول أن يرجع زوجته من أجل خاطر الطفلة المسكينة .. طفلة صغيرة ضعيفة .. محتاجة الى تربية .. محتاجة الى حصن أبيها وامها .. والبنت سعدية — كما علمت — من فرج أفندى — لم ترفض الرجوع

الى زوجها لكى تربى الطفلة الصغيرة ، ولكن سعد باشا الأقرع يرفض ذلك الآن .. الآنلم يعد عاجبا سـعد .. اليس هذا هو الأستاذ ؟ !! .. اليس هذا هو الأستاذ فرج .. الأسـتاذ راح .. الاسـتاذ جاء .. ورغم انه لم يحصل على شهادات غير شهادة الاعدادية العامة ، ويعمل بها كاتبا فى المستشفى الذى كانت تعمل به سعدية الا أن سعد الأقرع كان طالما به السماء ، وجاعلا منه كبير الأساتذة ..

طوال النهار والليل .. فى الطريق .. فى المسجد .. فى الغيط .. كلما قابلنى أو قابل أى انسان يكلمه عن الأستاذ .. ويحكى له بمناسبة وبدون مناسبة عن الاستاذ ، أخلاق الاستاذ .. وأدب الاستاذ .. وعلم الاستاذ .. وذكاء الاستاذ .. وعيلة الاستاذ .. الآن أصبح الاستاذ مجرد شوكة فى ظهر سعد الأقرع يريد التخلص منها .. المجرم ، قليل الدين حلف بالطلاق ثلاث انه لن يرد البنت لزوجها أبدا ..

واكملت الحاجة صفية حديث زوجها العمدة قائلة كأنها تذكره : أنت تعلم ياعمدة وتذكر جيدا أنهم هم الذين سعوا خلفه وبذلوا له الوعود قبلوا يديه حتى قبل وتزوج ابنتهم .. كان زواج مصلحة .. لأن سـعدية كان لابد لها من محرم كشرط للحصول على عقد العمل فى السعودية .. ولذلك اغروه بالسفر معها الى السعودية كمرافق ، وانه سيعمل معها فى السعودية باجر كبـير .. وبعد أن تم الزواج فى صـمت وبدون فرح ، ذهب معها الى السعودية .. وانقذ الموقف لسعد الأقرع وبنته لانها لو بقيت طول عمرها فى الكفر فلن يتزوجها أحد من أبناء الكفر اكراما لأبيها ، ولان البنت ما فيها رائحة الجمال و ..

وقاطعها زوجها منبها لها : استغفرى الله ياحاجة خلقـة ربنا شريفة وعظيمة .. أنت عندك بنات ، وكل الناس خير وبركة ..

فاستدركت الحاجة قائلة وكأنها تعتذر : اسـتغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم .. سامحنى يارب أنا لم أقصد شيئا .. ولكن الكلام وصل بى الى هذا .. سامحنى يارب .

وتساءل العمدة فى استغراب : خبرينى ياحاجة .. أنا لم اعد أميز .. هل الناس هى التى تفكر بطريقة غير طبيعية وغير مألوفة ؟ .. أم أنا ؟ .. أنا الذى كبرت فى السن .. ولم أعد قادرا على فهم الناس فى هذه الايام ؟! .

صاحت الحاجة مستنكرة : كبرت : ؟ !! .. لا تقل هذا يا عمدة .. أنت فى عز شبابك .. ما شاء الله عليك .. تفكيرك ياعمدة يحكم جمهورية بكاملها .. لكن الناس .. الناس ياعمدة هم الذين هبلتهم الفلوس ، وغيرتهم المادة ..

وكأن شهادة الحاجة له طيب خاطره فشجعة على الاسترسال فى الحديث مؤكدا : نعم ياحاجة .. لقد صدقت .. أتذكرين ؟ .. أتذكرين سعد الأقرع عندما كان يحزن ويغضب ويعتب على عندما كنت استأجر أحد الفلاحين غيره ، لكى ينظف حظيرة المواشى .. كان يقول لى وكأنه يبكى أنا أولى ياحضرة العمدة بالعمل .. أنا عندى بنات محتاجين الى لقمة العيش .. أتذكرين ياحاجة ؟ .

— بالطبع اذكر جيدا ياعمدة .. هذه الأشياء لم يمضى عليها وقت طويل لكى تنسى .

— لا حول ولا قوة الا بالله .. الآن يتجرأ على قائلا كأنه يسبنى (أنا كبير نفسى) .. يسخر منى ويتهكم على ..

وصمت لحظة .. ثم أردف بصوت أكثر حدة وغضب .. بينما كانت يده اليمنى بأصابعها الفولاذية تعتصر عمود السرير المجاور لرأسة بعصبية وعنف : تصورى ياحاجة .. ان كل الكلام الذى كان يقوله لاخيه مرزوق عن الحسد والحقد .. هذا كله ادركت الآن فقط أنه كان يوجهه لى .. كان يقصدنى أنا بالذات .. كان يختلس النظرات لى أثناء كلامه الى اخيه وكأنه يقول واسمعى ياجاره .. الكلب .. يتوهم أنه صار أحسن منى .. وأصبحت أنا بالنسبة له فى مكان الحاسد له .. والحاقد عليه .. الكلب ابن الكلب .

واستدار الى الحاجة براسة من فوق الوسادة وصارحها وهو يضغط بضروسه فوق حروف الكلمات : والله ياحاجة كنت على وشك أن أنهض وأضربه .. من أجل تلك الاهانات التى وجهها لاخيـــه المســـكين الشـــيخ مرزوق .. هذا الذى رباه وجعل من نفسه ابا له بعد أن مات أبوه وهو طفل صغير .. وظل يحافظ عليه ويرعاه حتى زوجه واسكنه معه فى بيته هو وزوجته وبناته .. حتى ذهبت بنته الى السعودية وبنت له هذا المنزل الذى يســـكن فيه الآن .. وكان جزاؤه أن يسبه أمام الجميـــع ويتهمه بالحقد والحســـد ..

وكان الحاجة صـــفية أرادت أن تغلق الســـتار نهائيا عن تلك المشاهد الملتهبة التى أخرجها الملعون سعد الأقرع ولا يكوى بها غير زوجها العمدة .. فجعلت أصابعها البضة الرقيقة تتسلل وسط غابة الشعر الكثيفة التى تغطى صدر زوجها .. عابثة فيه بهدوء ونعومة هامســـة له فى ود ودلال : خلاص ياحضرة العمدة .. لا تحمل نفسك اكثر من هذا .. أنت عمدة البلد .. وكل مشاكل الكفر تعرض عليك .. كل يوم أكثر من مشكلة .. كيف ســـتتحمل كل هذا .. لو اعطيت لكل مشكلة كل هذا القدر من الانفعال .. الله أكبر .. لا قدر الله ستقضى على صحتك يا عمدة .. وأنا محتاجة لك يا عمدة ..

وكان العمدة لم يفهم قصد زوجته التى لم تزل تعبث فى شعر صـــدره فقال متنهدا : كل المشاكل يا صفية احلها واخرج منها وأنا العمـــدة .. الا مشكلة ســـعد الأقرع .. فأرادت الحاجة صـــفية أن تنهى الكلام فى هـــذا الموضوع نهائيا ، وتخرج زوجها من تلك الدوامة ، فقالت مبتســـمة مداعبة زوجها : على رأى المثل يا عمدة (قالوا للأقرع أتاكل حلاوة ؟ !! .. رد عليهم وقال بفلوسى) .

وانبسطت أسارير العمدة بعض الشىء وهو يعقب على قولها : صدقت يا حاجة وهذا هو الواقع المر اقرع ومعه فلوس .. ربنا يكفينا شره ..

ثم استدار الى الجهة الأخرى معطيها ظهره وهو يتثاءب ؟ : تصبحين على خير يا حاجة صفية .

فردت وهى تتظاهر بالتثاوءب : وانت من اهل الخير يا حاج .

(الفصـــل الرابـــع)

اذا كان الأستاذ جمال صفى الدين قد استغرقته الدهشـــة ، واحتواه الألم ، لأنه كان يعتقد إن لشخصـــه مكانة هامة ، ومحترمة فى نفس الحاج سعد أبو رزق ، وفى نفس ابنته سعدية ، لأنه شارك مشاركة فعالة وفعلية فى بناء مستقبلهما وكان سببا فى ما وصلت اليه هى وأبوها من غنى . .

واذا كان العمدة تملك عليه الغضب والسخط كل انفاسه ونبضـــاته ، لان سعد الأقرع قد دمر بكلامه ، وتصرفاته ـ الليلة ـ كل القيم الأصـــيلة الراسخة فى طبيعة وأخـــلاق اهل الكفر . . من احترام الصـــغير للكبير . . وكذلـــك اجترائه علي هدم صرح الاحتـــرام والهيبـــة التى تحيط بحضرة العمدة !! . . وهذا الذى لم يفعله أحد فى الكفر من قبل . .

الا أنه وفى نفس الليلة ذاتها . . وفى نفس الكفـــر . . كان هناك رجل قد تجاوز الســـتين من عمره . . ابيض شـــعر الرأس اذا خلع العمامة عند النوم . . اشيب اللحية ، ضيق العينين ، واســـع الفم مثل أخيه . . مرتجف الأنامل بوضوح اذا ما أمسك بشىء ، مرتعش الشـــفة السفلى اذا ما تحدث بانفعال . . تسيل دموعه فى صمت اذا ما جرحت كرامته بعد هذه السن . . وكان يهمس للمـــرة فوق الألف فى أسى وحزن عميق : أ الى هذا الحد ؟ . . أ الى هذه الدرجة يكشف سعد عن وجهه كل أقنعة الحياء والأدب ويســـبنى أمام الجميع ؟! يصفنى بأننى حاسد له على النعمة . . حاقدا !!

ورفع الشـــيخ مرزوق ابو رزق كفه اليمنى متحسسا الطريق الى عينيه يخبئها . . وكأنه يحول دون استرجاع المشاهد المؤلمة التى عاشها الليلة فى بيت أخيه ســـعد مرة أخـــرى . . وانحدرت دمعتان كبيرتان ـ رغما عنه ـ فانحدرتا ساقطتين فى أذنيه بينما كان مستلقيا فى الظـــلام فوق وسادته . . وحاول أن يمســـحها ، فغالبه الأسى ، وخنقته الحسرة . . فلم يتمالك زمام

نفســه ، فاجهش بالبكاء .. واحتــوته نوبة من التشــنج .. حاول أن يسترها ويخفيها عن زوجته فوزية الراقدة معه فى نفس الحجرة وعلى الطرف الآخر منها .. ولكنها اســتيقظت مروعة وهتفت فى خوف : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. بسم الله الرحمن الرحيم .. يا شيخ مرزوق .. يا شيخ مرزوق .. أتحلم ؟ !! أهو كابوس ؟ !!

ولأن العبرات كانت تخنقــه وتمنعه عن الرد عليها .. زاد خوفهــا وقلقها ، فتماسكت ونهضــت .. وراحت تتحسس طريقها فى الظلام .. وراحت تلمسه .. وتهزه من كتفه هزا رفيقا رقيقا ، كى يستيقظ ويفيق من هذا الكابوس اللعين .. ومازلت تتمتم بسم الله ـــ وتستعيذ به ســبحانه وتعالى من الشيطان الرجيم .. اعتقادا منها أنه غارق فى حلم مفزع .. فلقد أدركت بحاســتها التى لا تخطىء أن الليل قد انتصــف منذ فترة طويلة .. وتلك الصيحات التى يطلقها ديكها (الهندى) فى ساحة البيت يعلن لهم أنهم الآن فى الثلث الأخــير من الليل .. وأن الفجر يوشــك أن يدق على أبواب الدنيا .. ولا يعقل أن يكون الشــيخ مرزوق مســتيقظا حتى الآن .. فقد اعتادا الاثنان النوم بعد صــلاة العشاء مباشرة حتى يتمكنا من القيــام لصلاة الفجر .. وخاصة أن الشيخ مرزوق هو الذى يؤذن لصــلاة الصبح فى المسجد .. وكذلك يوءم المصلين فى الصلاة .. ولكن أدهشــها أن زوجها بعد لحظات من الصــمت يرد عليها بصــوت متهــدج مختلج ولكأنه يحاول التماسك فى مواجهتها : لا .. أنا مستيقظ يا فوزية .. فصاحت فى دهشــة اكبر : خيرا .. خيرا يا شيخ مرزوق ؟ .. أتحس بشىء ؟ .. أتشعر بأى ألم ؟ .. هل احضر لك شيئا ؟

ونهضــت مغالبة نعاســها فى قلق جلى ، ومدت يدها الى المصــباح الكيروسينى المعلق فى مسمار بالجدار ، ورفعت من شعلتها فانتشر الضــوء واغرق كل الحجرة الطينية الضيقة ، واتجهت محملقة فى زوجهــا الذى طلب منها على الفور فى توسل وضجر ان تخفض من ضوء المصباح تماما مدعيا بأنه يؤذى عينيه .. ثم أردف يقول فى أسى : حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى

الله ونعم الوكيل فيك يا سعد يا ابن ابى وامى .. منك الى الله .. هو الذى يأخذ حقى منك ..

وطفق يكفكف دمعاته ويزم شفتيه المرتعشتين فى مرارة .

وأدركت زوجته على الفور أن زوجها لم ينم بعد .. وأنه مازال متأثرا بما حدث فى دار أخيه الحاج سعد .. فقالت وهى تمد يدها للمصباح لتخفض من نوره كما طلب منها زوجها : أمازلت غاضبا يا شيخ مرزوق من اخيك سعد ؟ !! انه مهما جرى وحدث منه سيظل اخاك .. والمثل يقول الظفر لا يخرج من اللحم ابدا ..

فقاطعها بحدة : لا .. لقد طلع وطلع وطلع .. أنا !! أنا يحدث لى ما حدث ؟ !! آه يارب .. كل هذا يحدث لى بعد هذه السن .. ومن من ؟ !! .. من أخى الأصغر سعد .. سعد كان بمثابة ابنى .. لقد توليت تربيته بعد موت ابينا .. لم يكن قد تجاوز التاسعة بعد .. وكنت انا رجلا كبيرا .. وعندما كبر زوجته .. وأقام معنا فى بيتى هو وزوجته وبناته الخمس .. وكانت اللقمة التى يرسلها لى ربى .. اقسمها بيننا وبينهم .. لقد قضى الله الا يمنحنا أولادا .. واعتبرتهم جميعهم اولادى .. ويعلم الله اننى كنت اخاف عليه وعلى بناته أكثر من نفسى .. أنا الوحيد فى هذه الدنيا الذى اتمنى له كل خير ، يسبني أمام كل الناس ويصفنى بصفة لم يخطر على بال أحد من قبل أن يصفنى بها .. أنا حاقد ؟ !! .. أنا حاسد ؟!! .. ألأن الله قد أعطاه بعض المال يفترى على الناس .. ويسب الحاضرين وخاصة الأستاذ جمال الذى تحمل معه تربية بناته فى المدارس .. وحضرة العمدة الرجل الطيب الذى يسعى فى الخير لكل الناس .. وكل واحد منهم له افضال كثيرة عليه لا يمكنه هو نفسه أن ينكرها .. يأتى الليلة وينكرها الجاحد ابو قلب أسود ..

وعاود رفع كفيه الى السماء قائلا فى لوعة وحزن عميق جدا : حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا سعد يابن نفيسة ..

فقاطعته زوجته فوزية معاتبة ومخففة من حدة انفعاله : يا شيخ مرزوق لا تغضب .. لا تحزن .. أنت تعرف أخاك سعدا جيدا .. ان قلبه أبيض ونظيف مثل اللبن الحليب يملأ الدنيا ضجيجا ويجعج كثيرا .. ولكن بعدها بلحظات يروق وينسى كل شيء .. هل نسيت أنني عندما تزوجتك كان سعد طفلا صغيرا .. وتوليته معك بالرعاية والتربية ؟ .. الحاج سعد أخوك وابنك ولـ ..

وقاطعها الشيخ مرزوق مستنكرا في حدة : لا .. أنتهى كل شيء .. خلاص يا فوزية .. سعد لم يعد أخي .. بعدما حدث الليلة لم يعد أخي .. واني برىء منه الى يوم القيامة .. لا يدخل بيتى .. ولا أدخل بيته .. ولا اعرفه حتى فى الطريق ولا يعرفني .

واستمرت زوجته معاتبة فى هدوء : يا شيخ مرزوق .. أنت معروف معروف انك طويل البال .. وكل الكفر يحلف بحلمك ويشهد له .. ومن باب أولى ان تكون حليما مع أقرب الناس اليك .. مع اخيك .. واذا نحن لم نتحمل سعدا عندما يكون غاضبا .. من يتحمله ؟ !! .. يا شيخ نحن أهله وناسه .. وأنا عن نفسى لست غاضبة منه .. انه ابنى واخطأ فى حقى .. لكن لن أفعل مثلك .. بل سأذهب الى بيته وسأعرف سبب غضبه .. وكيف تجرأ عليك بتلك الصورة .. لابد أن أعرف سبب غضبه .. بعد فترة من الوقت .. عندما يروق ويهدأ .. من الجائز يا شيخ مرزوق الأستاذ فرج قد ارتكب خطأ كبيرا جعل الحاج سعد يثور كل هذه الثورة .. لابد أنه سبب قوى جدا هذا السبب الذى يجعله يهاجمك ويهاجم العمدة والأستاذ جمال .. لابد أنه سبب خطير .. كان من الواجب عليك أن تعرفه .. نحن أهله و ....

وقاطعها زوجها بحدة وحزم : لقد قلتها كلمة يا فوزية وانتهيت .. بيت سعد هذا لن ادخله طيلة حياتى .. ولن تدخليه أنت أيضا .. بعدما حدث الليلة وجرح كرامتى واتهمنى بالحسد والحقد و ..

ـــ صلى على النبى يا شيخ مرزوق .. استعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. قم وتوضأ وتوكل على الله واذهب الى المسجد لأن الوقت دخل علينا .. وابليس الملعون شاطر .. لا يريد غير الضحك عليك .. والنبى يا شيخ لا تطاوعه .. الشيطان يود الوقيعة بين الأخوة لا تعطه الفرصة ..

نهض الشيخ مرزوق واقفا متثاقلا وهو يتمتم فى مرارة وغيظ مكتومين : تقولين الشيطان ؟ .. الشيطان نفسه لن يكون أكثر من سعد .. سعد نفسه هو الشيطان .. المفترى .. الظالم .. لأن الله من عليه بالمال من عرق وشقى ابنته المسكينة سعدية .. بدلا من أن يشكر الله على ذلك .. قابل النعمة بالجحود والاساءة .. المجرم قليل الدين مصمم على طلاق بنته بحجة ان زوجها يسىء اليها .. لكن الحقيقة خلاف ذلك .. المفترى يخطط لكى ينفرد بالبنت المسكينة ويلتهم كل أموالها وتعبها وعرقها وثمن اغترابها .. حتى ولو كان ذلك سيترتب عليه ضياع الطفلة المسكينة (عزة) .. المهم مصلحته هو .. حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا سعد ..

فقاطعته زوجته محتجة فى عتاب شديد : حرام ياشيخ .. اخوك .. لا تدعى عليه .. ابنك .. أنت الذى ربيته ..

فنهرها بشدة ، بينما كان يمد يده المرتجفة ليزيد من ضوء المصباح ، ويقويه حتى يتمكن من البحث ، والعثور على جلبابه الذى سيرتديه ليذهب الى المسجد : اسكتى .. اسكتى يا فوزية .. لا تكررى هذا الكلام مرة ثانية .. لو كنت ربيت كلبا افضل لى ربما كان قد حفظ الجميل .. معظم الحيوانات يثمر فيهم المعروف أكثر من البنى آدم ..

ـــ لا تجعل الغضب يسيطر عليك .. العفو من شيم الكرام و ....

لكنه لم يستمع الى نصائحها .. بل اشاح عنها بوجهه .. زاما شفتيه فى استنكار وهو يتجه الى الباب الخارجى .. يعالجه بيده المتوترة .. ذاهبا لكى يؤذن لصلاة الفجر فى المسجد .. مستغفرا الله العظيم ، ومستعيذا بالله من الشيطان الرجيم .

(الفصــــل الخامس)

واخيرا .. وصـــل جمال صـــفى الدين الى دروب الكفر .. ولم تزل انفاسه الســـاخنة تتراطم .. وعرقه المتدفق قد بلل جلبابه الأبيض عنـــد الكتفين والظهـــر وتحت الابطين .. وقـــدماه الثقيلتان ينتزعهما من الأرض انتزاعا ، ويدفع بها صـــوب باب بيته .. ولكانه يشق طريقه بتعثر وسط الأمواج قاصدا شاطىء النجاة .. بينما كان الصـــمت المطبق يلف كل الكفر الغارق فى ثبات عميق ، غدا بعض فراشـــات الليل ، والجندب التى ترفرف وتحوم .. وتثب فى توتر من مكان الى آخر حول هالات الضوء التى تنشرها مصابيح الكهرباء الباهتة المغروســـة حديثا فى طرقات الكفر .. ودس جمال يده فى جيب جلبابه ، لينتزع منه مفتـــاح الباب حتى لا يزعج أمه النائمـــة بالطرق على الباب .. وقبل أن يخرج يده من جيبه راعه سماع صوت أمه خلف الباب تسأل بحدة الخائف : من بالخارج ؟ !!

فتردد جمال لحظة من المفاجأة قبل أن يجيب وكأنه يستغيث بها : أنا يا أمى .. جمال ..

وقبل أن يكمل كلامه كانت امه قد فتحت الباب ، وآثار القلق والتوتر بادية على ملامحها .. ولم تمهله ليدخل بل ســـألته فى لهفة وعتاب : ماذا جرى يابنى ؟!! أين كنت ياجمـــال ؟ .. الكفر كله نام منذ مدة !! كل الناس نامت .. اين كنت انت ؟!! لقد اقلقتنى عليك .. لقد أخبرتنى انـــك خلال ساعة ستصلح سعدية على زوجها وتعود .. ولم تخبرنى أنك ســـتذهب مكانا آخرا ....

وكأنها لا تريد أن تنهى عتابها وأســـئلتها المتلاحقة ، فلم يجد جمـــال طريقة افضل من أن ينزلق داخلا الى الدار ، وأوصـــد الباب خلفه مادا يده مصافحا أمه فى ود واعتذار .. ومهدئا من روعها : اطمئنى يا أمى .. ليس

فى الأمر ما يقلق او يشـــغل .. كل ما فى الأمر أننى خرجت من عند ســـعد ابو رزق .. واحببت ان أسير بمفردى بين الحقول فى ضـــوء القمر .. فى نزهة .. نزهة لا أكثر لبعض الوقت ..

فقاطعته مصححة لكلامه : بعض الوقت ؟!! .. كل هذا الوقت وتقول بعض الوقت ؟!!

وصـــمت لحظة رمقت فيها الساعة المعلقة فى صـــحن الدار ثم أردفت قائلة : الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل .. وتقول بعض الوقت ؟!! .. يابنى أنك تعلم أنى أخاف عليك واقلق .. انك ابنى الوحيد .. بل انك كل من لى فى هذه الدنيا بعد موت ابيك — رحمة الله عليه —

فرد عليها معتذرا : انا آسف يا أمى .. ولكن فقط ارجوك ان تهدئى .. لكى اتمكن من شرح موقفى وما جرى الليلة ..

وكأنها لم تســـتمع الى كلامه الأخير فقالت بنبرة عاتبة : هل تناولت عشاءك بالخارج ؟

فقال مبتسما مداعبا فى رقة وكأنه يصـــالحها : ومنذ متى وأنا اتناول عشائى مع احد غيرك يا قمر !!

— يابنى .. والله حرام عليك ما تفعله بى .. أنا لم اعد احتمل كل هذا القلق والتوتر .. لقد كبرت فى السن .. ولم تعد صحتى تتحمل كل هذا الخوف عليك .. نحن غرباء فى هـــذا الكفر .. ليس لنا أقرباء .. ليس لى غيرك .. كان من الواجب عليك أن تخبرنى .. لقد كنت على وشـــك أن ارتدى ملابسى ، واطرق الأبواب سائلة عليك فى هذا الوقت من الليل وكأنك طفل صغير ابحث عنك ...

فابتسم معاتبا : يا أمى .. يا أمى لماذا كل هذا ؟ .. وماذا فعلت ؟ .. لقد تنزهت فى ضوء القمر فى الغيط .. كى انفس عن نفسى ، وأشـــم الهواء البارد كى الطف من مزاجى الذى عكره سعد .. ثم اننا يا أمى لم نعد غرباء

فى هذا الكفر .. لقد عشنا فيه عشر سنوات تقريبا .. يعنى اننا اصبحنا من أهله ..

ــ ولكن يا بنى ليس لنا فيه اخ او اخت او عم أو خال ...

فقاطعها موضحا : لكن يا امى .. أن اهل الكفر يتصرفون معنا كما لو كنا افرادا من اسرتهم .. وأنت تعلمين ذلك جيدا وتحسين به .. وتعرفين مدى احترامهم لنا وحبهم لنا .. وكيف انهم يشركوننا فى افراحهم واتراحهم .. اننى لم افكر فى يوم من الأيام أننى غريب هنـــا .. أو حتى فكرت فى أن اترك هذا الكفر ..

فانفرجت اسارير الأم عن ابتســـامة ذات معنى .. وقالت وهى تدلف الى الداخل لتحضر طعام العشاء : بالطبع .. بالطبع .. اكراما لعيون حبيبة القلب نسمة .. ربنا يحقق آمالك يا حبيبى ...

واختفت فى المطبخ تعد الطعام ، وتركت جمالا وحيدا للحظات .. وثب فيها بخياله الى اليوم الأول الذى جاء فيه الى هذا الكفر منذ مايقرب من عشر سنوات .. وهمس لنفســـه متنهدا : ما أسرع الأيام !! .. كان ذلك اليوم بالأمس القريب .. وكان قد تجاوز التاســـعة عشر من عمره بشـــهر واحد .. ومنذ اليوم الأول الذى وصـــل فيه الى الكفر .. هنا .. احس بارتياح كبير تجـــاه المكان ، والناس ... ارتياحاً بدد كل التوقعات والتوترات والقلق الذى صاحبه فى سفره من الزقازيق الى هنا .. حيث أنها كانت المرة الأولى التى يترك فيها بيته الدافىء ، وحضن أبيه وأمه ويغادر الى بلاد الفلاحين .. وكانت اهم الأشياء التى جعلته يشعر بالراحة ، والألفة مع الناس والمكان ، هو طبيعة الناس هنا ووداعتهم .. واحساسهم الدائم بالرضـــا والطمأنينة .. وتلك النظـــرة التى تكحل عيونهم تجاهه كلما قابلوه ، وســـلموا عليه بيدهم .. نظرة مفعمة بالاعجاب والاحترام والتقدير لهذا الأســـتاذ الجديد .. ولم يكن اعجاب أهل الكفر به منبعثا من هذا القبول الحسن الذى منحه اياه الله تعالى .. أو من وسامته .. وملامح وجهه المتناسقة الرقيقة بعينيه الخضراوين .. أو شعر رأسه الذهبى الأصفر المختلط بالقليل من الشـــعر الأسود .. أو قامته الفرودة وكأنه رياضى فى عنفوانه يتفجر حيوية وشبابا

ونشــــاطا .. ولكن كان الاعجاب الحقيقى ناتجا مما لمســـوه منه ــ بعد ان تعاملوا معه ــ من حلاوة اللســان والتواضع الشديد والاخلاص فى العمل .. والمعاملة الأبوية الطيبـــة التى يعامل بها أولادهم .. وهى التى جعلته ينفذ الى قلوب التلاميذ بسرعة الصاروخ .. وذلك من خـــلال جذبهم اليه بسرد القصص الشيقة المثيرة لهم .. تشدهم اليه وتشبع خيالهم النهم .. ومن خلال ذلك كان يتسلل الى المواد الدراســـية المختلفة شــــارحا وموضحا .. مطبقا فى ذلك ما تعلمه واستوعبه فى دراسة تربوية لمدة خمس سنوات بمعهد المعلمين من أصول الدرس المترابط .. فكانت المعلومات تصـــل سريعة ودون ثقل الى قلوبهم الصغيرة قبل اذهانهم فتســـتقر فيها وتبقى وخاصـــة اذا اسعفته قريحته ونظم لهم أغنية مناسبة للموضـــوع وسرعان ما يؤديها لهم ملحنة منغمة بصوته الدافىء الرخيم مبتسما وحاثا الأطفال وبالذات الصغار منهم على التصـــفيق والايقاع الخفيف على الأدراج فى انســـجام تام وكامل مع الحان الأغنية الجديدة بين ابتسامات السعادة وضـــحكات الرضـــا من الأطفال .. حتى انه فى خلال اسبوع من وصوله الى المدرسة .. كان أهل الكفر قد أجمعت قلوبهم على حب الأستاذ الجديد .. حتى أن معظمهم أحبه دون أن يعرف اســـمه .. فقط لكثرة حديث أولادهم عنه ليل نهار ، وحبهم الشديد له وانعكس ذلك على اهتمامهم الملحوظ بالدراسة .. فبعد أن كانت هى الشىء الثقيل على قلوبهم .. ومصدر قلق لدى الأهل .. أمسى التلاميذ يقبلون على عمل الواجب بحب وشغف .. ودون الحاح أو زجر كالمعتاد ..

واذا كان جمال قد تصرف مع الأطفـــال على هذا النحو غير المألوف من المعلمين لديهم .. وادهش الجميع .. فليس السبب فى ذلك هو ما تعلمه من طرق تدريس وعلم نفس تربوى فقط .. ولكن ذلك كان صدى حقيقيا ورد فعل طبيعى ومخلص لما لاقاه من كرم الضيافة وترحاب الأهـــل وكان فى مقدمتهم العمدة الحاج أيوب مفتاح .

فبمجرد وصوله الى المدرســـة .. فى اليوم الأول .. وســـلم خطاب التعيين الى ناظر المدرسة .. بعدها بحوالى ساعة فقط .. ولا يدرى حتى

الآن كيف علم حضرة العمدة بوصوله الى المدرسة .. فلقد حضر ومعه رجلان علم بعدها أن احدهما هو شيخ الخفراء .. والآخر هو خفير الدوار ، ورحبوا به .. وكانت المرة الأولى التى يرى فيهـــا عمـــدة حقيقيا .. ولم يكن مثل الصورة التقليدية للعمدة والتى يراها فى أفلام (السينما) من راس ضـــخم وعمامة كبيرة ، وكرش كبير يخبىء فيهـــا كل ما يقتنص من بط وأوز ودجاج أهل القرية وعمر يناهز الخمسين أو الســـتين .. بل كان ما رآه عكس ذلك تماما .. فلقد كان العمدة شابا فى الأربعين تقريبا .. طويل القامة فى رشاقة وحسن الهندام فى جلبابه البلدى الواسع .. يميل وجه الى الســـمرة قليلا هادىء الطباع ورزين .. صادق الابتسامة .. ملامحه تنم عن ذكاء وفطنه ، وليس عن جهل وبلاهة وهبل كما هو شكل التقليدى فى أفلام (السينما) .. كل ذلك — فى لحظة — جعل جمالا يشعر باحترام وتقدير شـــديدين له .. ومن الوهلة الأولى أحس بغبطة وبحب جارف تجاه تلك الشخصية .. وكأن احساسه سبقه بأعوام ، وقرأ المستقبل ، وعرف أن هذا الرجل سيكون فى يوم من الأيام أبا لزوجته وجدا لأولاده .. وتسربت الى نفس جمال نشوة وغبطة عظيمة عندما تذكر ذلك .. وقفزت أمام عينيه صـــورة نســـمة ابنة العمدة فخفق قلبه ، وفرك كفا بكف من فرط النشـــوة والســـعادة ، وهتف متضرعا يارب قرب الأيام ..

ومن يومها وهو يحس بأن العمدة فى منزلة أبيه .. رغم أن فارق السن لم يكن كبيرا الى هذا الحد .. ربما لما لاحظـــه فى عينيه يومها من أحاسيس الود والاخـــلاص والحنان تجاهه وهو يرحب به بأخوة حقيقية وصـــادقة قائلًا : أنت يا أستاذ شرفت الكفر .. ومن الآن — نرجو أن تعتبر نفســـك بين أهلك واسرتك .. وأنت من الآن واحد منا .

ثم نظر الى الخفير مشيرا بيده الى حقيبة جمال الرابضة بجواره وقال : خذ يا فرح حقيبة الأستاذ الى الدوار ..

ثم نظر الى السيد ناظر المدرسة مستأذنا : الأســـتاذ يا حضرة الناظر وصل لتوه من السفر .. ولاشك أنه متعب الآن .. المشـــوار نفســـه يهد

الحيل .. واليوم الدراسى أوشك على الانتهاء .. وأعتقد بأن حضرتك ليس لديك مانع فى السماح لنا باصطحاب الأستاذ معنا الى الدوار لكى يرتاح ويغير ملابسه ؟ .. ويأخذ قسطا من الراحة الى أن يحين موعد الغذاء ..

واستدرك قائلا : ونحن بالطبع فى انتظارك .. لا تتأخر علينا لأننا لن نتناول الطعام الا بحضورك ..

وتململ الناظر فوق كرسيه مبتهجا سعيدا بالعرض ورد قائلا والابتسامة تتراقص فوق شفتيه : نحن كلنا هنا تحت أمرك يا حضرة العمدة .. انت دائما صاحب فضل على الجميع .. رغم أننى كنت أود أن اكسب الأستاذ .. ونظر بسرعة الى خطاب تعيينى الذى لم يزل مفرودا امامه ــ الأستاذ جمال صفى الدين اليوم ويتغذى معنا .. ولكنك مادمت قد قلت .. خلاص .. انت سباق الى الخير والفضل دائما .. يا حضرة العمدة ..

فابتسم العمدة شاكرا لطيب كلامه وعقب قائلا : يا حضرة الناظر .. الأيام المقبلة كثيرة .. وكلك بركة ..

والتفت الناظر الى يومها .. واشار فى ود قائلا : تفضل يا استاذ جمال مع حضرة العمدة .. الحاج أيوب عمدة الكفر وصاحب افضال علينا كلنا .. وانا ــ باذن الله ــ كلها ساعة زمن ، وسالحق بكم فى الدوار ..

ولم يجد جمال لحظتها من كلمات يقولها .. فى خجل .. غير شكرا .. الف شكر يا حضرة العمدة .. شكرا يا حضرة الناظر .. هذا كرم كبير منكم .. انا شاكر جدا .

ونهض جمال مع العمدة وشيخ الخفراء بعد أن سبقهما الخفير الى الدوار .. وفى الطريق الى الدوار بين دروب الكفر الضيقة ، وبينما كانت بعض النسوة تختلسن النظرات من خلف الأبواب المواربة .. سائلات بهمس مسموع عن هذا الذى يسير مع حضرة العمدة ، وشيخ الخفراء ؟ .. بينما كان الأطفال يكفون عن اللعب كلما اقتربنا منهم ، ويقفون بجوار الجدران احتراما .. شاخصين الينا وكل عيونهم أسئلة .. من هذا الغريب ؟

لحظتها .. شرد تفكير جمال سريعا — وهو يسـير بجوار العمدة — فيما يكون هذا الدوار ؟ .. تصوره مكانا واسـعا باردا .. يجلس فيه كل الناس مع بعضهم فى المناسبات .. وخاصـة عندما يموت أحد من سـكان الكفر .. وتساءل فى شـك كيف سيرتاح فى مثـل هذا المكان ؟ .. وكيف سـينام ، ويأكل فى وجود كل هـؤلاء الناس ؟! .. وهجمت عليه فكرة .. لماذا لا يصارح العمدة برغبته فى استئجار اى حجرة له بالكفر .. يسكن فيها تلك الفترة المحدودة التى سيبقى فيها معهم بالكفر .. حيث أن المسـئولين فى مديرية التربية والتعليم بالزقازيق قد وعدوه — بعد الحاح وواسـطة — بالنقل الى أقرب مكان للزقازيق بجـوار ابيه وأمه .. حيث أنه وحيدهما ، وسـيقوم بعمل بحث اجتماعى يثبت ذلك ويرفق به طلبا للسـيد / مدير التربية والتعليم بالشرقيـة .. ليساعـده فى ذلك .. هكـذا قالوا له فى المديرية ..

وقبل ان يتكلم فى ذلك باغته العمدة بسؤال : الأسـتاذ جمال .. من اين بالضـبط ؟

— أنا من الزقازيق ..

فابتسم العمدة مرحبا : أهلا وسـهلا .. أنت شرقاوى مثلنا .. أنت لست غريبا عنا .. ولكن بالطبع لن تستطيع السفر يوميا .. ان المواصلات من هنا الى هناك وبالعكس صعبة جدا .. وبالتالى فأنت مضـطر للسكن والاقامة معنا فى الكفر اقامة دائمة .

ووجدها جمال فرصـة مواتية ليكلم العمدة : لذلك أرجو من حضرتك يا حضرة العمدة أن تساعدنى فى استئجار حجرة هنا بالكفر لأقيم فيها ..

فابتسم العمدة ابتسامة أعرض وهو يربت على كتف الأسـتاذ جمال فى ود وأخوة صادقة : يا اسـتاذ .. انت هنا بين أهلك وأخوانك — كما قلت لك — وان لم تسعك الأرض وسعتك اعيننا .. واعتبر كل بيوت الكفر بيتا لك .. وأهـل الكفر كلهم تحت أمرك .. وأنا أولهم .. لا تفكر فى أى شىء .. المكان موجود وخير ربنا كثير والحمد لله .. ان شاء الله سـتكون مرتاحا معنا ..

والجم ذلك الرد جمالا بالخجل والحياء الشـــديد جعله يتلعثم وهو يرد على العمدة قائلا : أنا شاكر افضالك يا حضرة العمدة .. ان كلام حضرتك هذا جعلنى أحس فعـــلا .. اننى لم أترك بيتى فى الزقازيق بعد .. وأننى أعيش بالفعل بين أهلى وأخوانى .

وقبل ن يكمل كلامه كان الموكب قد وصـــل الى بوابة خشبية كبيرة واسعة .. وكان يقف أمامها نفس الخفير الذى كان معهم فى المدرسة وحمل حقيبتى .. وقد شرع يرفع عقيرته مرحبا بالقادمين .. وفتح البوابة العتيقة على مصراعيها .. ومازلت عبارات الترحيب تتدفق من بين شفتيه وهو ينحنى انحناءة خفيفة .. تقديرا واحتراما .

ودخل العمدة والأستاذ جمال وشيخ الخفراء .. ولاحظ جمال ســـاحة واسعة داخل الدوار غير مســـقوفة .. وعلى الجانب الأيمن من المدخل لاحظ وجود (فراندة) خشبية طويلة ولكنها مسقوفة بسعف النخيل .. ومفتوح فيها أكثر من باب لأكثر من حجرة .. وقد امتدت امامها أكثر من اريكة كبيرة وكذلك عدد كبير من الكراسى .. واتجه الجمع ناحية تلك الكراسى .. وأشار الخفير الى أحد الأبواب قائلا : هذه حجرتك يا أستاذ .. لقد وضعت حقيبة حضرتك بداخلها .. ولا تحمل اى هم لأى شىء .. ولو تحتاج لدورة المياه .. فهى هناك .. فى آخر الدوار ــ وأشار بيده الى جهة اليسار .. وهى فيها الماء ، وكل ما يلزم .. اى خدمة يا أســـتاذ .. لو تحتـــاج أى شىء فى النهار أو فى الليل فقط تنادى على .. أنا خدامك (فرح) .

وبعد ان شكره جمال فى امتنان راح يتطلع حوله يعيد اكتشـــاف المكان من جديد .. فلفت انتباهه أن هنـــاك عددا من الفوانيس الكبيرة معلقة فى ســـقف (الفراندة) .. فادرك أن الكهرباء لم تصـــل كفر مفتاح بعد وأنهم مازالو يضيئون ليل كفرهم بالكيروسين .

ومال العمدة ناحية الأستاذ قائلا فى ود : تفضل يا أســـتاذ جمال .. خذ راحتك .. أدخل حجرتك بدل ملابس السفر ..

واستدرك مستفسرا : معك جلباب ؟ .. هل نحضر لك جلبابا ؟

فرد جمال شـــاكرا : لا .. معى (بيجامة) .. شـــكراً لك يا حضرة العمـــدة ..

ـــ تفضل اذن لكى تغسل وتزيل عنك تراب السفر .. ان الوصـــول الى الكفر ليس بالشىء الهين والسهل ..

فتمهل جمال فى استحياء وتردد للحظات .. ولكن العمدة كرر الرجاء : تفضلْ يا استـــاذ .. ويمكنك أن ترتاح فى حجرتك قليلا .. حتى يحين موعد الغذاء .. لن يكون قبل ساعة زمان على الأقل ..

فاعتذر جمال فى حياء قائلا : أنا .. مرتاح يا حضرة العمدة هكذا .. ان راحتى فى الجلوس والبقاء معكم .

فعقب العمدة مبتسما : يا اخى لا تحرج منا .. أنت بين أهلك واخوانك .. على أية حال يمكنك ان تنهض وتغير ملابســـك وتتوضأ ، لكى تذهب معنا ـــ ان شاء الله ـــ الى المسجد لنصلى صلاة الظهر جماعة .. المســـجد قريب من هنا جدا ..

وأمام هذا الكلام .. لم يستطع جمال الا أن ينهض ويدخل الى حجرته التى اشار اليها الخفير .. واذ بها مرتبة ومنظمة ونظيفة .. وكان بها سرير ودولاب فى وســـطه مرآة .. واكتشـــف بالحجرة نافذة ففتحها ونظر منهـــا فوجدها تطل على الطـــريق مباشرة .. وفرح عندما وجد بها أيضـــا مذياعا صغيرا يعمل بالبطارية .. وفتحه فوجده يعمل فأغلقه ووضعه فى مكانه وراح يتأمل بقية الغرفة .. فلاحظ بعض اللوحات القرآنية الجميلة قد علقت على الجـــدران وزينتها .. وأحس جمـــال بالراحة الغامرة بدأت تسرى فى حنايا جسده الذى هده التعب أثناء الوصول الى هذا الكفر اليوم .. وشـــعر بأن سفينة أفكاره التى تصارع أمواج التوقعات والحيرة والتوترات منذ تســـلم خطاب التعيين ، وعلم أنه سيعمل فى كفر مفتاح التابع لمركز فاقوس .. قد وجدت لها أخيرا مرفأ آمنا هادئا لكى ترسو فيه وتستريح بعد طول عناء .

وفى هذه الحجرة قضى جمال سنتين من عمره تقريبا فى بداية حياته فى هذا الكفر .. ولم يكن يســـافر الى اهلـــه فى الزقازيق الا فى أيام الجمعـــة والعطلات الرسمية فقط .. ولم ينقطع عنه فى يوم من الأيام الطعام والشراب

من بيت العمــدة .. يأت بة اليه الخفــير مرح المســئول عن خدمة الدوار وحراسته .. وكم حاول جمال اكثر من مرة أن يترك الدوار ويستأجر مكانا آخر ــ مخافة أن يكون قد أثقل على العمدة ــ ولكن كانت كل محاولاته تبوء بالفشل امام زعل العمــدة واصراره على البقاء فى الدوار .. مقنعا له فى كل مرة بأنه بمثابة ابنه .. انه لم يرزق أبناء ذكــورا .. وهو يعتبره فى مكانة ابنه .. رغم أن الله أعطــاه ثلاث بنات .. زوج اثنتين منهن .. احداهما تزوجت طبيبا وتعيش فى القاهرة .. والثانيــة تزوجت مهندســا وتعيش فى الاسكندرية .. أما الثالثــة فهى لم تزل تلميذة بالصــف الأول الاعدادى بمدرسة فاقوس للبنات .. لأن الكفر لم يكن به مدرسة اعدادية .. ونظرا لصعوبة المواصلات فى ذلك الوقت فلقد فضلوا أن تقيم مع خالتها .. أيام الدراسة وخاصة أن بيت خالتها يقع بجوار المدرسة الاعدادية ..

ولم يكن جمــال قد رآها بعد .. ولم يكن يعرف حتى أن اســمها هو نسمة .. وهنا .. ضغط جمال على شفته السفلى بسعادة ونشوة وحرارة وكأنه يضغط على زر ســحرى ليقربه من الأيام الباقيــة على نتيجة امتحان الليسانس .. ليسانس كلية حقــوق القاهرة التى ينتســب اليها .. حتى يمكنه التقدم الى العمدة بعدها طالبا نســمة ابنته للزواج .. وهتف فى أمل وشوق حار : ان شاء الله كلها أيام .. ويتحقق الأمل ..

ورفع يديه بصورة عفوية الى السماء مبتهلا : يارب .. يارب .. قرب الأيام وحقق الآمال .. يارب ...

وانتبه على صياح أمه .. تناديه من المطبخ الذى كانت تعد فيه العشاء قائلة : هل وضعت الطبلية يا جمــال .. صــحن البيض المقلى يكاد يحرق يدى من حرارته يابنى وانتفض جمال من جلسته وشروده فى الماضى ؟ وهب واقفا ويقــول لأمه ــ بينما كان يسرع الى الطبلية المســتندة الى الجدار ويلتقطها بخفة ــ : نعم يا أمى .. لقد وضعتها على الحصير .. جاهزة .. هات الطعام .. هل آتى لأحمله معك ؟

فردت وهى تقترب منه وتحمل الصــينية وعليهــا بعض الأطبــاق : لا يا حبيبى .. لا تتعب نفســك .. لقد أحضرت كل شىء مرة واحدة .. تفضــل يا بنى ...

(الفصـــــل السادس)

ــ عسى ان يكون الله قد وفقكم .. وتم صلح سعدية ابنة الحاج سعد على زوجها ورجعت بيتها .. من أجل خاطر البنت الصغيرة ..

قالت ام جمال ذلك وهى تضع طعام العشاء أمام ابنها على الطبلية .. وكانها تفتح بذلك الباب للحديث عما تم الليلة فى بيت الحاج سعد وجلسـة الصلح .. وسارع جمال ساخطا ــ وهو يدفع بكفه فى الفضاء امام وجهه .. ولكانه يزيح من امام عينيه مشـهدا مرا لا يحب ان يراه مرة ثانيـة أو حتى يتذكره ــ وزمجر بغضب : ارجوك يا أمى .. لا تنبشى فى هذه السـيرة أبدا .. لقد أوشكت على طردها من ذاكرتى ..

توقفت السـيدة أم جمـال فجأة عن الحركة .. وحملقت فى ولدها بانزعاج ظاهر على اثر سـماع تلك الكلمات الحادة .. ثم قالت : خـيرا يا بنى ؟!! هل حدث مكروه لا قدر الله ؟!!

اجابها فى اسى واستنكار : لقد حدث آخر شىء يمكن أن يتصوره انسان فى الدنيا ..

وصمت لحظة .. قبل أن يضـع ــ بامتعاض ــ لقمة فى فمه .. مما اثار فضول الأم وانزعاجها اكثر .. فصاحت بالحاح : خـيرا يا جمال .. الا تخبرنى عما حدث ؟!!

فرد بصعوبة وهو يبتلع طعامه : الحاج سعد يا أمى .. ضـيع هيبة وكرامة العمدة .. وشتم اخاه الشيخ مرزوق .. وطرده من بيته .. وليت هذا وفقط .. بل حلف بالطلاق أن سعدية لن تعود الى بيت زوجهـا مادام هو على قيد الحياة .. وكان يتكلم معنا وكانه يسبنا ، ويسـخر منا .. من كل الحاضرين حتى انا .. اكيد .. أكيد لم يكن فى كامل وعيه ..

ــ وبعد ذلك .. كيف تصرف العمدة ؟

ــ التصرف المعقول طبعا .. أنت تعرفين مدى حكمته وتفكيره الراجح آثر السلام .. وفضل ان يحترم نفسه مع مثل هذا الرجل الذى تجاوز كل حدود الأدب والأخلاق والاصول .. لقد انسحب من الجلسة ، وهو آسف ويتميز غيظا ..

ــ بالطبع يا بنى .. معه حق يغضب .. انه العمدة وكبير الكفر .. ورجل فاضل ومحترم ويمد يد الخير والمساعدة لكل الناس ولكل محتاج .. أولهم سعد نفسه .. هل نسى سعد ذلك ؟!!

ــ نعم يا أمى لقد نسى سعد كل شىء .. الفلوس التى حصلت عليها ابنته من عملها فى السعودية ومكنته منها ، جعلته مغرورا .. لقد أحسست انه .. كما لو كان يود الانتقام من كل الحاضرين .. رغم ان أحدا منهم لم يسىء اليه .. كأن كل عقد النقص بداخله قد تفجرت مرة واحدة .. ويريد ان يهجم وينقض على الجميع دونما سبب واضح .. لقد أوشك أن يقول أنا ربكم الأعلى مثل فرعون ...

فقاطعته أمه مستغفرة فى فزع : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. استغفر الله العظيم .. الهذا الحد وصل به الأمر ؟!!

ــ نعم يا أمى لقد كان فى قمة الصلافة الليلة .. والله يا أمى مهما تخيلت ان يصدر من سعد من قبل .. لم أتخيل أن يتصرف كما تصرف الليلة .. قمة التبجح .. كنا نظنه موسى فاذ به فرعون ملعون .. فعلا يا أمى لقد صدمت فيه الليلة وهذا هو السبب الذى جعلنى أضيق بنفسى .. لدرجة اننى لم أستطع المجىء مباشرة الى المنزل .. وخرجت هائما على وجهى بين الحقول .. بعيدا عن الناس .. بعيدا عن الدنيا . وقاطعته أمه لائمة له : ولماذا تغضب نفسك أنت يا جمال ؟!! .. كل واحد يتحمل أخطاءه .. هو الذى أخطأ فى حق الناس .. وعليه هو ان يتحمل نتائج أخطائه ..

وتوقفت برهة تقطع فيها لقمة من الرغيف الذى أمامها ثم استطردت : اتقول انه طرد أخاه الشيخ مرزوق ؟!! كيف ؟ انه رجل طيب وغلبان .. لماذا طرده ؟

ــ لا شيء .. لقد قال كلمة الحق لأخيه الأصغر .. لكنها لم ترق له فافرغ عليه كل سخطه وغضبه ..

تنهدت الأم متحسرة : يبدو أن الناس يا جمال قد غيرتهم الفلوس .. وسلبت عقولهم وأخلاقهم ..

ــ نعم يا أمي ولكن ألى هذا الحد ؟ .. لدرجة أن الواحد يتنكر لأهله .. لأخيه .. لاقرب الناس اليه ..

وقالت الأم وهي تغمس لقمة خبز في صحن البيض المقلى : ولكن .. لماذا يصمم الحاج سعد على طلاق ابنته ؟!! هل أخطأ فرج أفندى .. زوجها خطأ كبيرا يستوجب الطلاق ؟!

ــ لا اعتقد يا أمي .. بل العكس .. كان زوجها يهتف بالحاج وسط الحضور بسؤال واحد .. يا جماعة أرجوا أن تخبروني .. ما هو الغلط الذى أرتكبته لكي يحرمني عمي الحاج سعد من زوجتي وطفلتي ؟!! .. ولكن سعد كان يقطع عليه السؤال متحديا .. اخطأت أم لم تخطىء .. ستطلقها .. ستطلقها .. ان الخطأ ليس خطاءك أنت .. لكنه خطأنا نحن .. خطأنا نحن لأننا زوجناك .. زوجناك دون أن نعرف من أنت ..

فصاحت الأم مستغربة : يا الله .. الآن .. الآن يأتي سعد ويقول ذلك .. أليس ذلك هو الأستاذ فرج !! .. الذى كان يهتف سعد باسمه في كل مكان .. يندم سعد الآن على زواجه من بنته .. ومتى ؟ بعد أن أنجبت منه طفلة !!

ــ والله يا أمي زمن غريب .. سعد الأقرع يقف في وجه العمدة الحاج أيوب ..

سارعت أمه لائمة : هذا حرام يا جمال .. لا ينبغي أن نعاير أحدا من الناس بعاهاتهم ..

ــ أستغفر الله العظيم .. والله يا أمي ما رايته الليلة من سعد هذا جعلني أقرف منه وأكرهه بقية عمري ..

ـ يا بنى .. منـــه الى الله .. هـــو الذى يقتص منه ويأخـــذ حق الناس منه .

ـ المال .. المال يا أمى هو اســـاس وســبب كل المصـــائب فى هذه الأيـــام ..

ـ لعنة الله على تلك الفلـــوس .. التى تفرق بين الزوج وزوجته ، وبين الأم واولادها .. وتفرق بين الأحبـــاب .. وتشـــتت شـــمل الاسرة برضائهم .. من اجل كلمة خادعة هى بناء المستقبل .. كل واحد يهرب من بيته وأولاده ويفارق زوجته بحجة بناء المســـتقبل لهم .. وهو فى الحقيقة لا يدرى أنه يدمر أولاده المحتاجين لما هو أهم من الفلـــوس .. فالرعاية .. والعطف والحب والحنان من قبل الآباء والأمهات بالنسبة للأبناء هو أهم من كنوز الأرض ولا يعوضه اى مال ..

ـ نعم .. لكن يا أمى .. حتى لا نظلم الناس .. يجب أن نعتـــرف بموجة الغلاء التى بدأت تمد أزرعتها فى كل مكان من طعام وملابس وخاصة من لديهم أسرة كبيرة وأولاد .

ـ يا بنى أن الفلوس نفسها هى التى بعثت هذا الغـــلاء وخلقته .. أقصد أن كثرة الفلوس فى أيدى الناس هى التى ساعدت على هذا الغلاء .. لو تتذكر يا جمال .. الحالة والأسعار قبل أن يصاب الناس بوباء السفر الى الخارج .. وليس من فترة طويلة أو بعيدة .. من قبل عام ثلاثة وســـبعين .. من قبل حرب أكتوبر .. كانت الأشـــياء رغم ظروف الحرب التى كانت تعيش فيها مصر الا أن الأسعار لم ترتفع بهذه الصـــورة .. كان كل شىء رخيصا وفى متناول الجميع .. وكان الخـــير كثيرا .. كان الزواج لا يتكلف أكثر من مائتين جنيه .. كان كل الشـــباب فى الجيش أيامهـــا .. وكانت الفلوس شحيحة وعزيزة على الناس والواحد منهم يفكر أكثر من مرة ويتردد قبل أن يشترى الحاجة .. وليس كما هو الحال الآن ..

وصـــمتت لحظة .. ثم قالت وكانها تندم وتتحسر : أيامها كنت ألح عليك لتتزوج وتريح بالى .. لكنك لم تسمع .. ولم تســـتجب لكلامى ..

تامل اليوم .. تكاليف الزواج وصـلت الى اى مـدى . وكل يوم فى زيادة سريعة وجنونية .. ونسمع عن ارقام المهور التى تدفع اليوم فلا نكاد نصدق .. لماذا وصل الحال الى هذا ؟ .. لأنه بمجرد ان وضـعت الحرب أوزارها وتم تسريح الشباب من الجيش واحسس الناس بالأمان .. وشرع الشباب يسافرون الى البلاد العربية .. ويعودون بعدها بعام واحد أو عامين محملين بثمن اغترابهم من آلاف الجنيهات .. وبسـهولة يدفعهم مهرا .. ثم يرجع مرة اخرى سنة أو اكثر يجهز فيها بيته ويبنى بيتا أو يستأجر شقة ويستكمل الأجهزة الحديثة ... وهكذا .. انظر الى كل تلاميذك الذين حصـلوا على دبلوم التجارة .. أو الزراعة .. او حتى الذين فشلوا ولم يحصلوا على أى شهادات .. مجرد مشوار واحد الى أى بلد عربى .. يرجع بعد فترة ومعه فلوس لا تحلم أنت — مجرد حلم — بالحصول على مثلها فى يوم من الأيام .. ولماذا نذهب بعيدا ها هو الحاج سعد قبل أن يعطه الله من فضله .. وكنت انت تقتطع من راتبك لكى تساعده فى تربية بناته .. مجرد مشوار لسـعدية ابنته الى السعودية .. قلبت كل الموازين السابقة واصبح يتعامل معك ومع العمدة نفسه معاملة الند للند .. وأنت تاتيك الفرصـة .. تات لك الأعارة الى ليبيا .. فترفضها وتعتذر متعللا بالجامعة .. من أجل أنهاء دراستك فى كلية الحقوق .. وبالطبع من أجل عينى نسمة هانم و ....

• وارادت ان تكمل حديثهـا فى خليط من الندم والعتاب واللوم .. ولكن جمال قطع عليها كل ذلك قائلا : يا أمى نحن مؤمنين ونعلم أن هذه كلها أرزاق قد قسمها الله على عباده .. ومادام قد قسمها فسـوف تأتيه .. بصرف النظر عن الأسباب سـواء سافر الى الخارج ، أو بقى فى مصر .. فمسألة الأرزاق هذه لا ينبغى أن يتكلم فيها الانسان أو يعترض عليها .. والا سيفتح على نفسه الأمارة بالسوء الطريق للحقد والحسـد .. والدخول فى دوامة ليس لها نهاية أو قـرار .. ولكن العاقـل من يسـلم أمره لله .. ويرضى بالقسـمة والنصيب ...

— ولكن الله طالبنا بالسـعى وراء الرزق أينما وجـد .. ولا نجلس مكاننا ونقول يارب أرزقنى ..

ـــ وهل انا جلست فى مكانى وقلت يارب ارزقنى .. يا أمى .. أنت أكثر انســـانة تعلم مدى التعب الذى اتعبه .. وكيف أننى اقتـــل نفسى فى الاستذكار وفى العمل فى المدرسة .. وانا لم اقصر أبدا يا أمى .. كلها أيام ان شاء الله وتدركين قيمة هذا التعب عندما يتم تعيينى وكيلا للنيابة العامة .. وتكونين انت أم البيك وكيل النائب العام .. والعسكرى الواقف على الباب .. باب بيتى يرفع يده بالتحية لك فى الخروج والدخول .. ويومها ستدركين يا أمى .. اننى كنت على صواب عندما رفضـــت الاعارة الى ليبيا .. وأننى كنت على صواب .لو رفضت كل اموال العالم من أجل ذلك المنصـــب المحترم الذى يشرف صاحبه وأهل صاحبه ...

فضـــحكت الأم قائلة : أو تريد ان تقنعنى بانك رفضت الاعارة لكى تشرفنى !! ـ انا الوحيـــدة فى هذه الدنيا التى تدرك أن كل تصرفاتك تدور فى مجال الأميرة نسمة المغناطيسى .. واحذر يا جمال أن تظن فى امك أنها لا تحس بكل نبضة فيك وتدرك كل أحلامك .. ولكن بالطبع كل شىء يســـعدك فهو يسعدنى .. وربنا يحقق كل احلامك يا حبيبى .. وأشـــوفك وكيل نيابة عظيم ونسمة قد اصبحت زوجتك معك تحت سقف واحد ومعكم البنين والبنات وانا التى اربيهم لكما .. مثلما ربيتك .. قادر يارب تحقق الاحلام ...

فردد جمال وكانه يتوسل الى الله : يا ليت يا أمى .. يا ليت ..

وسادت لحظة صمت ... ثم سألها فى لهفة وشـــوق وتحرج : هل رايتها اليوم يا أمى ؟

فابتسمت الأم فى مكر وكانها لا تعرف حقا عمن يسأل : من هى التى رأيتها اليوم ؟ فابتسم فى خجل وهو يدرك مداعبة امه فهى دائما تقول له أننى أحب ان أسمع منك اسم نســـمة لأنك تنطقه برقة وبحنان غريب وقال : لا .. لا يا أمى .. أرجوك .. هل رايتها اليوم ؟ ـــ وماذا قالت لك ؟

ـــ كن مطمئنا يا حبيبى .. ان نســـمة فتاة ذكية .. وهى تدرك كل شىء .. وتحس بكل شىء .. وفى كل مرة تســـألنى عن أخبارك .. واليوم

سألتنى عن موعد نتيجة ، امتحانك .. فقلت لها خلال اسبوع .. ان شاء الله .. فدعت لك بالنجاح وقالت : ان الأســتاذ جمال انسان ذكى ومتفوق .. وأبى يقــول ان تفوقه فى الليسانس هذا العام مضـــمون باذن الله .. وسألتنى عن الذى سافعله عندما تظهر النتيجة وبتفوق .. والنبى يا جمال كنت على وشك ان يفلت لســانى — من كثرة تفكيرى وحلمى بهذا اليوم — وأقول لها ساحضر على الفور انا وجمال ونخطبك .. ولكن على آخر لحظة توقفت وأمسكت لســانى عندما تذكرت اوامرك الدائمة لى بعدم التحدث فى هذا الموضوع الآن الا بعد ظهور النتيجة .. فقلت لها .. بالطبع يا حبيبتى سأسقى الجميــع الشربات .. ولكن فرحتنا لن تكتمل الا بعد ظهور نتيجتك والاطمئنان عليك أنت .. وسألتها عن نتيجتها فقالت انها بعد حوالى شــهر تقريبا .. لأن نتيجــة كلية الزراعة تتاخر عن بقيــة الكليات الأخرى بعض الوقت ..

كان جمال ينصت بشغف شــديد الى أمه .. بينما هالات الســعادة والفرحة تحتضن أسارير وجهه .. ثم هتف قائلا : لقد أحسنت يا أمى .. من الأفضل ان ننتظر النتيجة .. ما هى الا أيام .. ان نسمة انسانة كاملة .. كل شىء فيها كامل .. ادبها .. أصــلها .. جمالها .. انها جــديرة بانسان ناجح وكامل مثلها .. فاذا وفقنى الله فى الليسانس وحصــلت على تقدير عال .. بحيث يفتح لى الطــريق للعمل فى النيابة والقضــاء .. كنت جديرا بها ، لأنى سأضمن لها حياة سعيدة ومســتقبلا هانئا هى وأولادنا باذن الله .. ولكن اذا لم أحصل — لا قدر الله على تقدير عال .. فسيكون هذا حظى ونصيبى .. ويجب أن أترك لها الفرصة لتحيا وتعيش مع انسان آخر ناجح يليق بها يكفل لها حياة ســعيدة مشرقة اشراقة وجهها الفاتن .. وبعد ذلك اعيش أنا حياة (روتينية) تقليدية كما يحياها معظم البشر خالية من الطموح والأمل .. ميلاد ثم عمل ثم زواج ثم انجاب ثم موت ...

وهنا قاطعته أمه فى هلع : بعد الشر عنك يا حبيبى .. ما هذا الهراء الذى تقوله .. بعون الله ستنجح وتكون من الأوائل .. وســيحقق الله كل

آمالك واحلامك .. ان الله لا يضيع أجر من احسن عملا .. وانت يا حبيبى بذلت أكثر من طاقتك فى المذاكرة .. ولم تقصر .. وكلهـــا ايام باذنه تعالى وسيفرحك الله بالشهادة والتفوق والعروسة القمر .. نسمة » .

فردد فى تضرع : يارب .. يارب يا أمى .

ولكن هذا الكلام الذى سمعه من أمه عن نسمة قد أشبعه .. فحمد الله وهب واقفا ، واتجه الى الحمام ليغتسل ، وهو يقول : هل الشــــاى جاهز يا أمى ؟؟

ـــ نعم يا حبيبى .. جاهز .. سارفع الطعام وأحضر الشاى حالا ..

(الفصـــــل السابـــع)

فى يوم الجمعـــة التالى كان اهل الكفر جميعهم قد بدءوا يتوافدون الى المسجد الوحيد بالكفر .. وانتظارا للآذان والخطبة كان صوت مقرىء القرآن الكريم يملأ ساحة المسجد من خلال المزياع الذى وضع أمامه ســـماعة مكبر الصوت داخل المســجد وعلى مسافات بعيدة عبر الحقـــول الممتدة .. تنبه الناس الغافلين فى العزب القريبة والبعيدة الى أن وقت صلاة الجمعة قد حان واقترب .. هكذا كانت العادة .. وخاصة بعد أن تنافس بعض شباب الكفر الطيبين الذين يعملون فى الدول العربية فى ارسال بعض الهدايا للمســـجد .. فالأستاذ احمد ابو حسين المدرس المعار لدولة الكويت قد أرســـل فى العام الماضى من هناك ست مراوح سقف كبيرة وها هى موزعة ومعلقة بالسقف .. وتعمل فى همة ونشاط ملطفـــة من حرارة الجو فى شـــهر يوليو .. وبجوار المحراب ، وفى مواجهة كل المصلين علقت ساعة حائط كبيرة قيمة .. يتراقص بندولها الذهبى فى سعادة ورشاقة وحيوية أمام الجميع .. وكأنه سعيد بهذا الجمع الكبير من المصلين فى يوم الجمعة .. وسعيد بأداء منفعة لهم بعد أن كان حبيسا وسجين احد متاجر أبو ظبى .. فقد أحضره معه هذا العام ومنذ اسبوعين فقط ابن الكفر الأستاذ محمود ابو خلف الذى يعمل محاسبا هناك وهو من تلاميذ الأستاذ جمال الذين حصـــلوا على دبلوم التجارة وله خال يعمل هناك فارسل له عقد عمل وذهب على الفور ولم يضـــيع فرصـــته .. وأحضر من ضمن الهدايا قماش بدلة صوف انجليزى للأستاذ جمال من باب الاعتراف بالجميل .. أما هذا الســـجاد الجميل الملون الذى يفرش كل ارض المسجد .. ويلذ لبعض المصلين وخاصـــة من الفلاحين الفقراء البســـطاء أن يتحســـونه بأناملهم فى اعجاب وانبهار بين الحين والحين وهم يرمقـــون العمدة الجالس فى الصـــف الأول كالعادة بنظـرات تقدير وعرفان بالجميل ، لأنهم يعرفون انه الذى اشتراها للمسجد منذ شهور فقط .. بدلا من الحصير الذى كان يفرش أرضية المسجد من قبل .

وختم القــرآن من المذياع .. واغلق على الفور .. ونهض الشــيخ مرزوق أبو رزق أمام (الميكروفون) يصدح بالآذان بصــوته المتهدج المألوف .. وطفق المصلون يتمتمون بشفاههم مرددين خلفه كما يقول .. بينما شرعت رؤوس بعض المصلين ، وخاصة الذين يجلسون فى الصفوف الأمامية .. ومن بينهم العمدة وشيخ البلد ، وكذلك الأســتاذ جمال الذى يجاور العمــدة فى جلسته .. تتلفت ناحية اليمين مرة .. وناحية اليســار مرة أخرى فى قلق .. وكأنهم يبحثــون عن شئ .. ثم اســتدارت الرؤوس الى الخلف .. واشرأبت الأعناق .. وعلقت العيون بباب المسجد .. واختتم المؤذن الآذان .. وبدأت الهمهمة تسرى فى صحن المسجد .. ورفرفت الحيرة فوق الرؤوس .. وهمس احدهم للعمدة فى توتر : ماذا ســنفعل يا حضرة العمدة ؟ الشيخ احمد خطيب المسجد لم يصل حتى الآن ؟ !!

فمال العمدة ناحية الأســتاذ جمال وسأله همسا : هل يجوز ســماع الخطبة من المذياع .. وتصح صلاة الجمعة يا استاذ ؟ ..

فشعر جمال بالحرج وهو يتعرض للفتوى فى موضوع خطير كهذا وعلى حين غرة .. ولكنه انقذ نفسه قائلا لقد سمعت ذات مرة فى حديث تليفزيونى من احد الشيوخ المختصين ، بانه لا يجوز .. وبان الخطبة فى صلاة الجمعة ضرورية ، ومن خطيب وليس من المذياع .

تنهد العمدة وهو يعيد الكرة والنظر الى باب المسجد على أمل ان يصل الشيخ أحمد من مدينة فاقوس .. ولكنه لم يصل بعد .. ولم يعد هنــاك وقت .. ولا يوجد من يقوم مقامه .. لأن الشيخ أحمد لم يعودهم على ذلك من قبل ، فهو لم يتغيب مرة واحدة منذ سنوات فى اى صلاة جمعة .. فمال العمد الى جمال مرة ثانية وهمس قم يا أستاذ جمال أخطب الجمعــة وأنقذ الموقف .

وخوفا من اى اعتذارات أو مبررات قد يبديها جمال سارع العمدة وسد عليه الباب قائلا : لا يوجد فى المســجد كله من هو أقدر او أحق منك بالقاء الخطبــة ..

وبصراحة لم يعط العمدة لجمال الفرصـــة للاعتذار .. بل ســـد عليه جميع المنافذ .. ونظر جمال حوله فى المسجد بلمحة سريعة عله يجد أحدا أحق او اقدر منه فى ذلك .. ولكن فى حقيقـــة الأمر لم يعثر على أحـــد .. فكل الحاضرين اما فلاحين بسطاء لا يحسنون حتى مجرد القراءة والكتابة .. واما متعلمين من تلاميذه .. وأدرك أنه من غير المنطقى أن يتهرب من ذلك الموقف موكلا الأمر لأحد تلاميذه .. والا اهتزت صـــورته أمام أهل الكفر وخاصـــة العمدة .. وقد يصل الخبر الى نســـمة وتؤوله الى ان ذلك دليل على عدم الثقة بالنفس ، أو انني انسان مهزوز .. وكيف لفتاة ان تقبل رجلا مهزوزا زوجا لها حتى ولو كان يحتل اعلى المناصب .. فأى فتاة تشـــترط فى زوج المستقبل أن يكون قوى الشخصية واثقا من نفسه .. ولذلك لم يجد بدا من أن ينهض متحمسا طريقه بين المصلين .. صاعدا ســـلالم المنبر .. وكأنه سيصعد ســـلالم ناطحة ســـحاب .. بأنفاس متلاحقة .. ألقى التحية على الحضور .. تحية الاسلام .. جلس للحظات ريثما ينتهى الشيخ مرزوق من الآذان الثانى .. وفى أثناء ذلك راح جمال يستجمع شتات شـــجاعته وثقته بنفســـه .. محاولا أن يهـــدىء من توتر تملكه على اثر المفاجأة .. وكذلك مواجهة الجماهير ودون اعداد سابق للخطبة ، وخاصة أنه بمجرد صـــعوده على المنبر سرت همهمة بين المصـــلين .. وازدادت العيـــون المحملقـــة به اتساعا ..

وكان كل همه أن يتذكر بداية الخطبة ونهايتها .. أما الخطبة نفســـها وجسمها فبعون من الله يمكنه أن يتطرق الى موضوع فيه هداية وارشاد .. وراح بسرعة يحاول أن يتذكر بداية الخطبة من حمدلة وصلاة وتسليم على النبى المصطفى على الله عليه وسلم وآله .. ورجع ببصره الى المصلين مرة أخرى فأذ بهم زحام من العيون المحملقة والجباة المرسوم عليها آلاف علامات الاستفهام والتوقع .. ولمح بعضهم يهمس الى جاره خلسة من بين شفتيه ، وهو لم يزل يتابع الأســـتاذ بنظراته .. فأحس جمـــال بدبيب الخوف بدأ يتسرب الى قلبه من أن يتعثر أو يخطىء وخاصة أمام تلاميذه .. وهم الآن

على قدر كبير من التعليم والثقافة .. ان بعضـــهم يدرس فى الجامعة .. ان الرهبة ليست نابعة من عدم المامه ومعرفته بأمور دينه التى يمكنه أن يتكلم فيها بطلاقة .. فهو فضلا عن دراسته للشريعة الاســلامية فى كلية الحقوق .. كان قداستغل اقامته فى دوار العمـــدة فى الفترة الأولى من مجيئه للكفر ، وقبـــل ان يحضر أمه لتعيش معه بعد وفاة ابيه ، وانكب انكبابا على قراءة الكتب الدينية وخاصة أن الفلاحين بعد أن أنسوا وارتاحوا له صاروا يسألونه كثيرا فى المســائل الدينية التى تواجههم .. وكان يجيب عليهـــا أو يعدهم بالبحث عن الاجابة فى الكتب ويخبرهم بها بعـــد ايام .. وكان ذلك احـــد الأسباب التى زادت من حبهم واحترامهم له .. اذن المشكلة والخوف لم يكن يهجم عليه من هذا الباب .. ولكن كانت هيبة المكان .. وخطورة الموقف .. ومواجهة عيون المصلين .. وتعجل معرفة رد الفعل لديهم .. هل ســـيحوز اعجابهم ؟ .. هل سينجح ؟ .. ولكن ما هذه الرعشـــة التى سرت فى كيانه .. انها توشك ان تفضح خوفه وتوتره امام الناس .. وعلى الفور أمســـك سيف المنبر بعصـــبية وبشـــدة حتى لا يظهـــر ارتعاش انامله عن الناس الشاخصين اليه فى تركيز شديد وكأنهم يعدون عليه أنفاسه .. وأخذ يتضرع الى الله ان يثبت أقدامه ... ووثب الى خاطره سريعا ، حكاية كان قد قرأ عنها عندما ســـأل احدهم خطيبا سياسيا مفوها من سياسى الحرب العالميـــة الثانية عن السبب وراء قدرته الفائقة فى مواجهة الجماهير ، وجراته منقطعة النظير .. فأجاب بأنه حين يخطبلا يعير أى اهتمام للناس ، بل أنهم ينظـــر اليهم ككراسى خاليـــة من البشر .. ولا أهتم بما يمكن أن يعقبـــوا به على خطابى ...

وانتبه جمال واذ بالشيخ مرزوق اوشـــك على الانتهاء من الآذان .. ولم يحدد موضوع الخطبة بعد .. ولكنه همس لنفســـه .. توكلت على الله .. ودعا بدعاء سيدنا موسى « رب اشرح لى صـــدرى ويسرلى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .. وانتهى الآذان .. ونهض جمال ممسكا بالسيف الخشـــبى التقليدى على المنبر .. ومع بداية حمده لله والثناء على نبيه والصـــلاة عليه وآله ، وبينما هو يتعثر فى اختيار الموضـــوع بعد ..

حانت منه التفاته يسار المسجد فلمح بطرف عينه الحاج سعد قابعا فى صفوف المصلين ، وقد أسند كتفه الى جدار المسجد .. وأحس جمال بغصة وألم عندما رآه .. وتذكر ما حدث فى بيته ليلة أول أمس .. وعض على شفته السفلى كى يمنع انفعاله من الظهور أمام الناس .. وحاول السيطرة على تعبيرات وجهه فى مواجهة المصلين .. وفجأة وبطريق الحدث ومضت فى ذهنه فكرة الخطبة (قارون) .. فقال أما بعد .. قال الله تعالى (أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة اذ قا ل له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين » .

وبعد ذلك .. فتح الله عليه فتحا مبينا ، وأفاض عليه من كرمه .. اذ انساب الكلام من بين شفتيه فى سلاسة وطلاقة موضحا أن الله يمتحن بعض عباده بمنحهم المال بعد العوذ والفقر .. فمنهم من ينجح فى الامتحان ويشكر الله ، ويعترف بفضله ولا يتجاوز حدوده .. ومنهم من يرسب فى الامتحان كما حدث لقارون الذى تملكه الغرور .. ونسى فضل ربه وقال لقد حصلت على هذا المال بعلمى وذكائى .. ونسى أن الله هو الذى يعطى وهو الذى يأخذ ...

وكان كلما تذكر جمال ما حدث فى بيت سعد أول أمس زاد انفعاله وازداد صدق كلماته فتصل مباشرة الى القلوب فتهزها هزا وتسرى فى أجسادهم قشعريرة ...

وأدرك الناس بذكائهم الفطرى أن هذا السخط والغضب الذى يصبه الأستاذ على قارون .. ليس الا سخطا وغضبا يصبهما على سعد الأقرع كرد فعل لما حدث فى جلسة الصلح أول أمس .. وكان الناس يبتسمون تشفيا أحيانا وهم يصوبون نظرات سريعة الى سعد الأقرع المستند بكتفه الى جدار المسجد يواصل نظره الى الأستاذ دون أن يعكس وجهه أى انفعال واضح .. وكان الكلام ليس عليه .. بينما الأستاذ جمال كان يتحاشى النظر الى سعد حتى لا يلفت النظر اليه ولا يؤكد ظنون الناس ..

واحس جميع المصلين بالراحة والسكينة .. وكان الأستاذ قد أخذ بثارهم من هذا القارون الجديد .. وأحس جمال بذلك من خلال تسليمهم عليه وشدهم على يده بحرارة وانفعال صادق عقب الصلاة .. مادحينه كل المديح ومطرين عليه كل الاطراء .. وكان أكثرهم مدحا للخطبة الشيخ مرزوق والعمدة الذى قال له وسط الناس والابتسامة العريضة تتألق فى عينيه وكأنه يفتخر بالأستاذ ــ الذى قال له فى يوم من الأيام أنا لم انجب أولادا وأنت بمثابة ابنى ــ بارك الله فيك يا أستاذ .. أول مرة الناس تستمع الى خطبة الجمعة دون أن يناموا .. لقد أخرجتنا عن الخطبة التقليدية المحفوظة للشيخ احمد .. يجب أن نفكر فى وقف الشيخ أحمد وتخطب أنت بدلا منه ..

فضحك جمال قائلا : لا .. لا يا حضرة العمدة .. لا تجعلنى سببا فى قطع رزق أحد فقال العمدة داعيا له بإخلاص : حقا بارك الله فيك .. لقد فرجت هموما كثيرة كانت راقدة فوق قلوبنا ..

وقال أحد الحضور من المصلين وكأنه يفهم مقصد العمدة : لكن ياليت الناس تفهم الموعظة وتعمل بها .. لكن الناس ضلت فى هذه الأيام عمتها الفلوس ..

وعقب عليه آخر مستدركا : لا يا اسماعيل .. الفلوس ما بتغير الا النفوس الضعيفة فقط .. لكن الأصيل ما يعيب حتى ولو أعطاه الله مال قارون ..

وتأبط العمدة زراع جمال خارجين من المسجد .. وتفرق المصلون فى كل مكان فى جماعات ولا حديث لهم الا عن الخطبة وعن سعد الأقرع الذى افترى .

أما سعد الأقرع ــ أثناء خطبة الجمعة ــ فلم يكن رأسه خاليا الا من الشعر فقط .. اما تحت عظام جمجمته .. فكانت هناك آلاف المسائل والموضوعات تتصارع .. وتتنافس على الأولوية والأهمية بين واحدة واخرى .. فهو لم يلحظ فى كل صلاة الجمعة غير أن الأستاذ جمال يقف لأول مرة على المنبر ليخطب لأن الشيخ أحمد خطيب المسجد تغيب اليوم .. وقبل

أن ينطق الأستاذ بكلمة واحدة فى الخطبة ... انقضت على رأس سعد مشكلة الجرار الزراعى الذى اشتراه منذ ستة شهور .. لكى يستثمره ويؤجره للفلاحين .. الا أن الايراد اليومى الذى يدخله حوالى خمسة عشر جنيها فقط .. وهذا قليل جدا بالنسبة للمبلغ الذى كان يحدده له من قبل .. لقد بدأ يشك فى الولد (السيد) السائق .. وهمس لنفسه فى ضيق : لاشك أنه غير امين .. فلاح نمرود .. جئت به من وراء الجاموسة .. وجعلت منه بنى آدم .. لكى يأكل لقمة نظيفة هو وأمه .. ولكن ها هو يسرق من الايراد .. لابد أن أراقبه مراقبة دقيقة .. ومن الضرورى أن أبحث للجرار عن أبواب جديدة للعمل .. حتى لا يتوقف عن العمل .. أنه يعمل هذه الأيام فى الحصاد والدرس ولكن فى الأيام القادمة سيخف العمل فى الحقول .. من الأفضل أن أزور أصحاب مصانع الطوب الأحمر وأعرض عليهم استعداد الجرار بمقطورته لنقل الطوب فى الليل وبعد أن تخف مراقبة المرور على الطرقات .. حيث أنه مسجل جرار زراعى ولا يسمح له بالنقل فى غير الأغراض الزراعية .. ولكن كل مشكلة ولها الف حل .. يمكن التفاهم مع شرطة المرور .. ويمكن ايضا نقل التراب من الكفور والقرى المجاورة لمصانع الطوب لاستخدامه فى الصناعة ..

ودفت رموشة فوق عينيه .. ثم عقد حاجبيه ومضيقا من مقلتيه مركزا ومقتربا أكثر من فكرة ومضت فى ذهنه فجاة .. ومد يده الى جيبه ليخرج علبة السجائر لأن هذه الفكرة تحتاج الى اشعال سيجارة ، ولكنه انتبه الى أنه لم يزل فى المسجد فسحب يده بسرعة ووضعها بجواره من جديد .. وراح يكمل الفكرة .. وسأل نفسه لماذا لم يفكر فيها من قبل ؟ لماذا لم يفكر فى بناء مصنع للطوب الأحمر ؟ .. نعم ان كل شىء يلزم لانتاجه متوفر وموجود .. الأرض التى يبنى عليها المصنع .. التراب .. التبن .. الفلوس موجودة .. العمال ممكن تدريبهم .. أو احضارهم من القرى المجاورة .. وهمس لنفسه مقتنعا : نعم ان مشوارا واحدا الى مدينة زفتى أو ميت غمر .. يمكننى من حل كل هذه المشاكل .. سواء من جانب العمال أو الخبرة أو

غير ذلك .. وهتف لنفسه مؤيدا : والذى يشجع على بناء المصنع أن الطوب الأحمر صـــار مطلوبا فعلا من الجميـــع .. ان لم يكن فى مدينة فاقوس فهو مطلوب فى الكفر والقرى الموجـــودة حولنا .. وخاصـــة أن البناء بالطين أو الطوب اللبن قد هجره الناس لأنه لم يعد صالحا ولا مأمونا كما كان من قبل .. وذلك بعد أن ارتفع منســـوب المياه الجوفيه ورشـــحت الأرض كما قيل بسبب السد العالى .. وفوق ذلك فان الناس فى هذه الأيام كثرت فلوسهم بسبب السفر الى الخارج والتجارة وارتفاع أجور الأعمال الحرة والمعمار .. واول شيء يفكر فيه من سافر الى الخارج هو بناء بيت المســـتقبل وبالطبع يكون من الطـــوب الأحمـــر .. وبسرعة راح يضرب الأرقام ، ويجمعهـــا ، ويطرحها محاولا ـــ بالتقريب ـــ حساب التكلفة والعائد المحتمل .. ووجده كبيرا جدا ... وفرح وفتحت شهيته للربح ، ولكنه قرر أن يؤجـــل اتخاذ القرار النهائى فى هذا الموضوع الا بعد أن يقوم بزيارة لعدة مصانع طوب فى زفتى وميت غمر أو حتى مدينة ههيا ..

وانتبه للأستاذ ، وهو يواصل خطبته على المنبر .. فســـمعه يقول (أنه لذو حظ عظيم ...) فهمس لنفســـه مستبشرا ، ومتفائلا خـــيرا : أن الحظ العظيم لم يقصره الله على قارون وحده .. ولكن الرجل الذكى الشاطر الواعى.. هو الذى يستغل الظروف .. ولا يضيع الفرصة أن وصلت اليه .. وربنا يقول العمـــل عبادة .. لابد لى أذن من بذل الجهـــد أكثر والدق على ابواب رزق جديدة .. لقـــد أعطانى الله خمس بنات ولم يعطنى ولدا يكفلهم بعد موتى .. ولذلك وجب على أن اترك لهم ما يؤمن لهن حياتهن ضـــد غدر الزمن .. لابد أن اوفر لهن أفضل سبل الحيـــاة .. لابد أن أجعل أفضـــل الناس واغناهم يتمنون مصاهرة الحاج ســـعد أبو رزق .. ولذلك لابد من توسيع مزرعة الدواجن .. لابد من زيادة العدد الى ثلاثين الف دجاجة بدلا من عشرين الف دجاجة .. الأرض بجوارها خاليـــة ويمكن توســـيعها .. واستدرك قائلا : ولكن اليس من الأفضـــل أن أنتظر ريثما يتم بناء مصـــنع الطوب .. يمكن الاعتماد عليه بدلا من شراء الطوب من مصـــنع آخر .. لن

تصل تكلفة الف الطوب الى النصف من ثمنه .. انا اولى بالفرق فى الأسعار .. وكذلك الأسمنت .. وتساءل فى دهشة .. لماذا لم افكر فى فتح مستودع اسـمنت وجبس فى الكفر ؟ ان حركة المعمار المزدهرة تحتاج اليه .. لا يهم الكفر ـ لماذا لا افتحه فى مركز فاقوس .. لماذا لا أفتح مستودع اسمنت .. يمكن عمل ترخيص لاقامة مصـنع بلاط والحصـول على الأسـمنت المدعم بالتسعيرة ، وبيعه للناس باضعاف سعره .. كل التجار يفعلون ذلك فى هذه الأيام .. والرجل الشاطر هو الذى لا يضيع اى فرصـة للربح .. وهتف لنفسه : لابد أن اركب السيارة بعد صلاة الجمعة مباشرة واذهب الى فاقوس .. اقابل هناك بعض المعارف والأصدقاء .. اتكلم معهم من بعيد وبطريقة غير مباشرة حول هذه المواضيع .. اجس النبض فقط .. ازور الحاج صالح محمود اولا .. الحاج صالح له خبرة كبيرة فى هذا المجال و ....

وتسللت عيناه من بين المصلين بغيظ وكراهية الى حيث يجلس العمدة فى الصف الأول .. وزمجر متحديا .. ستعرف عما قريب من هو سعد الأقرع .. يا حاج أيوب مفتاح ..

(الفصـــل الثامـن)

فى مساء يوم الجمعة نفســه الذى ألقى فيه جمال الخطبة على منبر المسجد .. رجعت أم جمال من زيارة لبيت العمدة وهى فرحة فخورة .. تكاد من فرط الســعادة تتعثر فى سرد ما حدث وقيل فى بيت العمــدة الليلة ، عن الاستحسان العظيم والاعجاب الكبير بخطبة الجمعة التى ألقاها الأستاذ .. وكم من المديح قاله العمدة ، وكذلك زوجته الحاجة صفية التى اســتمعت الى الخطبة من خلال (ميكروفون) المسجد .. وقالت ربنا يحميه لشــبابه .. كامل من كل شىء .. ادب وعلم وشــباب .. ربنا يبارك لك فيــه ياحاجة أم جمال .. ويكفيه شر العين والحسد ..

فقاطعها جمال فى لهفه سائلا : وهل كانت نســمة موجودة أثناء ذلك الكلام يا أمى ؟

قالت الأم : لا .. ان نسمة ذهبت لزيارة خالتها زينب فى الزقازيق .. منذ يومين ولم ترجع بعد ..

فاحس جمال للحظات بامتعاض ووخزة .. ولكن سرعان ما استأنف الحديث مع أمه قائلا وكأنه يطمئن على مكانته فى نفس وقلب العمدة وزوجته : يعنى هذا يا أمى أن الخطبة قد أعجبتهم ؟

ــ بالطبــع يا حبيبى .. لا يوجــد أحد فى الكفر لم يعجب بها .. ويشكر فيك .. أن كل الناس فى الكفر تحبك يا جمال .. وهذا يعنى أن الله يحبك أيضا .. ومادام الله يحبك فسوف يحقق لك كل آمالك وأحلامك ان شاء الله يا حبيبى ..

ــ والله يا أمى أهل الكفر هنا ناس طيبون جدا .. لم نر منهم غير كل خير .. صــحيح ان الأيام الأخــيرة ، وما حملته معها من صراع على المادة والفلوس قد غيرت بعض النفوس الضعيفة .. لكن الغالبية منهم لم تتأثر ، ولم تتغير ..

ـ حقا يا جمـــال .. منذ ان احضرتنى الى هنا لأعيش معك فى هذا الكفر بعد وفاة المرحوم والدك .. وبعد سنتين من عملك هنا وأنا لم أر منهم الا كل خير وطيب ..

ـ هل تذكرين يا أمى يوم أن أردت أن اســتأجر بيتا لنقيم فيه .. ماذا قال العمدة ؟ .. قال لماذا تستأجر ؟ .. لماذا لا تبنى بيتا ؟ .. ونحن كلنا تحت أمرك .. وباع لنا الأرض بسعر رمزى .. وفى خلال ثلاثة أشهر كان لنا هذا البيت الذى نعيش فيه ملكا لنا .. يومها .. كان كل أهل الكفر يساعدوننا .. البعض ينقل لنا التراب من ارضـــه .. والبعض الآخر يبناء الجدران من الطين .. وعنـــدما أردت أعطيهم أجرهم رفضـــوا قائلين وهل تأخذ انت مننا مقابل الدروس الخصوصية التى تساعد بها أولادنا .. حتى المعلم محمد النجار صنع لنا الأبواب والشبابيك وركبها دون أن يأخذ منا أى قرش لحظتها وسددناها له على أقساط طويلة الأجل ..

صدقت الأم باخلاص على كلام جمال : حقا يا جمال .. كل الناس فى هذا الكفر طيبين .. لقد جعلونى أنسى تماما جيرانى فى الزقازيق وكذلك أهلى فى المنصورة .. أنا هنا أشعر .. معك ومع أهل الكفر .. بأننى وسط عالمى الخاص جدا .. ووسط أهلى المقربين ..

وتوقف برهة .. عم فيها السكون الكامل ..

ثم أردفت مستدركة : حتى الحاج سعد أبو رزق .. بالرغم من الذى صدر منه منذ يومين الا أنه .. أعماقه انسان طيب القلب .. آه .. نسيت أن أخبرك !! .. لقد قابلتنى زوجته .. أم ســعدية .. عندما كنت ذاهبة الى بيت العمدة الليلة .. وهى متأثرة جدا لما بدر من زوجها تجاهك .. وقالت وهى حزينة ومتألمة أنها وزوجها فى غاية الخجل والأسف على ما صـــدر من سعد تجاه الأستاذ فى لحظة غضب .. وأقسمت بأن الأســـتاذ لم يكن هو المقصود .. وأن الحاج سعد زعلان جدا من نفسه ويؤنب نفســـه دائما من أجل ذلك وكذلك البنات .. ونحن جميعا لم ننس فضل الأستاذ علينا ..

وقطب جمال جبينه قائلا : بالله يا أمى .. لا تذكرى اسم هذا الرجل

امامى مرة ثانية .. لقد تجاوز كل الحدود .. قد أسامحه عن خطئه فى حقى .. ولكنه اخطأ كثيرا فى حق العمدة .. العمدة رجل طيب وفضله على الجميع .. ولا يستاهل من رجل مثل سعد كل تلك الصلافة التى صـــدرت منه .. وحقيقة أنا اعتبر الحاج أيوب بمثابة الأب الروحى لى .. منذ أن رأيته .. وانا احبه وأكن له فى قلبى كل احترام وتقدير ..

وقاطعته أمه مازحة ومداعبة : منذ ان رأيته هو ؟!! .. أم رأيت نسمة .. ضـــحك جمال وهو يرد على مداعبـــة امه : فى الحقيقة .. منذ أن رأيت الاثنين يا أمى وانفجر الاثنان فى الضـــحك .. ونهضـــت أمه من جلســـتها قائلة : هل تود شرب الشاى يا حبيبى ؟

واحس جمال برغبة كبيرة لشرب الشاى فقال راجيا : يا ليت يا أمى .. اكون شاكرا ..

ودلفت الأم الى الداخل لصـــنع الشاى .. بينما تركت جمال يحسب لنفسه كم تبقى من الأيام على تحقيق امله وحلم حياته كلها .. حلم ماضيه وامل مستقبله .. أيام .. أيام فقط ان شاء الله .. لقد نشرت الصحف ان نتيجة ليسانس حقوق جامعة القاهرة ستعلن خلال أيام .. وان شاء الله .. وبتوفيقه سيحقق الحلم .. سينجح بتفوق .. هو مطمئن الى حد كبير الى اجابته .. ولكن الأهم من ذلك — وطبقا لتجاربه السابقة — هو توفيق الله .. وسيتم تعيينه فى النيابة العامة .. وعندها .. لن يتأخر .. فى اليوم التالى للنتيجة .. اذ لم يكن فى نفس الليلة .. سيرسل أمه الى بيت العمدة لكى تخطب له نسمة .. وهتف لنفسه فى اعجاب : لكم كتمت كل أحاسيسى وكل مشاعرى تجاهها طوال تلك المدة .. لم أبح بهذا السر الا لأمى فقط .. وهذا الحب هو فى الحقيقة هو الشىء الوحيد الذى جعلنى اتمسك بالبقاء فى هذا الكفر .. بعد أن كنت ابحث عن الوساطة فى كل مكان لكى أنقل منه الى أقرب مدرسة بالزقازيق .. ولكن منذ أن أشرق حب نسمة فى حياتى وأضاء كل جوانب نفسى .. وانا انســـان جديد .. وجرفته الذكريات اللذيذة الى الأيام الأولى .. لم يرها الا بعد مرور عامين عليه فى الكفر .. وكان خلالهما

يبذل هو والمرحوم والده كل المســاعى لاتمام عملية النقــل الى الزقازيق كما وعدوه ، وخدعوه بعض المسئولين عند تعيينه .. ثم سحبوا وعودهم زاعمين بان التعليمات تقضى بان لا يجوز نقل المدرس الجديد من المدرســة التى عين فيها الا بعد قضاء عامين كحد ادنى فى نفس المدرسة .. وتم أيضا استبعاد كشف الحالة الاجتماعية الذى اشاروا هم عليه به عند بدأ تعيينه زاعمين أن حركة النقل تمت وان الافضلية أعطيت لأبناء وأخوة الشــهداء وكذلك ابناء العاملين فى التربية والتعليم .. وطوال هذه المحاولات والرغبة الشــديدة فى النقل الى المدينــة حيث الحياة الحقيقية وحيث ابيه وأمه .. لم يكن قد رأى نسمة بعد .. رغم أنه سمع أن العمدة عنده ثلاث بنات .. زوج اثنتين منهن .. أما الثالثة فهى تلميذة صغيرة فى المدرسة الاعدادية بفاقوس .. وتقيم عند خالتها بفاقوس .. وتأتى فى أيام العطلات فقط .. فى نفس الوقت الذى كان يغادر فيه الكفر الى الزقازيق ولذلك لم يراها طوال عامين عمل فيهما فى الكفر وكان يسكن فى الدوار ويأتى له الطعام يوميا من بيتها .. حتى ولم يعد سيرتها مجرد اهتمامه لأنها على اى حال بنت صغيرة فى المدرسة الاعدادية ..

الى أن كان ذلك الصباح العطر ليوم ربيعى الأنفاس فى اواخر شــهر ابريل .. حيث اعتاد جمــال الخروج مع مســتهل كل صــباح من حجرته بالدوار ، للنزهة والتجول بين الحقول .. قبل بدأ اليوم الدراسى .. وكذلك قبل أن ترفع الشمس رأسها من الأفق الشرقى البعيد .. مشمرا (بنطلونه) قليلا عن ساقيه .. متجنبا أن تتواثب على نعله وملابسه بعض من قطرات الندى التى لم تزل جاثمة على صدر وريقات النباتات الخضراء منذ أول الليل .. تلك التى تحف بالدروب النحيلة التى تفصل بين الحقول وتبين حدودها .. وقبل أن تستيقظ الشمس الربيعية من رقادها مشتاقة لجمال الدنيا بعد غياب .. فتقبل بكل حرارة أشعتها حبيبات الندى تلك ، فتذوب حبا وسعادة ورقة وتتطاير الى الفضاء البعيد البعيد قريبا من الشــمس .. وكان يطيب لجمــال فى غالب الاحوال التجوال بجوار فيلا العمــدة .. حتى يســتمتع باستنشاق الروائح الطيبــة التى تفرزها زهور أشــجار الليمون والبرتقال وتعبق انفاســها المكان كله .. تلك الأشــجار التى تحيط بالفيلا وحديقتها

الشاسعة الملحقة بها من الجانب الخلفى .. ولم يكن يعزلها عن الطريق غير سلك شائك .. يعتلى سور حجرى صغير لا يكاد يصـــل فى ارتفاعه الى المتر .. يحول دون دخول الماشية السائبة اليها فقط ..

وبينما هو سائر كالعادة .. ترامت الى مسامعه نبرات عذبة لصـــوت انثوى رقيق .. كان الصوت يكرر بعضا من آيات القرآن الكريم .. لم يزل يتذكرها حتى الآن .. كانما قد فرغ من سماعها الآن فقط .. « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ... » ..

وبرد فعل مفاجىء ، وبتلقائية محضـــة .. اشرأبت عنقه باحثة عن مصدر هذا الصوت الرقيق الملائكى المختلط مع عبق زهور الليمون .. ولما كان ســـور الحديقة ليس مرتفعا لدرجة تحول دون الرؤية .. واذ بعينيه تتوغلان عبر شجيرات الليمون .. وتلمح عن قرب تلك الفتاة الجالسة وسط الحديقة على كرسى خشبى .. وقد استغرقت تماما فى حفظ الآيات الكريمة .. ولم تشعر بأن هنالك عينين خضراوتين تتسللان اليها من بين فجوات أغصـــان الأشجار .. محملقتان لأول مرة فيها تلك النظـــرة الخالدة المفعمة بالانبهار والاعجاب ..

كانت تخطو خطواتها الأولى على طريق النمو الأنثوى .. كانت ترتدى جلبابا صيفيا خفيفا وردى اللون .. يكشف عن ساعدين بضين مستديرتين فى بياض اللبن .. وجهها مستدير استدارة البدر فى منتصف الشهر العربى .. شفتاها كانتا تهتزان تلاوة للآيات الكريمة كانهما ورقتان لوردة حمـــراء يداعبهما النسيم ويتخللهما برقة ورفق فترتعشان وتتعانقان .. ثم تنفرجان عن أسنان لؤلؤية بيضاء ترسل اشعاعات ومضات خاطفة تنفذ مباشرة الى قلب كل من يراها او حتى يلمحها .. عيناها اللتان ابـــدع الله فى صـــنعهما وخلقهما ، فجعل سبحانه وتعالى بالاضافة لسعتهما احورارا محاطا برموش سوداء حادة طويلة .. دون أن تمتد اليهم يد بشر — .. وصـــوتها الحالم الرقيق .. باختصار شديد كانت كلها كباقة خلابة من الفتنة والجمال نسقها وابدعها الله سبحانه وتعالى — .. و

وعندما لاحظ جديتها فى الاســتذكار وتركيزها التام ــ لدرجة أنها لم تشعر بوجوده ــ زاد اعجابه أكثر وأكثر .. وأحس ناحيتها باحترام شديد وتقدير فائق .. ومن يومها .. أصبحت صــورتها لديه مقرونة باطار من الاحترام والتقــدير .. وهتف هاتف داخلى لحظتها مبشرا بأن هــذه الفتاة الساحرة ســتكون زوجة لك فى يوم من الأيام .. ولم يطــل من وقفته تلك ــ رغم أن ذلك شيء تشتهيه نفسه ــ بل انتزع قدميه المســمرتين فى الأرض كوتد وانســحب سريعا تحت تأثير الحيــاء وقبل أن تحس هى بوجوده .. ولكن بعد أن امتلكت كل احاسيس ومشاعر الحب عنده .. وعاد بعدها الى المدرسة فى ذلك الصباح ، وطيفها الملائكى يرفرف برقة وحنان من حوله فى كل مكان يذهب اليــه .. وهــو فى الصــف أمام التلاميــذ وهــو بين زملائه فى حجــرة المدرســين .. وهــو يتجــول فى فنــاء المدرســة منفــردا واضــعا يديه فى جيــوب سرواله وقــد شرد ذهنــه عن كل الموجودات التى حوله .. ولم يفارقه حتى عندما عاد الى سكنه فى الدوار .. حتى وهو يأكل .. لم يتركه طيفهــا أبدا .. حتى عنــدما دخــل حجرته ليستريح ، والقى بجسده على السرير اقبل عليه طيفها الجميل يدف بجناحيه فوق رأسه ثم استقر وسكن فى قلبه .. فأحس بنشوة جديدة وغريبة تتدفق عبر شرايينه الى جميع أجزاء جسمه وكل أطرافه .. فأحس بخدر لذيذ لذيذ .. ورعشة ممتعة تدغدغ أعماق قلبه فيستسلم اليها راضيا مبسوطا سعيدا .. وامتدت أصــابعه الى المذياع بجواره .. يحاول فتحه .. وكله ولع وشوق لسماع أى أغنية عاطفية .. تصــور تلك المشاعر الجديدة التى بدأت تحتل عليه كل كيانه ، وتستولى ــ فيه ــ على كل زمانه .. وبدأ من يومها يعرف السهر الى عينيه المفتوحتين والمحلقتين فى الظــلام ، ويداه تعبثان فى مفتــاح المذياع دائما تبحثان عن أغنية عاطفية لأم كلثوم تجســم مشاعرة الجديدة المتأججة ، وتلهبها فى نفس الوقت .. واســتمر على هذا الحال ، وكأنه نصف مخدر .. يحس بمن حوله نصف احساس ..

وحاول اكثر من مرة التجــول بالقرب من مكانها علّه يتمكن من رؤيتها مرة ثانية .. ولكن دون جدوى .. ويعود فى كل مرة مهموما مشدودا اكثر من

ذى قبل .. مما زاد تعلقه بها أكثر وأكثر .. ولو كانت فتاة أخــرى لهان عليه الأمر كثيرا .. كان يمكنه أن يتحدث بشأنها مع احد يأمن له .. ولكنها ابنة العمدة .. الرجل الذى فتح له بيته ، وأكرمه .. وصاحب المكانة العليا فى الكفر .. ولذلك وجب عليه أن يلزم الحذر .. ولا يهمس حتى باسمها لأى مخلوق مهما كان .. ولكنه فى نفس الوقت يريد أن يعرف عنها كل شىء .. وسقط فى بئر من الحيرة والقلق .. ولكن بعد أيام .. وبطريقـــة غير مباشرة استطاع أن يستدرج خفير الدوار (فرح) وهو يشرب معه الشاى ، ويتحدث معه عن الحاج أيوب .. الرجل الطيب .. العمدة الصالح .. وعن أقاربه .. وبناته .. وعرف منه أن الفتاة اســـمها (نســـمة) .. وأنها جد متفوقة فى دراستها .. وأن ترتيبها فى شهادة القبول الاعدادى الأول على مركز فاقوس .. ولذلك فهى دائما تردد أنها ستصبح طبيبه .. وأن أباها وأمها فى أغلب الأحيان يدللانها ويناديانها بلقب (الدكتورة نسمة) .. وهى تسعد وتفرح بذلك كثيرا .. وأن طموحها بلا حدود .. ولذلك فان العمدة وزوجته قد قررا الا يتسرعا فى زواجهـــا مثلما فعلا مع أختيها الكبيرتين .. اذ تزوجتا قبل أن تحصلا على شهادة الثانوية العامة .. ولكن خضوعا لرغبتها ستكمل تعليمها .. وســـتدخل كلية الطب .. وأدرك جمال — بعد ســـماع تلك الأخبار والمعلومات من فرح الخفير — أن ذلك كله يشكل مسئولية ضخمة سيضعها وبارادته على كتفيه . اذا أراد حقا أن يستجيب لنداء الهاتف الداخلى الذى بشره بأن نسمة ستكون فى يوم من الأيام زوجة له .. وبدأ يقارن بينه وبينها .. هو مدرس ابتدائى .. وهى ستصبـــح طبيبة .. كيف يتســـنى له أن يتزوجها .. فضـــلا عن حالة الثراء التى تنعم به فى ظل أبيها العمـــدة الذى يمتلك أكثر من أربعين فدانا بجانب الأشياء الأخرى .. كيف يمكنه أن يتقبل هو مثل هذا الوضوح الذى يكون فيه هو الطرف الأضعف .. رغم أن الاعتقاد الدائم عنده « الزواج الناجح لابد أن ينهض على اساس هام جدا ولا يمكن التغاضى عنه وهو : أن يكون الرجل اقوى من المرأة فى كل شىء .. فى العلم .. فى الصحة .. فى الثقافة .. حتى تكون له السيادة والغلبة فى بيته حتى تستقيم الأمور .. ويستمر الزواج ســـعيدا .. واذا كان ولابد من تفوقها

عليه فيجب أن تتفوق عليه فى الجمال فقط .. » ..

وهتف لنفسه مؤكدا اعتقاده السابق : نعم .. يجب أن يكون الزوج متفوقا على زوجته فى كل شىء .. يجب أن تشعر تجاهه بالفخر ، والحاجة ، والتبعية ... يجب أن يملأ حياتها .. كل حياتها .. فى نهارها لا ترى غيره .. وفى منامها لا يفارقها فى حلم واحد من أحلامها .. يجب أن يكون هو أغلى شىء فى حياتها .

وابتسم له طيفها الملائكى الهادىء الناعم الذى أقام داخله اقامة دائمة .. وأومأ له مؤيدا رايه هذا .. ومشجعا له على ضرورة التقـدم ناحيتها بالخطوة الأولى .. واحس بأن نسمة تهمس له بأن رايها فى الزواج الناجح هو هو نفس رايه وأنها تتمنى فى زوجها أن يكون رجلا ذا شخصية .. يشار اليه بالبنان فى اعجاب وانبهار .. أنها تريد فى الرجـل الذى سـيكون أبا لأولادها أن يكون رجلا ذكيا عملاقا فى كل شىء .. طموحا فى كل شىء ..

وهمس لنفسه فى صدق واقتناع : حقا أنهـا فتاة كاملة .. ولن يكون جديرا بها سوى رجـل كامل مثلها .. لابد أن يكون محـلا للاعجـاب لها ولغيرها .. يجب أن يكون محلا للفخر لها ولغـيرها .. ان التدريس مقبرة للطموح والأحلام والآمال الكبيرة .. ان الذى يفكر فى الاقتران من نسمة لابد له أن يكون انسانا مرموقا مشهورا .. رجلا يتكلم عنه كل الناس فى انبهار .. لابد من عمل يجلب له الشهرة .. والمال .. عمل شريف محاط بالاحترام والتقـدير والتعظيم .. يجب أن يكـون مـلأ الأسـماع .. والأذهان .. والعيـون ..

وقرر أن يبدأ فى وضع أول حجر بناء الجسر الذى سيصل بينه وبين فتاة مستقبله ، وشريكة عمره .. وذلك بالبدء فى الاعداد للاستذكار ودخول امتحان الصـف الأول الثانوى .. فلقد حدد طريقه وقرر أن يكمل دراسـته الجامعيـة .. ونسى الطلبات التى تقـدم بها من قبل الى مديرية التربيـة والتعليم لكى ينتقل الى الزقازيق .. بل أصبح يكتب فى رغبات النقل التى تستطلع راى المدرسين سـنويا (لا أرغب) .. وعندما توفى والده .. بكاه

كثيرا .. واحضر امه لتعيش معه فى الكفر .. وصار الحاج أيوب مفتاح هو والده الحقيقى الذى يتمنى أن يقدم له أى خدمة .. والذى يسعد لمجرد رؤياه .. وأصبحت (فيلا) العمدة هى كعبة قلبه التى لم يحج اليها ، ولم يتمسح باستارها بعد .. بل أصبح يخشى من مجرد الاقتراب منها .. لأنه كلما حاول الاقتراب منها عله يحظى برؤية نسمة مرة ثانية ، ويطوف بخياله أنه سيلقاها وتسلم عليه .. يسرى الخدر فى عروقه ويدب ايضا فى أعصابه ، فينتابه توتر شديد وتسيطر عليه رجفة .. ودون جدوى يحاول السيطرة عليها .. فيضطر أن يتراجع على أثرها .. ويغير اتجاهه بعيدا عن (الفيلا) الى الحقول الخضراء الشاسعة وهو مضطرب الأنفاس مؤنبا ولائما نفسه بشدة وبعنف صارخا فيها : اذا كنت لا تتحمل مواجهتها الآن .. اذا كان التوتر والاضطراب يتملك عليك أعصابك لمجرد توقعك لرؤيتها ومصافحتها .. فكيف ستواجهها فى يوم من الأيام وتفضى اليها بمكنونات نفسك وتطلب منها الزواج ؟ !! يجب أن تكتسب الجرأة .. يجب أن تتدرب على مواجهتها .. يجب أن تتخلص من الخجل نهائيا ..

ولكنه سرعان ما برر لنفسه أن ذلك قد يكون راجعا الى احساسه — رغم حبه الجارف لها — أنه أقل منها .. وأنه يخجل ولا يحب أن يقترب منها وهو فى موقف الضعف هذا .. فقد تقابله بفتور .. وقد لا تهتم به وتطعنه فى أجمل أحلامه .. ولكن فى اللحظة التى يشعر فيها بأنه محل فخر واعتزاز .. فى اللحظة التى يشعر فيها بأنه متفوق عليها .. أكيد لن يكون هذا شعوره واحساسه .. وقد يقرأ فى عينيها نداء الحب والشوق تجاهه قبل أن يبادرها هو بأى كلمة أو همسة .. فلابد اذن من العمل .. هو الشىء الوحيد الذى سيقربك الى ذلك اليوم ، ويجعله حقيقة ملموسة ملك يديك .

وظل على ذلك الحال .. ويواصل نجاحه وتفوقه .. وفى كل مرة كان يهمس لطيفها الجميل الملازم له دائما .. ما رأيك ؟ .. هل اقتربت منك ؟ .. هل تظننى أصبحت جديرا بك .. لقد اقتربت الأيام .

بينما كانت نسمة على الطرف الآخر تنمو وتنمو وتزداد حسنا وجمالا .. ويزداد عليها الكلام بين أهل الكفر المبهورين بجمالها .. قائلين : أن كل بنات الحاجة صفية فى غاية الجمال مثل أمهم ولكن نسمة — بسم الله ماشاء الله — تفوقت عليهن جميعا فى الجمال وكل شىء .. وبأن الذى سيتزوجها سيكون حتما محظوظا .. وكان جمال كلما سمع هذا الكلام شعر بالسعادة والغيرة معا .. وكان بين وقت وآخر يداهمه شعور بالخوف من أن يخطفها منه أحد غيره ويتزوجها قبل أن يكمل دراسته ويبنى مستقبله الذى يعده لها هى .. فها هو قد التحق بكليـة الحقوق جامعة القاهرة .. وقد عقد العزم بينه وبين نفسه أن يتقدم بعد الحصول على الليسانس لمسابقات المذيعين فى الاذاعة أو التلفزيون .. وعندما علم أن أهم عناصر الامتحان التحريرى هو اللغات الأجنبيـة والثقافة العامة ، ، لم يتوان فى رفع مستواه فى اللغـة الانجليزية والفرنسـية والترجمة منها واليها ، بالاضـافة الى انكبابه على القراءة وتثقيف نفسه والالمام من كل علم بطرف .. حتى أكثر العلوم جفافا فضلا عن المامه الكبير بامور الشريعة الاسلامية .. وكان دائما يتخيل نفسه مذيعا تليفزيونيا يجـرى حوارا بلباقة مع احد المسـئولين كبار .. وعلى الطرف الآخر تجلس نسمة أمام شاشة التليفزيون منبهرة بشـخصية جمال .. وتحتضنه بعينيها فى صمت وحذر مخافة أن يلمحها أبوها العمدة أو امها الجالسان معها أمام التلفزيون .. وهى تسألهما فى مكر .. هل تعتقد يا أبى أن جمالا مازال يذكر الكفر ويتذكر أهله ؟ .. ويرد العمدة فى ثقة كاملة وهو يعتدل فى جلسته : بالطبع يا نسمة .. الأستاذ جمال ابن حلال واصـيل ولا يمكن أن يتناسانا .

وتزداد سعادة جمال وهو يستمر سابحا فى أحلام يقظته .. سـعيدا مع طيفها الملائكى الرقيق وهى تعود لمحادثة أبيها العمدة : لماذا لا تدعه يا أبى لزيارتنا هو والحاجة أم جمال ذات يوم ليقضيا معنا هنا فى الكفر كم يوم .. لابد أن هواء الريف الذى حرما منه يستهويهما الآن كثيرا و ....

ولم يمهله خياله حتى يستمر مسترسـلا مع هذا الحوار الذى يريحه ويمتعه بل لكزه بعنف موقظا اياه بسؤال ساخر : وهل ستنتظرك هى حتى

تصبح حضرتك مذيعا مشــهورا فى التلفزيون .. انك تحتاج الى ســنوات وسنوات لتحقيق ذلك .. وســتكون هى قد تزوجت ، واولادها فى الصــف السادس الابتدائى .. وابتسم لهذا الخاطر الساذج .. انها فتاة كاملة .. ومرغوبة من الجميع .. أن أى شــاب يتمناها .. ولن تنتظر حضرتك حتى تحقق كل أحلامك .. وفكر اكثر من مرة أن يطلب من أمه أن تذهب الى بيت العمدة وتخطب له نسمة .. ولكنه كان يقتل الفكرة فى مهدها على الفور .. بعد أن يؤكد لنفسه أنه لم يزل الطرف الضعيف بعد ..

وظل مع أحلام يقظته ، وأمله فى ان يصــير مذيعا مشــهورا .. بعد حصوله على الليسانس .. الى ان أحبط .. وراح هذا الأمل يخبو شــيئا فشيئا .. ويتلاشى تماما بعد أن عرف من أكثر من صديق أن تلك المسابقات لا ينجح فيها الا من كان لديه واسطة كبيرة .. اكد له زميل دراسة ذلك .. وكان فعلا ممتازا فى كل شىء .. ونجح فى الاختبار التحريرى بجدارة ، وتفوق .. ولكنهم أرسبوه فى الشفوى لعدم وجود الواسطة .. بينما الآخرون الذين كانت درجاتهم متدنيــة فى كل الاختبــارات نجحوا وتم تعيينهم لأن لديهم الواســطة الكبيرة ..

وشرع جمال يرتب تفكيره .. ويعيد صــياغة أحلامه من جديد .. فكر فى أن يختار عملا لا يحتاج فيه الى واســطة عمل يعتمد على مجهوده هو .. على ذكائه هو .. على قدراته الخاصة .. ولأنه يدرس فى كلية الحقوق لم يجد غير العمل فى مجال المحاماة .. وهتف مؤيدا ومؤكدا : نعم .. أن العمل فى المحاماة لن يحتاج الى واســطة .. مجــرد تدريب سريع .. وفهم لمواد القانون التى يدرسونها فى الجامعة .. ولم يتقاعث عن تنفيذ الفكرة حتى من قبل ان ينهى دراسته اذ به بدأ يعد نفسه لذلك ، فأخذ يتصل بمن يعرفهم من المحامين الجدد ويحاول أن يستعير منهم أعدادا من مجلة المحاماة .. وكذلك يحاول حضور بعض الجلســات فى المحكمة كلما هيأت له الظروف ذلك .. وكان يؤكد لنفسه بين حين وآخر أن العمل فى المحاماة هو الطريق المســتقل والفردى للشهرة والمال .. فالمحامى الناجح المشــهور أمثال الأستاذ / أحمد

سعيد والأستاذ / على مرزوق .. محل احترام الجميع .. كذلك حققوا قدرا كبيرا من الثروة ..

واسترسل مع احلامه .. ثم أن العمل فى المحاماة سـيمهد له الطريق فيما بعد للترشيح لعضوية مجلس الشعب فى يوم من الأيام .. وقد يكون ذلك طريقا الى كرسى الوزارة .. وأحس بأنه يحيا فوق قمة سعادته — وأسـعد الناس هو من لديه آمال كبـيرة يحلم بتحقيقها فـدا — وتمتم متمنيا كأنه يتوسل الى الله : ياليت .. ياليت ..

وضم زراعيه الى صدره كأنه يحتضن احلامه وآماله .

ولكن بعد فترة من أحلامه تلك فى عالم المحاماة .. وبعد سـيرة على درب اعداده لنفسه ليصبح محاميا ناجحا .. كان يجلس ذات يوم مع العمدة الحاج أيوب مفتاح .. ودار حديث بينهما لا ينساه .. اذ تعمد جمال أن يثير موضوع العمل فى المحاماه .. وكيف أنها مهنة محترمة .. وتشبع طموح أى شـاب يريد أن يبنى مسـتقبله بمجهـوده الذاتى .. وكأنه بذلك يريد أن يستشف مدى موافقة العمدة على عمل زوج ابنته .. واذا كان سيسعد بذلك .. وكانت الصدمة غير متوقعة ، عندما صرخ العمـدة قائلا : محامى !! .. أعوذ بالله .. محامى !! .. حد الله بينك وبين الحرام يا أسـتاذ جمال .. المحامى كل ذرة فى جسده وجسد أولاده من حرام وسحت .. انه يدافع عن السارق وهو يعلم انه سارق .. ويدافـع عن القاتل وهو يرى دم القتيل فى يديه .. ولا يهتم بأى شىء بعد ذلك مادام سيدخل فمه الأتعاب .

وبعد أن سادت فترة من الصـمت بينهما .. استدرك العمدة قائلا فى اخلاص : انت يا أسـتاذ جمال أخلاقك الطيبة لا تسمح لك بذلك .. لأنك لست من هذا الصنف الذى يركض وراء الفلوس .. أنت رجل أهم شىء عندك هى المبادىء والمثل .. وأنا أعرف أن القرش هو آخر شىء تفكر فيه .. هل نسيت يا استاذ عندما طلبنا منك أن تعطى أولاد الكفر دروسا خصوصـية بأجر ، فرفضت الأجر .. وأعطيتهم الدروس بالمجان .. بينما كان المدرسون الآخرون من أبناء القرى المجاورة يذبحون أولادنا ذبحا .. ومن يومها وأنت عزيز على الجميع .. وكل يوم حبك يزيد فى قلوبنا ..

ثم أردف وهو يبتسم فى صدق وكأنه يتمنى من كل قلبه : أنه يا أستاذ جمال لو أراد الله أن يكافئك على تعبك واخلاصك وأخلاقك الفاضلة .. يكلل تعبك هذا بالتفوق فى آخر سنة .. فى الليسانس .. وتعمل فى النيابة العامة .. تشتغل وكيل نيابة .. عندها يكون فعلا ربنا رضى عنك وكافأك أفضل مكافأة .. وكيل النيابة يا أستاذ .. رجل محترم .. وله مكانة وهيبة .. منصـــبة ممتاز .. وأى أب فى الدنيا لو عنده بنت يتمنى أن يزوجهـــا لوكيل نيابة .. ياليت يا أستاذ جمال ربنا يكرمك ويوفقك وتصبح وكيلا للنيابة .. وتترقى وتكبر فى المناصب حتى نراك النائب العام نفسه .. أنت تســتحق كل خير .. انت شـــاب مثالى وابن حـــلال .. ونادر وجـــودك فى مثـــل هذه الأيام .

وأحس جمال لحظتها أن العمدة يضع هذا شرطا لزواج نسمة منه .. رغم أن العمدة لا يعرف أى شىء عن الزيارات السرية التى يقوم بها طيف نسمة لخيال وأحلام الأستاذ .. لأن جمال قد أغلق هذا السر عن الجميع .. الا عن أمه .. بعد ان ألحت عليه منذ ســـنوات .. وبعد وفاة أبيـــه .. وانتقالها للعيش معه فى الكفر .. ألحت عليه كثيرا ليتزوج .. وكان فى كل مرة يرفض بحجة ان الوقت مازال مبكرا .. ولكنها لم تقتنع بتلك الحجة .. فاضـــطر ليصارحها بالحقيقة .. وناشدها الله ورسوله مشددا الا تكشف هذا الأمر لأى انســـان مهما كان وتحت أى ظـرف من الظروف .. حتى يساعده الله فى تحقيق هدفه ، وبعدها تذهب هى اليهم لخطبة نسمة له برأس مرفوعة ..

ومن يومها .. بدأت الحاجة أم جمـــال تزور الحاجة صـــفية زوجة العمدة .. وفى العطلات كانت نســـمة تأتى الى الكفر وتجلس معها أيضا أم جمال .. ولم يعد العمدة وزوجته يدللان نسمة وينادينها (الدكتورة نسمة) ذلك لأن ســـوء الحظ قد اقترب منها فى الثانوية العامة ، ولم تحصـــل علـــى المجموع الذى يؤهلها للالتحاق بكلية الطب .. ولم يسمح لها الا بالالتحاق بكلية الزراعة بالزقازيق .. ولم تكن تلك بالطبـــع أمنيتهـــا .. فلم تكن مبتهجة ، بل حزنت حزنا شديدا .. واقترح عليها أبوها أن تعيد السنة لكى تحسن مجموعها .. فقد يسعدها الحظ فى العام القادم وتحصل على مجموع

يمكنها من دخول كلية الطب فى العام القادم .. ولكنها كانت تمر بنوبة يأس وقنوط .. فرفضت الفكرة قائلة بأنه بعد هذا المجهود الذى بذلته فى المذاكرة فى هذا العام .. ولم احصل على مجموع .. لا اعتقد اننى يمكننى تحسينه أو زيادته فى العام القادم .. وقبلت الالتحاق بكلية الزراعة على مضض وعدم اقتناع .. مما جعلها ترسب أول سنة .. لكنها نجحت فى السنوات التالية نجاحا عاديا .. الا ان نجاحها او رسوبها ليس هو المحك الحقيقى والخطير فى نظر جمال .. فالمهم فقط هو نجاح جمال بتفوق واستلام عمله فى النيابة العامة .. هذا هو الذى يجعل الموضوع ينتهى النهاية السـعيدة وتتحقق كل الأحلام والآمال .. اما نجاح نسمة او رسوبها فلا يهم .. حتى اذا لم تكمل دراستها او تعليمها الجامعى .. أيضا ذلك لا يهم .. فهو لا يريد الا نسمة .. نسـمة فقط .. نسـمة الانسانة الجميلة العاقلة فتاة أحلامه التى عاش ويعيش من أجلها .. نسمة الزوجة الوفية .. أم أولاده ..

ويبدو ان جمال صفى الدين فضل عالم السـعادة والنعيم المقيم الذى يعيش فيه الذى يحب من طرف واحد .. فلقد آثر الحيـاة الكاملة مع طيف نسمة الرقيق الملائكى الذى يطيعه فى كل ما يريد .. ولذلك لم يحاول جمال أن يأخذ من جانبه خطوة المبادرة ويلمح لنسـمة بأى شىء من أحاسيسـه المتأججـة الجياشـة .. فكل المرات التى رآها فيها بعد ذلك .. كانت تتم بطريقة عارضة أو الصدفة .. اذا ذهب يسأل عن العمدة أو متحججا بالسؤال عن أمه .. وهى مرات قليلة بالنسـبة لشاب يحمـل بين جنباته كل هذا الحب .. ولم يتعد الكلام فيها عن : كيف حالك ؟ وحال الدراسـة .. وسط ابتسامات يلفها الحياء والخجل تريد أن تفضح عواطفه ولكنه يسارع بسترها مخافة من أن يلمح منها أى صـدود وهو بعد لم يصـل الى ما يريد من علو مكانة ومنصب محترم فيهزم وتتحطم كل آماله .. ولذلك فضـل أن يعيش مع طيفها فقط ورضى به .. واطلق العنان لخياله فقال كل ما يريد دون خوف أو حياء .. يسردلها طويلا عن آماله وأحـلامه .. وعن الأولاد وكم عددهم وطريقة التربية وعن علاقتها بوالدته وبأسلوبه فى الحياة وأنه يحب الزوجة المطيعة .. وكان طيفها يستمع منه كل ما يقوله ويوافقه عليه ويريحه فيسعده

ذلك ويزداد حبه لنسمة أكثر واكثر ..

وهذه السعادة التى غمرت كل نفســـه وروحه الليلة عندما اخبرته أمه بالاعجاب الشديد من قبل العمدة وزوجته الحاجة صفية بخطبة الجمعة التى القاها على منبر المسجد .. لا يعادلها الا سعادة الحصـــول على الليسانس بتفوق واستلامة العمل فى النيابة العامة و ..

وانتبه على صـــوت أمه وهى تقف امامه منذ لحظات دون أن يشـــعر بمقدمها وهى تحمل صـــينية الشاى مبتســـمة وقائلة فى دعابة : محظوظة هى نســـمة ..

فاعتدل فى جلسته وهو يرد مبتسما : لماذا يا أمى ؟

ــ لأنها تحتل عليك كل تفكيرك ..

فقال متهربا لا يا أمى .. أننى أفكر فى النتيجـــة .. بعد أيام يتحـــدد المصـــير ..

فطمأنتـــه الأم فى ثقة : ان شـــاء الله .. ربنا ســـيحقق آمالك أنا متفائلة خيرا ..

ــ يارب يا أمى .

(الفصـــل التاســع)

بتوفيق من الله .. وبفضـل المجهـود المضـنى الذى بذله جمـال صفى الدين .. وبدافع من حب عملاق يحتل كل خلجة من خلجاته ، ويمتلك كل حياته .. استطاع جمال ان ينجح فى الليسانس ..

وما أن قراها الحاج سعد ابو رزق فى صـباح ذلك اليوم ، عندما كان ذاهبا الى مدينة فاقوس ، لقضاء بعض مصالحه الهامة والحيوية .. قرر أن يؤجل كل المصالح لبعض الوقت .. وقفل راجعا من وسـط المدينة الى الكفر .. فرحا منتشيا .. لأنه سيكون أول من يحمل هذا الخبر السار الى الأستاذ .. وتكون فرصة مناسبة جدا لكى يكون ذلك بمثابة اعتـذار عن كل مابدر منه للأستاذ فى ليلة الصلح .

وكان من فرط سـعادته بينما كان عائدا مسرعا حاملا الخبر الى الكفر أن يصطدم بعربته النصف نقل فى جرار زراعى كان خارجا من أحد المنعطفات على الطريق .. ولكن من أجل عينى الأسـتاذ يهون كل شىء ـ هكذا كان يحكى للناس ـ وكانت سعادته أكبر واكبر عندما رأى اسم الأستاذ مكتوبا فى الجريدة .. انه الخامس على الدفعـة والأول على المنتسبين .. وأن تقديره جيد جدا ..

وبكل وسائل الازعاج الممكنة لدى الحاج سعد ليعبر عن فرحه ويبشر أهل الكفر مستخدما بوق السيارة منذ أن دخل الى الطريق الموصل الى الكفر، وحتى توقف عند بيت الأستاذ .. وراح يكرر بفرحة اطلاق بوق السـيارة بيده ، وبيده الثانية كان ممسكا بالجريدة وبها اسم الأستاذ .. وعندما لم يسعفه الأسـتاذ ولم يدق الباب بسرعة .. فتح باب السـيارة وهبط منها وتركها تهـدر فى مكانها .. وراح يدق الباب دقات عنيفـة .. واذ بالباب ينفرج عن الأسـتاذ يفرك فى عينيه بعد أن فاجأه ضـوء الشمس الذى يملأ الطرقات .. واذ بسعد يحتضنه ويضـمه فى فرحة صادقة ، وهو يصـيح

مهنئا : مبروك .. الف مبروك يا أستاذ .. اســمك فى الجريدة مكتوب .. انت من الأوائل يا أستاذ .. ها هو اســمك .. الخامس على الدفعة .. والأول على المنتسبين ..

وشيئا فشيئا بدأ جمال يستجمع انتباهه .. فقد ايقظ لتوه من النوم .. وبدأ يدرك عقله ويحتوى كل ما يدور من حوله .. ونسى لحظتها زعله من الحاج سعد وجذب منه الجريدة ويقربها من عينيه ليتأكد من الاسم والترتيب والتقدير .. وفى لحظة كان الحاج سعد قد انزل من سيارته صندوقا ممتلئا بزجاجات الشربات .. وجوالا من الســكر .. وهو يقول : ألف مبروك .. ألف مبروك يا أستاذ .. ارجوك تسمح لى الآن .. لأنى مضطر للرجوع الى فاقوس لانهاء بعض الأعمال المهمة .. وان شاء الله ســآتى للتهنئة فى المساء .. ولكن الآن أرجو المعذرة .. عندما رأيت اسمك الغيت كل أعمالى .. لأنك عزيز علينا جدا يا أستاذ .. أنت فضلك على الكل يا أستاذ .. وأنا أولهم ..

وكرد فعــل طبيعى للموقف شــكره جمال بطريقة حارة عبرت تعبيرا واضحا بانه قد قبل اعتذاره .. وشدد عليه أن يرجع مرة أخرى .. وكرر له الشــكر على اهتمامه وعلى انه أول من بشره بهــذا الخبر الذى ينتظــره منذ سنين ..

وتملص سعد شاكرا ووثب داخل سيارته والابتسامة العريضة تملأ فمه وتظلل وجهه كله وهو يتطلع حوله فى جميع الجهات ناهرا بعض الأطفال الذين تجمعوا حول الســيارة على أثر الجلبة والضــوضاء التى أثارهما .. هو يستعد للانطلاق بسيارته مرة أخرى عائدا الى فاقوس كما قال .

والفى جمال نفسه وسط مجموعة من اهل الكفر من الأطفال والنساء من الجيران وهم يهنئونه ، ويباركون له .. وهو لم يزل مندهشــا مزهولا ويرد عليهم بالردود التقليدية المحفوظة بدون وعى أو ادراك كامل .. وتبين صوت أمه وهى تناديه من داخل البيت : خيرا يا جمال .. ماذا هناك ؟

فصرخ كأنه يحلم ولم يستيقظ بعد : لقد نجحت يا أمى .. حصــلت على تقــدير جيد جدا .. ومد يده لها بالجــريدة .. وأضــاف : اســمى مكتوب هنا ..

واشار باصبعه حيث الاســم .. وتناولت الأم الجريدة وقد اغرورقت عيناها بالدموع .. وقربتها من فمها وراحت تقبل الاســم وهى تبكى فرحة وانفعالا هامسة بصوت متهدج : الف مبروك يا حبيبى .. اســمك مضىء كل الجريدة ..

ونحت الجريدة بيد وراحت تعانق ولدها بحرارة وانفعال شــديد .. وارتفع صوت نشيجها وبكائها عندما تذكرت اباه والتى كانت تتمنى أن يكون موجودا ليرى أمله وقد تحقق .. كان دائما يتمنى ان يرى جمالا وقد حصل على شهادة جامعية وها هو جمال يحقق حلمه وحلم ابيه .. وانهمرت الدموع .. مما اثار انفعال الجيران من النســاء الواقفات .. وانحدرت الدموع من عيونهن ايضا .. ومددن الأيدى بطرف الوشاح يكفكفن به الدمع ..

وافاقت ام جمال على صوت النساء مهنئات لها ومباركات .. وتطوع ابن الجيران وهو طالب بالثانوى ــ وكان فى الابتدائى من تلاميذ الأســتاذ جمال ــ بعد أن استأذن من الأستاذ وأمه .. وأدخل الشربات والسكر الذى احضره الحاج سعد داخل البيت .. ثم خاطب الجميع منبها لهم ان الأستاذ لم يستيقظ من النوم بعد .. اتركونه الآن بعض الوقت حتى يرتب نفسه .. ولكم أن تأتوا للتهنئة بعد ساعة .. ثم التفت الى الأستاذ هامسا فى ادب : تفضل يا استاذ .. تفضلى يا خالتى الحاجة .. ادخلوا الآن .. وسأرسل أختى سعاد بعد حوالى ساعة لتساعد فى تجهيز وعمــل الشربات مع الحاجة لكى نسقى كل الكفر .. الف مبروك .. الف مبروك .. يا أستاذ .

ثم اشار للأولاد والنســاء بيده وهو يومىء اليهم بالانصراف الآن .. وفهم الجميع فبدؤا يتراجعــون ، وينصرفون واحــدة اثر أخرى .. وهن يباركن باخلاص وسعادة حقيقية .

انسل جمال وخلفه أمه الى داخــل الدار ، وذهول الفرحة المفاجىء قد كمم فاهه .. وتوجه الى الحمام ليغتسل ، ومد يده وفتح الصنبور .. ثم مد يده يريد ان يتناول الصابون من على حوض الغســيل .. وقبل أن يمد يده تحت الماء المنســاب من الصــنبور حانت منه التفاته الى المرآة التى تعتلى الحوض .. فرأى صورته .. فأخذ يحملق فيها .. وكأنه يرى صديقا حبيبا .. وسرح للحظات ..

واذا كان للنجاح وتفوق فرحة ونشوة تحملان الانسان على أجنحة من التائق والخيال الجامح مرتفعا ومحلقا فى سماء السعادة المطلقة .. الا أن التفوق عند جمال كان يعنى أشياء أكبر وأسمى من ذلك كله .. التفوق بالنسبة له كان هو الوسيلة وليس الغاية .. كان هو الوسيلة للاقتراب من اليوم الذى تتجسم فيه كل أحلامه ، سواء كانت احلام يقظة أو أحلام نوم .. وتصبح حقيقة ماثلة امامه .. يرى نسمة فى بيته زوجة وفيه مخلصة .. سعيدة فخورة .. يسمع ويستمتع بنبرات صوتها الرقيق الدافىء عندما تجيب نداءه ، اذا ناداها من الحجرة الأخرى طالبا منها أن تحضر له الجوارب لأنه تأخر عن الذهاب الى النيابة .. وينعم النظر اليها فى اعجاب وحنان وحب وهى ترضع طفلهما الأول وتتحسس شعيراته الناعمة الملساء كأنها الحرير .. وتضم الصغير فى حنان ولهفة الى صدرها حبا له وهياما به لأنه من جمال التى ترمقه بنظرات الاعجاب والحب والشوق حتى وهو معها وبجوارها ..

هتف لنفسه بصوت مسموع : الحمد الله .. لقد حدثت المعجزة .. لقد صار الحلم حقيقة .. من كان يصدق فى يوم من الأيام أن جمال صفى الدين .. الطفل المدلل .. وحيد ابيه وامه .. الكسول .. الذى آثر ان يلتحق بمعهد المعلمين لكى يختصر طريق تعليمه .. وينتهى بسرعة من الدراسة هذا الشىء ثقيل الظل على نفسه — رغم رجاء والحاج المرحوم والده لاستكمال تعليمه جامعى .. وكان يردد له أن أمله أن يرى ابنه الوحيد خريج جامعة وليس معهد فوق المتوسط .. ولكن جمال أيامها لم يلق بالا الى كل هذا الرجاء والالحاح .. مقنعا والده بكل الحجج أن الوظائف كلها متشابهة سواء بشهادة جامعية أو بشهادة متوسطة .. بالطبع لم يكن أبوه مقتنعا بأى حجة من حجج جمال الواهية التى لا تخفى على أحد انها فقط مبررات للهروب ولاحساسه بالكسل .. وكان جمال مقتنعا بمنطقه هذا الى أن قابلها .. كانت نسمة بمثابة الشرارة التى أشعلت جزوة طموحه وتطلعاته المستقبلية .. كانت بمثابة الدم الجديد الذى حل مكان الدم القديم داخل شرايين جسده بما يحويه من كسل .. تحولت القناعة والرضى الى طموح

روغبة عارمة فى السمو والرفعـــة .. تغير الكســـل والدعة الى طاقة خلاقة وانطلاق وعمل وسعى وجدية ...

وانطلق لسانه وقلبه يلهجان بحمد الله وشكره .. وانتبه الى أن الماء ينساب من الصنبور دون فائدة .. ومد يده المسكة بالصابون ليغتسل .. فاذا به يتبين أنه ممسك بمعجون الأسنان وليس بالصـــابون .. فابتسم لنفسه فى المرآة هامسا : لا تجعل الفرحة تذهب بعقلك يا جمال ..

وبعد العصر .. بدأ المهنئون من اهل الكفر ، من رجال ونساء يتوافدون الى بيت الأستاذ جمال .. وامسى البيت ممتلئا عن آخره بجموع من رجال يجلسون فى حجرة الاستقبال المفروشـــة (بالكنب) .. والنســـاء فى ردهة البيت وكذلك فى الحجرة المقابلة يجلسن على الحصير .. ولأول مرة يترك الباب الخارجى مفتوحا .. حتى يتدفق الهواء الى داخل بيت الأستاذ ويلطف من حرارة الجو والأنفاس فى اواخر شهر يوليو .. وكان جمـــال يجلس مع الرجال فى حجرة الاستقبال ، وقد كل لسانه وتعب من كثرة الردود التقليدية على تهنئـــة الناس .. ومرة بعد أخـــرى يقـــوم بتوزيـــع الشربات على الحاضرين ..

واحس جمال — منفعـــلا بالفرحة والتوقعات المقبلة الســـعيدة — بتقلصات فى أمعائه .. فما هى الا ساعات ويتحقق حلمه .. واستأذن من الحاضرين للحظات وهو ينوى الذهاب الى الحمام لقضاء الحاجة .. وما أن تشـــاهده النســـاء وهو يجتاز الردهة حتى يطلقن الزغاريد ويتصـــايحن فى اخلاص : مبروك يا (بيه) .. والنبى تستاهل كل الخير ..

وتعقب أخرى : انت طوال عمرك وافضـــالك وخيرك تغطى الجميع ..

وتقول أخرى فى مرح وجس نبض : عقبال العروسة ..

وتعقب أخرى رافعة عقيرتها حتى يصـــل صوتها الرفيع الى الحاجة ام جمال فى المطبخ : خلاص يا حاجة أم جمال .. الأستاذ لم يعد له حجة .. كان يقول بعد انتهاء الجامعة .. وها هى انتهت الجامعـــة على خير .. لابد أن نفرح بزواجه حالا ..

وترد ام جمــال من الداخــل فى ســـعادة وتاكيد : بالطبــع .. ان شـــاء الله ..

وتعقب أخرى فى صدق : والنبى ستكون سعيدة وأمها داعيـــة لها من تتزوج الأســـتاذ .. ماشـــاء الله .. جمال على جمال .. و (بيه) وكيل نيابة كبير ..

فيرد عليهن جمـــال وقد اعتراه بعض الخجـــل من هذا المديح والثناء : اشكركن جميعا .. والعقبى لأولادكن .. ان شاء الله ..

وتفحص ــ سريعا ــ وجــوه الحاضرات ولكنه احس بالتوتر لأنه لم يجد بينهن احدا من بيت العمدة .. لم يلمح الحاجة صــفية .. رغم أنهــا معروفة بأنها مجاملة فى كل المناسبات .. وبدلا من ان يتوجه الى الحمام .. انثنى ، ودلف ، الى المطبخ حيث كانت أمه تشرف على عمــل الشربات مع بعض من بنات الجيران الاتى جئن للمجاملة والمساعدة فى يوم نجاح الأستاذ .. وانتحى بأمه جانبا .. وهمس لها بانزعاج : لم يات أحد من بيت العمدة ليبارك يا أمى ؟!!

وأحســـت أمه بما يعترى نفســـه من قلق .. فأجابت مطمئنـــة له ، والبهجة والســـعادة بنجاحه ، وبالناس الذين يملأون بيتهـــا قد فردت كل اسارير وجهها المتجعد :

قد تكون هناك ظروف ما هى التى اجلت مجيئهم .. ولكن على اى حال نحن لم نزل قبل المغرب .. والحاجة صفية والعمدة هم أهل المجاملة ومعرفة الواجب .. أنت الذى تتعجل الأمور .. أصــبر .. ماهى الا ساعات ــ ان شـــاء الله ــ وربنا يحقق لك كل ماتريد .. لقد صـــبرت ســنوات .. الا تستطيع أن تصبر ساعات ..

فهز جمال راسه فى قلق وهمس : ربنا يجعل المانع خيرا ..

وانسحب راجعا الى حجرة الاستقبال ، وقد نسى الذهاب الى الحمام .. بعد أن شعر بدبيب غامض من عدم الرضى يتسلل الى داخله لعدم مجىء العمدة أو زوجته .. ولكن هذا الشعور لم يســـتولى عليه بعد .. فواصــل

ترحيبه بالحضور متمنيا لهم جميعا رد جمائلهم فى أفراحهم قريبا — أن شاء الله — ولمح مكانا خاليا بجوار شيخ الخفراء .. فأسرع اليه وجلس مرحبا به بصوت عال .. ثم همس بصوت خفيض لم يستطع ان يخفى توتره وقلقه : خيرا يا شيخ الخفراء .. حضرة العمدة لم يأت بعد ؟!!

فرد شيخ الخفراء مبتسما للأستاذ الناجح : قد يأتى بعد صلاة المغرب — ان شاء الله — .. العمدة سيفرح كثيرا ، هو والحاجة صفية عندما يعلمون بنبأ نجاحك .. وقاطعه جمال بدهشة كبيرة : أولم يعلموا بعد ؟!!

فرد شيخ الخفراء موضحا : وكيف يعلمون ؟ .. لقد ذهبوا منذ الصباح الباكر .. لزيارة اخت الحاجة فى الزقازيق .. قبل ان نسمع بخبر نجاحك الذى فرح كل اهل الكفر .. انت تعلم مكانة حضرتك فى قلب حضرة العمدة انه يحبك جدا .. وهو يتحدث عنك بفخر واعتزاز كما لو كان يتحدث عن ابنه .. وربنا يديم المعروف .. وسيفرح أكثر عندما سيعلم أن حضرتك اصبحت (بيه) وكيل نيابة ..

فتمتم جمال وقد هدأت نفسه نوعا ما : ان شاء الله .. العقبى لأولادك ....

وقبل ان ينهى حواره الهامس المتوجس مع شيخ الخفراء .. اذ بأصوات وجلبة وضوضاء قادمة من الخارج .. وصمت الجميع ليتبينوا مصدر تلك الأصوات المختلطة .. ولم ينتظروا طويلا .. لأن الصوت كان يقترب قاصدا بيت الأستاذ .. واتضح أنها صياح دجاج كثير .. وعندما نهض جمال خارجا من الباب يستطلع الامر .. اذا به يجد احدى بنات الحاج سعد تحمل فوق رأسها قفصا كبيرا مليئا بالدجاج الأبيض من مزرعة الحاج سعد .. وخلفها تسير امها وهى تزغرد مهنئة .. واقتربت من الأستاذ .. وقبلته بغتة أمام الجميع بفرح وهى تصيح باخلاص : مبروك .. ألف مبروك يا أخى .. ألف مبروك يا (بيه) ..

واحس جمال بخجل شديد من هذا التصرف غير المتوقع .. واحمرت وجنتاه وقد ارتبك تماما .. وصار غير قادر على تجميع بعض الحروف

والكلمات يرد بها .. فراح يغمغم بألفاظ غير مسموعة وغير مفهومة ولكنها فى اجمالها تعنى الشكر والامتنان .. وأقبل عليه الحاج سـعد من خلف زوجته .. وقد فرد كلتا ذراعيه وهو يجار بصوته الجهورى يندفع حارا ساخنا من فمه الواسع : بالأحضـان .. بالأحضـان يا (بيه) .. الف ألف مليون مبروك ..

وعانقه عناقا طويلا حارا — أمام الجميع — كأنه لم يره فى الصباح ولم يحمـل له البشرى .. ودلف الجميـع الى حجرة الاسـتقبال .. وتململ الحاضرون ضيقا وضجرا من وصول سعد الأقرع .. ولكنه لم يأبه بأحد .. بل راح يواصل كلامه ويملأ الحجرة كلها بصوته وحده .. واختبأت كلمات الحاضرين الآخرين خلف شفاههم وهم يستمعون لسـعد وهو يعيد ما قاله فى الصباح للأستاذ .. وكيف كانت المفاجأة مفرحة له عندما اشترى الجريدة فى الصباح وهو فى فاتوس .. وتصفحها بسرعة خصيصا ليعرف أى خبر عن نتيجة الأستاذ .. ومن فرحته عندما قرأ الخبر لم يأخذ باقى الجنيه من بائع الجرائد .. وركب النصف نقل ، وعاد من فوره ليزف البشرى الى الأسـتاذ .. انه خبر يفرح الكفر كله .. سيخرج من الكفر وكيل نيابة .. وأضـاف مؤكدا للجميع — رغم أن أحدا لم يعترض على كلامه — الأستاذ جمال يعتبر ابن الكفر .. منذ أن وصل الى الكفر وكلنا نعتبره واحدا منا ..

وبين كل كلمة وأخـرى كان يطلق من فمه ضـحكات تفرقع فى وجـه الحاضرين .. وكأنه يغيظهم .. فازداد تبرمهم بسـعد الأقرع وبكلامه .. ولذلك نهضوا مسلمين على جمال ومكررين التهنئة وهم يرسمون الابتسامة على وجوههم بعد أن هربت عند مجيء سعد بظله الثقيل .. ولم ينقذ الباقين من كآبة الجلسة الا آذان المغرب .. فنهض الباقون متجهين الى المسـجد ومعهم سعد الأقرع أيضا .. ولكن بيت الله يسع الجميع .

عقب صلاة المغرب عاد جمال الى بيته مسرعا .. وانتهز فرصـة خلو الدار من المهنئين للحظات .. وقبل أن يطرق أحدهم الباب ، وصارح جمال امه بارتياح شديد : خـلاص .. خلاص يا أمى .. الحمـد لله .. هذا هو اليوم الذى كنت انتظره وأحلم به منذ سنوات و ....

وقاطعته أمه بارتياح وسعادة أكثر وهي تتأمل وجه وحيدها المتألق بالسعادة والبشر : الحمد لله يا حبيبى .. الف الف مبروك .. ودائم عليك الفرح .. وربنا يحقق لك كل احلامك .. واراك قريبا مع زوجتك وأولادك فى خير وسعادة .. وربنا يكفيك شر عيون الناس .. ان شـاء الله بعد أن تخف رجل الزوار سارقيق من عيونهم جميعا وخاصة النساء .. والنبى يا بنى عيونهم كانت توشـك ان تلتهمـك .. الله اكبر .. الله اكبر .. قل اعوذ برب الفلق ....

فقاطعها جمال ضاحكا : يا أمى سـلمى الأمر كله لله .. المثل يقول القرد فى عين امه غزاله و ..

ولم تتركه يكمل كلامه بل قاطعتـه محتجة لائمة : قـرد ؟!! .. والله يا بنى انت اجمل من القمر .. الله واكبر من عينى و ..

وأسرع جمال بمقاطعتها لأنه يريد ان يقول لها شيئا هاما قبل ان يأتى الناس : المهم يا امى .. ان شاء الله باكر تجهزى نفسك وتستعدى .. لكى تفتحى موضوع خطبتى لنسمة مع الحاجة صفية ..

ازدادت سعادة ام جمال وهى ترنو الى وحيدها .. متأملة انفعاله ، وتأثره .. لهجته وبحة صوته وهو يطلب منها .. لهفته وشوقه .. وكأنه مراهق صغير .. اغرورقت مقلتاها ولمعت بالدموع .. وهى تسـتمع اليه بحنان وابتسام .. يطلب منها ان .. تذهب وتخطب له امراة أخرى يحبها .. احست به أكثر .. كأنه عاد طفلا صغيرا من جديد .. يطلب منها ، ويلح ويبكى .. اذا لم تجب له طلبه .. يحطم الأشياء من حوله ليعبر عن سخطه وغضبه . وكان المرحوم أبوه يسعد بذلك ، ويقول لقد انجبت رجلا صـغيرا ويحمله محتضنا له عاقدا عليه ذراعيه فوق صدره ويطوف به حجرات وصالة الشقة فى الزقازيق وهو يغنى له مدللا حتى يخفف من سخطه ولا يتركه الا بعد أن يرى الابتسامة على وجهه بدلا من الضجر والحزن .. وها هو جمال يعود طفلا .. لم يكبر .. مازال فى حاجة الى أمه .. وأحست بنوبة جديدة من الحنان الجارف الفياض يندفع فى شرايين روحها فتجيبه بصدق : ان شاء الله يا حبيبى .. وهذا ما كنت قد فكرت فيه بالفعل .. وكنت سأفعله من تلقاء

نفسى حتى ولو لم تطلب منى ذلك .. لأنى مشتاقة لتحقيق احلامك أكثر من اشتياقك انت لها .. ونفسى اطمئن عليك مع زوجة ترعاك وتهتم بك قبل ان اموت .. حتى أنام مستريحة فى قبرى ...

فاشاح جمال بوجهه مستنكرا ومعاتبا أمه عن تلك الكلمات الأخيرة : ارجوك يا أمى لا تتكلمى بمثل هذا الكلام مرة ثانية .. ربنا يعطيك الصحة والعافية ، وطول العمر .. وان شاء الله ستعيشين وتربين أولادى وأولاد أولادى ..

فردت عليه فى هدوء قائلة : الأعمار بيد الله و ..

وقبل أن تكمل حديثها سمعا أصواتا تقترب من الباب وطرقات على الباب .. وأسرع جمال ليفتح الباب ويعاود استقبال المهنئين .. بينما وقفت الحاجة والدته تنتظر .. فقد تكون القادمات نساء .. وكان القادمون رجالا من أصدقاء وزملاء فى المدرسة .. سلموا عليه بحرارة شديدة وكان على راسهم ناظر المدرسة .. ودخلوا معه حجرة الاستقبال .. وترك الباب الخارجى مفتوحا لاستقبال الوفود الجديدة من المهنئين والمهنيئات .. وأمسى البيت من جديد يغص بالناس .. ثم يخف منهم وهكذا .. الى أن أتت — أخيرا — أهم شخصيتين كان ينتظرهما جمال منذ أن علم بنبأ نجاحه فى الصباح .. فقد غادر التوتر والقلق قلب جمال عندما أتى عمدة الكفر الحاج أيوب من الزقازيق .. وكان أول شئ فعله عندما علم بنجاح جمال أن جاء هو والحاجة صفية وهم بثياب السفر بعد .. للمشاركة فى الفرحة والتهنئة .. وشعر جمال بالدفء وهو يجلس بجوار عمه العمدة .. وأحس بأنه طفل صغير يشعر بالأنس والأمان عندما التصق بأبيه الذى عاد من السفر بعد رحلة طويلة اشتاق لرؤياه كثيرا خلالها ..

وانتابته رغبة قوية وعارمة فى أن يمسك بيد العمدة ويقبلها أمام الجميع ويهتف امام الحاضرين قائلا فى امتنان وعرفان بالجميل : ان عمى الحاج أيوب له الفضل الأول فى نجاحى وتفوقى وعملى فى النيابة العامة ان شاء الله .. فلولا نصائحه الغالية المخلصة لى فى الوقت المناسب لكنت قد اقتنعت بمجرد النجاح العادى .. وانحرفت عن الطريق المستقيم وعملت

فى المحاماة .. وكنت سأناصر السارق وأساعد القاتل من أجل الفلوس الحرام .. كنت سأنصر الباطل على حق كى يزيد دخلى .. ولكن الحمد لله الذى أرسل لى عمى الحاج فى الوقت المناسب كى يهدينى الى طريق الرشاد .. الى طريق الخير والفلاح ..

وأعاد جمال التفكير .. ووجد أن ذلك سيكون تصرفا صبيانيا ساذجا .. فابتلعه قبل أن يخرج منه .. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التعبير عن عواطفه الجياشة المفعمة بالحب تجاه عمه العمدة .. من ترحيب دائم .. وتعظيم مستمر فى قدره ومكانته ..

وبالطبع رد عليه العمدة بالمديح والثناء على الأستاذ جمال القدوة والمثل الطيب .. وعلو شرف المنصب الذى سيعمل فيه وهو وكيل نيابة وهو جدير بكل خير و .. و ..

ودلف جمال الى الداخل مارا بالنساء ومرحبا بالحاجة صفية مرة ثالثة ورابعة قائلا فى اخلاص أنه لم يشعر بقيمة نجاحه هذا الا بعد مجيئهما لبيته للتهنئة .. فردت عليه الحاجة بوجه جميل يتهلل بالاخلاص والحياء : الف مبروك يا أستاذ جمال .. الحمد لله ربنا عوض صبرك خيرا .. أنت ابن حلال مكافح .. ووالدتك انسانة طيبة .. وتستاهل كل خير .. والله عندما علم العمدة بالخبر .. عند نزولنا من السيارة قال : بالله يا حاجة .. نذهب أولا الى الأستاذ جمال .. لأنه غالى علينا جدا .. انه فى مكانة ابنى ..

ولو أنهم عرضوا على جمال ــ لحظتها ــ درجة الدكتوراه فى القانون وخيروه بين أن يقبلها أو تلك الكلمات .. لاختار تلك الكلمات من الحاجة صفية .. انها أغلى عنده من كنوز الأرض جميعها .. انها ــ ان صح ظنه ــ بمثابة موافقة مسبقة منها ومن عمه العمدة على رغبته فى الزواج من نسمة .

(الفصـــــل العاشــر)

عندما وهب الله الحاجة صفية زوجة العمدة هذا القدر العالى من الجمال ... والتى ظلت محتفظة بالكثير منه حتى الآن — رغم تجاوزها الخامسة والأربعين من عمرها — .. ويقولون ان السبب فى ذلك هو زواجها المبكر .. فقد تزوجت العمدة وهى فى سن السادسة عشر .. ولم تقتصر منة الله للحاجة على الجمال وحده .. بل منحها أيضا الفطنة والذكاء وسرعة البديهة .. وكذلك غرس الله فى أعماقها شجرة حنان يانعة خضراء وارفة الظلال تظلل بها زوجها العمـــدة وبناتها ، وبيتها وتحميه وخاصـــة وقت الهجير ولهيب المشاكل .. وذلك هو ما جعلها تحتفظ بزوجها أسيرا لها وحدها — رغم أنها لم تنجب له أولادا ذكورا .. بما لهذا الطفل الذكر من أهمية وخطر لرجـــل يعيش فى الريف المصرى ، وخاصة اذا كان هذا الرجل هو عمدة الكفر — ومن خلال ذكائها وفطنتها كانت تحل الكثير من المشاكل التى كانت على وشك أن تعصف بحياتها وحياة أسرتها .. وبأعصاب هادئة ..

ولذلك عندما جاءت الشـــغالة اليها منذ لحظات لتخبرها بأن الحاجـــة أم جمال تنتظرها تحت فى (الصـالون) .. وفى هذا الوقت من الصباح الباكر .. لم يتطرق اليها أكثر من شك فى السبب الذى أتت أم جمـــال من أجله .. بل تيقنت الآن من صدق ما توقعته بالأمس .. أثناء زيارتهـــا لأم جمال فى بيتها للتهنئـــــة لنجاح جمال .. ولقد كاشفت به العمـــــدة مساء أمس بعد عودتهما من عندها ، اذ ســـألت العمـــدة وكأنها تلفت نظـــره الى شىء هام سيحدث : هل لاحظت شيئا يا حاج وأنت عند جمال ؟

— أى شىء تقصدين يا حاجة ؟

— هل لاحظت طريقة الترحيب بنا من جمال وامه ؟

— كانت طريقـــة عادية جدا .. كانا فرحـــين .. ورحبا بنا ترحيبا حارا .. لدرجـــة أن جمـــال أخجلنى أمام الناس لكثرة ما كاله لى من مديح واطراؤ ..

توقفت الحاجة لحظة تستجمع فيها أفكارها ، قبل أن تستأنف قائلة : لقد احسست من كلامهمـــا ، وترحيبهما .. كما لو كان هنـــاك شيء يودان قوله .. شيئا يتصل بنا نحن فانتبه العمدة مستفسرا : يتصل بنا نحن .. ما هــو ؟

— اظن أن جمال يريد أن يصاهرك يا عمدة ..

وكان هذا الكلام الذى فلت من لسان الحاجة باغت العمدة ، وصفعه .. فترك جلبابه الواسع الذى كان لم يزل يخلعه ليعلقه على المشجب .. تركه ينزلق من بين أصابعه ويسقط على سجادة حجرة النوم .. وقال مستوضحا فى دهشة : يصاهرنى .. أنا ؟!!

فأجابت فى هدوء : نعم .. ربما كان يريد نسمة .

— نســمة ؟!! .. كيف ؟!!

وانكمش لحظة يفكر ثم واصل : أنا لا أنكر أن جمـــال ابن حلال .. وشاب فاضل ومثالى .. ولا يوجد من يجرؤ على أن يسمه أو يصفه بعيب واحد .. ولكن .. لماذا لم يظهر هذا الا الآن .. والآن فقط !!

— ربما لأنه كان ينتظر حتى يحصل على الليسانس ..

فقال فى حيرة : ولكن هؤلاء الناس الذين زرناهم اليوم وتعرفنا بهم .. الدكتور محسن .. الم تخبرينى أن نسمة موافقة على الدكتور محسن ؟

فقالت الحاجة مؤكدة ، ونافية لكل شك : بالطبع .. وبالطبع يا عمدة .. انها فرحة وسعيدة به .. انه مدرسها فى الكلية .. ويعرفها وتعرفه عن قرب .. ثم أن اهلة — كما رأيتهم اليوم — اناس طيبون .. ولديهم مزرعة كبيرة .. مائة فدان .. غير مزارع الدواجن والماشـــية .. والحديقة الكبيرة .. حديقة المانجو أربعين فدانا و ..

فقاطعها العمدة فى حدة كأنه مهموم : يا حاجة .. يا حاجة أنا لا أهتم بتلك الأمور .. فالمال عنـــدنا والحمد لله .. أنا أسأل عن أمرين .. الأمر الأول هو كيف أدركت ان جمال يريد أن يتزوج نسمة ؟ .. الأمر الثانى هل أخبرتك نسمة من قبل انها تشعر بشىء ناحية جمال ؟

قاطعته الحاجة مستنكرة : جمال ؟!! .. جمال من يا عمدة ؟ انها لم تذكر اى شىء عنه ولم تفكر فيه على الاطلاق .. أما بالنسبة لمعرفتى لرغبتهما من خلال المقابلة وكذلك من خلال فلتة لسان لأمه قالت وهى تقدم لى الشربات اشربى يا حاجة عقبال — ان شاء الله — لما نشرب شربات جمال ونسمة .. ولأن كلامها يحتمل اكثر من معنى لذلك لم اهتم به لحظتها كثيرا ولم أفكر فيه الا ونحن عائدان من بيتهما .. فى الطريق فقط ، واعتقد أن ذلك هو ما يفكران فيه .

ولأن العمدة قد اعتاد على وقوع معظم توقعات الحاجة اطلق من جوفه تنهيدة وهو يهمس لنفسه : والله حيرة وجاءت لى من غير مناسبة ..

واستنكرت الحاجة ذلك قائلة : أية حيرة يا حاج !! .. الحيرة عندما يكون الاختيار بين أمور متساوية .. ولكن بالله عليك هل يوجد وجه قريب للشبه من بعيد او من قريب بين الدكتور محسن وبين جمال ؟ .. الدكتور محسن من عائلة كبيرة .. ومنصبه ممتاز ومستقبله واضح فى الجامعة ومحترم .. وفوق ذلك كله لديه ما يغنى نسمة وأولادها طول العمر و ..

وقاطعها الحاج أيوب بانفعال : يا حاجة افهمينى .. أرجوك .. أنا فقط اسألك مرة ثانية عن رأى نسمة ؟

— رأيها معروف يا حاج .. أنها مقتنعة بالدكتور محسن جدا .. ولولا الحياء منك لقلت أنها تحبه ..

فاستنكر العمدة الكلمة الأخيرة : عيب يا حاجة .. أنا أسألك سؤالا محددا .. رأى نسمة ؟

اجابت الحاجة منفعلة ولكأن استهجان العمدة لكلمة الحب لم ترق لها : لقد اخبرت من قبل وقلت .. أن نسمة موافقة على الدكتور محسن .. ولم تفكر أبدا فى جمال ..

وهمس العمدة لنفسه مرة ثانية فى ارتباك : لكن جمال شاب طيب .. حساس .. اى حرج هذا الذى سألقاه .. عندما يفتح الكلام معى .. ويطلب منى الزواج من نسمة .

ـــ يا حاج لا تكبر الصغيرة .. ولا تحمل نفســـك هما .. فى الواقع جمال لن يفاتحك او يكلمك فى هذا الأمر .. لأنه خجول .. ولكن اذا حدث كلام فسيكون من أمه لى أولا ..

وتوقفت لحظة تلتقط قميص نومها من الدولاب .. ثم أردفت قائلة : وفى هذه الحالة اترك كل الموضوع على انا .. وباذن الله سينتهى كل شىء على خير ما يرام .. هل خذلتك من قبل فى اى شىء ؟

فقال العمدة وهو يقلب يديه مهموما محتارا : ربنا يستر .. ربنا يستر يا حاجة .

فقالت ملطفة للجو : ان شاء الله ربنا يستر .. ولكن ما رايك انت فى الدكتور محسن ؟

فأجاب بهدوء وارتياح : والله يا حاجة .. شاب ممتاز .. مهذب .. مثقف .. وباد على محيـــاه كل أمارات الذكاء والنجابة والعز والوقار .. ربنا يسعدك يا نسمة يا بنتى ..

قالت الحاجة فى فرح : الحمـــد لله .. لأن رأيك يا حاج هو اهم شىء عندنا .. ورأيك مقدم قبل راى نسمة .. ـــ وان شاء الله ـــ ان صـــدق توقعى وفاتحتنى الحاجة ام جمال فى الموضوع .. سأحاول افهامها بطريقة لبقة وغير مباشرة ...

وتوقفت لحظة عن الحديث .. كأنهـــا تلملم أفكارا موزعة ثم قالت : ما رأيك يا عمدة ؟ .. الراى الأفضل أن نسرع وتذيع الخبر بان نســـمة قد خطبت لأســـتاذها فى الزقازيق ـــ وبعد اذنك يا حاج ـــ ســـندعى أننا قرأنا الفاتحة وأعطينا الدكتور كلمة نهائية .. فى هذه الحالة عندما يعلم جمال وأمه بالخبر من غيرنا سنوفر على أنفسنا عناء التفكير فى كيفية المواجهـــة أو اى شىء آخر .

وتوقفت لبرهة وكأنها تستطلع راى العمـــدة .. ولكنه صـــمت تماما لا يلوى على شىء فاعتبرت الحاجة صمته هذا موافقة مبدئية .. فواصـــلت بسرعة قائلة وكأنها خافت أن يرجع فى كلامه : سنخبر الخفراء وأم مسعود

الداية حتى ينتشر الخبر سريعا فى كل الكفر ..

وهمست الحاجة لنفسـها .. كان كل ذلك بالأمس فقط ولم تتح لنا الفرصة لنشر الخبر .. وها هى ام جمـال أسرعت الينا قبل أن ينشر الخبر .. لماذا تعجلت فى المجىء هكذا !! .. وأفاقت الحاجة صفية لترى ان الشغالة لم تزل واقفة أمامها .. ففكرت سريعا ثم قالت : سأنزل لها حالا .. ولكن قدمى لها الشربات أولا ..

فاندهشت الشغالة .. وسألت : شربات !! شربات من يا حاجة ؟!!

فنهرتها الحاجة بنبرة سريعة منفعلة : يا غبية .. قدمى الشربات أولا لأم جمال وبعدها ستعرفين شربات من .. اذهبى على الفور ..

وتمهلت الحاجة قليلا ، قبل أن تهبط الدرج الى ام جمـال .. وأقبلت عليها باشة الوجه .. مرحبة ترحيبا فائقا وكأنها تكرم الضحية قبل ذبحها .. وصافحتها .. وقبلتها فى وجنتيها كالعادة .. وجلست فى الكرسى المقابل لها .. وهى تبتسم فى سعادة واخلاص واضح .. مواصلة لكلمات الترحيب والتمجيد فيها وفى الأستاذ .

وادركت أم جمال أن هذه المقابلة مشـجعة تماما .. وتأكدت أن الله سيوفقها .. وأنها بعد لحظات ستعود الى وحيدها طائرة له حاملة البشرى بتحقيق كل أحلامه وتزف اليه فرحة عمره ..وستفيض له فى الكلام عن حفاوة الاستقبال وكيف أن الحاجة صفية هللت من الفرح عندما فاتحتها فى الموضوع .. وقالت أن هـذا اليـوم هو اليـوم الذى كنا ننتظـره .. وانهم قالوا سيجهزونهـا ويزفونها اليه حتى باب بيت الأسـتاذ .. وأن جمـال هو ابننا و ....

وقبل أن تسـتطرد الحاجة ام جمال فى أحلامهـا .. وتوقعاتها .. داهمتها الحاجة صـفية فى ود واخـلاص وهى تتظاهر بالدهشة : العقبى للأستاذ جمال .. أبهذه السرعة انتشر الخبر ؟!! .. هذا الكفر عجيب .. تنتشر فيه الأخبار بسرعة غريبة .. رغم أن هذا الموضوع لم يتم الا بالأمس فقط .. لم نفعل شيئا غير قراءة الفاتحة فقط .. لكن ـــ ان شاء الله ـــ عقد

القران سيتأخر الى أن تنتهى نسمة من دراسـتها .. انه استاذها فى كلية الزراعة فى الزقازيق .. العقبى للأستاذ جمال ان شاء الله .

لجمت المفاجأة لسان أم جمال للحظات .. حاولت أن تستوعب الموقف أولا .. وحاولت اخفاء انزعاجها .. حاولت رسم ابتسامة فكانت بلهاء .. لقد تسرب الانزعاج الى أحشائها .. فلم تستطع أن تستره او حتى تتستر عليه .. فصـاحت فى ذهول : خيرا يا حاجة صـفية .. فاتحة من ؟ .. وعقد قران من ؟

غضت الحاجة صفية الطرف تماما .. ولم تعط بالا لتلك السحابة من الكآبة السـوداء التى ظللت كل وجـه أم جمـال .. وقالت بابتسـامة (بلاستيكية مطاطة) : نسمة بنتى .. والله يا حاجة أم جمـال كنا نود أن نخبركم بالأمس لكى نجعل الفرحة فرحتين .. ولكن قلنا لا .. فلتكن الليلة ليلة جمال وفقط .. وفضـلت ان أحكى لك بالتفصـيل عن كل شىء حول الخطبة عندما ننفرد ببعضنا لأننى فى الحقيقة اعتبرك مثل أختى واكثر ... لقد ظننت أنك سمعت الخبر وجئت لتباركى لأختك صفية .

ولم تسمع أم جمال أى كلمة جديدة قالتها الحاجة صفية .. بل راحت تحملق فى وجهها وشفتيها وهى تتحدث وتفيض وتحكى لها .. وأم جمـال تهز رأسها فقط بين لحظة وأخرى لتوحى الى الحاجة صفية بأنها تعى وتسمع .. ولكن المصيبة اكبر واكبر من أن يتحملها وحيدها .. لقد عاش سنوات عمره الماضية من أجل سنوات عمره الآتية .. ليقضيها مع من اختارها قلبه زوجة .. لقد رفض الزواج من أى امرأة أخرى .. رفض المال والاعارة الى البلاد العربية من اجلها .. باع الراحة وفضـل التعب ولم يكتف بالمؤهـل المتوسط ومات واستبسل من أجل الحصـول على مؤهل عال كى يصـبح لها زوجا لائقا ويشرفها .. لم يستجب لرجاء أبيه واستجاب لمجرد الهمس من طيفها .. كل هذا من اجل نسمة .. والآن بعد أن حقق كل ما عليه .. يضيع منه كل ما كان يحلم به .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. لابد أنه كابوس .. لايمكن ان يكون هذا حقيقة .. وركزت النظر على الحاجة صفية الجالسة قبالتها فاذا بها مازالت تقـول وتحكى .. وصرخت أم جمال فى أعماقها .. كيف ستواجه جمالا !!! ؟

.. ماذا ستقول له ؟ .. المسكين ينتظرها فى البيت وكله شوق لسماع الخبر الذى سيسعده بقية عمره .. كيف ستعود اليه وكيف ستخبره ؟ .. وتمنت لحظتها لو أن ملك الموت يهبط عليها مرة واحدة ويقبض روحها .. أن هذا أهون عليها من مواجهة ابنها بما جرى .. ثم عادت وعدلت عن هذه الأمنية .. وفضلت أن تبقى بجوار فلذة كبدها فى مصيبته تلك .. ان اصعب شىء فى الدنيا هو خيبة الأمل لمن عاش طوال عمره اسيرا لهذا الأمل .. وانتبهت الى الحاجة صفية التى مازالت تسرد على مسامعها ..

ــ هو مدرس نسمة فى كلية الزراعة .. عندما رآها وأعجب بها ، وباخلاقها .. ــ سأل عنها .. واتصل بزوج أختى زينب .. الأستاذ / احمد .. هو مسجل الكلية .. ويعرف الدكتور محسن منذ أن كان طالبا فى كلية زراعة القاهرة .. لأن زوج أختى من قبل كان يعمل فى كلية زراعة القاهرة وعندما فتحت زراعة الزقازيق كتب طلب نقل الى الزقازيق وتم نقله لأنها بلده .. ولذا فان زوج أختى زينب يعرف عنه كل شىء .. أصله وفصله .. دعونا للزيارة وذهبنا اليهم بالأمس .. وهم بسم الله ماشاء الله ــ أناس طيبون جدا وربنا فاتح عليهم .. عندهم مائة فدان .. غير مزارع الدواجن ومزارع الماشية .. وحديقة مانجو حوالى أربعين فدانا .. وأمه انسانة طيبة جدا يا حاجة أم جمال مثلك .. والدكتور محسن يشبه الأستاذ جمال تماما .. فى اخلاقه وذوقه وأدبه .. والنبى عندما رأيته ذكرنى بالأستاذ جمال .. هادىء ومؤدب وحى جدا ..

ورغم أن الحاجة صفية كانت تلاحظ بوضوح وجلاء لا يخفى على أحد فضلا عن فطنتها أن كلامها كان يسرق ويلملم كل الفرحة والسعادة من على وجه أم جمال ويغوص بها بين التجاعيد التى زاد ظهورها بعد أن تقلصت كل اساريرها .. الا أنها لم تتراجع .. ولم تتوقف .. بل استمرت فى الكلام .. حتى تقطع خط الرجعة نهائيا على أم جمال .. مبررة لنفسها تصرفها هذا قائلة (ان الحقنة تؤلم للحظات ولكنها تشفى مدى الحياة) ثم أردفت قائلة لأم جمال : وبالطبع سألنا نسمة أولا وقبل أى شىء .. مرة واثنتين وثلاثا قبل أن نرتبط مع الناس بكلمة .. وكانت موافقة تماما ..

وصمتت لحظة غيرت فيها من ملامحها .. كما تغير من ملابسها حيث نزعت من على وجهها ملامح البهجة والسعادة ، ووضعت محلها ملامح الأسى والندم قائلة بنبرات من ينعى حظه : كانت أمنيتى أن تتزوج بنت من بناتى قريبا منى بجوارى أجدها اذا احتجت اليها أو حتى اذا مرضت ولكن هذا هو حظى تتزوج بناتى الثــلاث بعيــدا عنى .. كانى لم انجب وكأنى لم أرب .. لكن .. هه .. مادام ذلك فى مصلحتهن لابد أن نتحمل هذه الضريبة التى يدفعها الأهل لأبنائهم وبناتهم يربون لغيره .. سنة الله فى خلقه .. ولكن على اى حال أنت شرفتينى بزيارتك .. والعقبى للأستاذ جمال .. الآن ليس له مشكلة .. لقد أنهى الدراسة .. ولم يعد له حجة أخرى ....

وكان تلك الكلمات الأخيرة كانت بمثابة رذاذ مطر تطاير من بعيد الى جذع شجرة جافة فى صحراء قاحلة توشك أن تموت .. فأنعشتها .. وجدد فى أعماقها أمل الحياة اذ انتعشت روح ام جمال من جديد .. وفكرت أن تطرق الحديد وهو ساخن .. تستغل احساس الحاجة صفية بالندم والأسى لزواج بناتها بعيدا عنها .. وتخبرها أن جمالا يريد أن يتزوج نسمة .. وسيكون قريبا منكم .. وستكون نسمة قريبة منها .. ولو شاءت أن تسكن معها فى نفس (الفيلا) فان جمال ليس لديه اى مانع .. ويرحب بكل شروطهم .. ولكن وقفت الكلمات فى حلقها وتحجرت .. فلا هى أخرجتها واســـتراحت ، ولا هى ابتلعتها ونسيتها ..

فراحت تحاور نفسها قائلة فى أمل .. قد تكون هناك فرصة أخيرة .. ثم تلوم نفسها قائلة : ومن أين ستأتى الفرصـــة ؟ .. ان الحاجة صـــفية تتكلم عن العريس كما لو كان الله لم يخلق فى الدنيا غيره .. انها تكاد تطير به فرحا .. ولكنها تحاول الشكوى والندم لابعاد العين والحسد عن العريس .. أنا أعرفها جيدا .. ولقد قرأت كل هذه الأحاســـيس فى عينيها وهى تفيض وتسهب فى سرد ممتلكاته وممتلكات أهله .. ولكن .. قد أكون مخطئة .. ولماذا لا أعرض عليها الأمـــر ؟ .. فربما كان حبهم لجمال يجعلهم يغيرون من كلامهم .. قد يكون هناك بارقة أمل .. فى الرجوع عن ذلك الاتفاق المبدئىمع العريس .. ولكن الحاجة أكدت لها اكثر من مرة أن نسمة موافقة عليه ..

لقد كررتها أكثر من مرة وكأنها تتعمد ذلك .. وهو أستاذها في الكلية .. وبما يكون هناك اتفاق بينهما من قبل وتخشى الحاجة صفية التصريح بذلك ..

كان تفكير المسكينة ام جمال كالكرة التى تتقاذفها الأرجل فى ملعب كرة القدم لا تستطيع أن تثبت أو تستقر على حال .. هل من الأفضل أن أقول ؟ .. هل يفيد ؟ .. وقد لا يفيد .. هل انتظر حتى آخذ رأى جمال ؟ — .. ربما فضل أن تبقى رغبته هذه سرا لا يعلمه أحد .. و .. وأحست وسط هذا الجمع من التوترات والأحاسيس المتباينة والانفعالات العنيفة .. أحست بوخزة فى صدرها .. ولكن لم تعبأ بها .. فقط بطريقة تلقائية وضعت يدها فوق الوخزة .. وواصلت التفكير .. وأخيرا قررت أن تتماسك ولا تقول للحاجة صفية اى شىء .. وتنطلق عائدة الى ابنها وتصارحه بالحقيقة وربنا معه .. ليس لنا غيره ..

(الفصـــل الحادى عشر)

ببساطة ودون عناء يذكر .. استطاع جمال أن يستشف كل الأحداث .. والأحاسيس والنتيجة .. عندما فتح لأمه الباب .. بعد أن انتظر خلفة دهورا طويلة من التوقع والأمل والخـــوف .. بمجرد التطلع الى هذا الوجه الذى تقلصت عضلاته وانكمشت أساريره .. ومع ذلك لصقت على الشفتين ابتسامة لتوحى لمن يراها بالطمأنينة .. والارتياح .. لكنها لم تســـتطع أن تتقن الدور جيدا .. فخرجت منها ابتسامة تشـــبه ابتسامة الأبله .. الذى لا يعرف هو نفسه لماذا يضـــحك وعلى أى شىء يبتسم ... وهذا الانكسار النفسى .. وتلك الهزيمة تكحل عينيها .. ـــ ولا يفضح الاحساس الحقيقى للانسان غير عينيه وصوته .. ولذلك فهى لم تستطع أن تنبس بحرف واحد حينما انفرج الباب عن ابنها المنتظر خلفه .. رغم أنها اعدت من قبل وهى فى الطريق عائدة من بيت العمدة تجرجر أذيال حزنها ومأساتها .. أعدت جملا طويلة .. وكلمات كثيرة تواسى بها ابنهـــا .. ولكن عندما رأته هربت من ذاكرتها كل الكلمات والحروف ..

لذلك لم يسأل جمال .. بل تركها وانزلق الى حجرته .. حجرة نومه .. والقى بنفسه على سريره ملجما بالصـــمت متشحا بالذهول والكآبة .. ولم تتركه أمه .. أسرعت خلفه .. لم تجد كلمات تقولها فى أول الأمـــر .. فجلست بجواره على حافة السرير .. وبعد فترة صمت .. همســـت كأنها ترثى ميتا .. كل شىء نصـــيب يا حبيبى فقال وهو يوارى عينيه المهزومتين بعيدا عن أمه .. منتزعا الكلمات من أعماقه السحيقة : رفضونى .. يا أمى ؟

أجابت فى الحال مستنكرة : لا يا حبيبى .. ومن يجروء على رفضك .. أنت شـــاب تحلم به أى فتـــاة زوجـــا لها .. وأى أسرة تتمناك زوجا لابنتهم ..

قاطعها فى اسى وضـــجر : انا لا اريد أى بنت .. نســـمة فقط .. هل رفضونى يا أمى ؟

قالت فى حزن بالغ وهى ترنو الى وجهه المكفهر : الحظ .. النصيب .. ارادة الله هى التى شـــاءت ذلك .. انهم يحبونك ويقـــدرونك .. لكن ليس لك نصيب معها ..

ــ كيـــف ؟ !!

ــ لقـــد تمت خطبتهـــا امس .. قرؤوا الفاتحة أمس بالزقازيق .. امس فقط .. لو كان الله يعلم أن زواجك منها سيعود عليك وعليها بالخير .. لتمت الأمور لصالحكما .. تقدمت نتيجتك .. او تأخرت خطبتها و ..

قاطعها باقتضاب شديد : عمله ؟

ــ مهما يكن عمله .. لن يكون فى نفس منصـــبك كوكيل للنيابة .. وصمتت برهة ثم قالت : مدرس .. دكتور فى كلية زراعة الزقازيق ..

ــ مدرســـها ؟

ــ نعـــم ..

ــ وماذا قالوا عندما علموا برغبتى فى خطبتها ؟

ــ لم يعرفوا اى شىء ..

ــ كيـــف ؟

ــ قبل أن اقول اى كلمة .. سبقت الحاجة صـــفية واخبرتنى بكل شىء تم امس فى الزقازيق .. وكانهـــا كانت تنتظـــرنى وتعلم ســـبب ذهابى اليهم ..

ــ معنى هذا انهم لم يعلموا باننى كنت أرغب فى الزواج من نسمة ؟

ــ لا لم يعلموا .. كنت على وشك ان أخبرهم .. لعله يكون هنـاك أمل .. والرجـــوع عن اتفاقهم مع الدكتور هذا .. ولكنى فضـــلت ان آخذ رايك أولا ..

ــ فعلت طيبا .. لا يجب أن يعلم أحد بذلك ..

فقالت الأم فى توسل واستعطاف وهى تنظر الى عينى وحيدها الزجاجيتين وقد بدأتا تغور وتختبئان داخل جفنيه واسفل جبهته التى صارت كالحة مع بقية ملامح وجهه : المهم يا بنى .. لا تحزن .. لا تغضب نفسك .. « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .. قد يكون الخير لك مع فتاة أخرى .. و ..

ولكنه لم يكن على استعداد لسماع أى عزاء او مواساة من أحد فى فجيعته .. ومأساته .. حتى ولو كانت أمه .. ولذا فقد توسل اليها حانقا متبرما : اتركينى وحدى ..

فاعترضت قائلة : ولكن يا بنى يجب أن ...

فقاطعها بحدة وانفعال أشد : من فضلك .. اتركينى وحدى ..

فلم تستطع معارضته .. فقامت متثاقلة ذبيحة .. وخرجت من حجرة نومه تنتزع عظام رجليها من الأرض انتزاعا .. ودخلت الى المطبخ ..وتركت نفسها التاعة المطعونة على سجيتها .. وتدفقت دموعها الحبيسة من خلف جفونها كأنها الشلالات .. بعد أن تجلدت ، وتماسكت .. وتكبدت فوق طاقتها .. منذ أن غمست الحاجة صفية خنجرها المسموم بين ضلوعها ، وكسرت نصله بداخلها .. وهتفت من بين دموعها : لنا الله ..

(الفصـــل الثانى عشر)

لم يبق أحد فى الكفر الا وزار الأستاذ جمال صفى الدين أكثر من مرة بعد ان شاع خبر مرضه .. حتى أصبح هذا البيت الذى كان يشع بالفرحة ، والسـعادة والأمل منذ أيام .. وكان داخلوه وخارجوه متوحشين بالبهجة والابتسامة والفرح .. شاربين الشربات .. مهنئين ومباركين .. تحول هذا البيت المضىء .. وخلال أيام قليلة الى بيت كئيب حزين .. توشـك رايات الموت السـوداء أن ترفرف فوقه .. وداخلـوه بين الذعاء والابتهـال .. وخارجوه بين البكاء وكفكفة الدموع الحزينـة .. وحسرة وندم على هـذا الشاب الذى لم يمهله القدر فرصـة ليفرح ويسـعد بنجاحه .. لقد عاش المسكين طوال عمره يترقب هذا اليوم .. ينجح بتفوق أولا .. ثم يتزوج بعد ذلك .. كما كان يقول اذا سـأله أحدهم لماذا لم يتزوج حتى الآن .. ولكنه لم يفرح بالنجاح الذى تمناه وحلم به الا ليوم واحد فقط .. وفى مساء اليوم التالى .. كان خبر حمى الأستاذ جمال قد شاع بسرعة .. وانتشر انتشار النار فى (البنزين) .. وخاصـة أن البيت كان مازال يؤمه النـاس للتهانى والتبريكات ..

ولم تجد النسوة صعوبة فى معرفة سـبب المرض .. انه الحسد .. المذكور فى القرآن .. وتتبارى كل واحدة منهن بابعاد أصـابع الاتهام عنها وذلك باتهام غيرها .. بالتلميح أو بالتصريح .. وتفضى بالسر الى جارتها بصوت خفيض : لقد رأيت فلانة بنفس ليلة نجاح الأستاذ وهى تحملق فيه كما لو كانت تريد أكله .. وهو يا عينى عليه غافل عن ذلك وكان مثل البدر ليلة تمامه ووجهه يوشـك أن يتفجر منه الدم شـبه أولاد الانجليز .. ربنا يشفيه كان مثل التفاحة ...

وترفع الأكف المتضرعة الى الله .. متوسلات بأن يشفيه ولا يضر أمه فيه .. وتنذرف الدموع مخلصات .. حزنا ، وكمداً ..

ولكن لم يكن يعرف السـبب الحقيقى للمرض غير ثلاثة فقط فى الكفر كله .. أما الرابع فكان لم يزل فى غيبوبة .. لا يفيق منها الا ليعـود اليها مرة ثانية .. وهو يهزى بكلمات لم يفهمها من حوله ـ .. أحدهم فقط هو الذى شك فى أمر معين .. ولكنه وقتها كان مشغولا عن التفكير فى تلك الكلمات المتناثرة وتجميعها ليكون منها جملة مفيـدة .. يسـتنبط منها سبب مرض الأستاذ .. هو الحاج سـعد .. الذى اثبت للكفر كله .. أنه رجل شـهم حقا .. فبمجرد علمه بمرض الأستاذ .. لم ينتظر لحظة واحدة .. بل ركب سيارته النصف نقل .. مسرعا بها الى فاقوس .. حيث الاطباء .. وما هى الا نصف ساعة .. وعاد ومعه الطبيب .. وبقى معه فى الحجرة .. وطلب من الناس الخروج بعيدا عن المريض .. بعد أن وجد هواء الحجرة صار خانقا من كثرة الأنفاس التى تتصـاعد حزينـة .. وشرع الطبيب يفحص جمال فحصا دقيقا من حرارة وضغط ، وصدر ، وبطن .. ثم كتب تذكرة دواء .. وطلب شراء الدواء حالا واعطاءه الحقن على وجه السرعة ..

وعلى الفور قام الحاج سعد بتوصيل الطبيب الى المدينـة وشراء كل الأدوية التى كتبهـا الطبيب فى تذكرة الدواء .. وعاد على وجه السرعة .. ولما كان التذكرة بها حقن .. كان من اللازم أن تأتى سـعدية أبنـة الحاج سعد .. والموجـودة فى بيت أبيها فى الكفر حاليا .. لأنه شـبة مطلقة من زوجها .. وتركت العمـل فى مستشفى القصر العينى بالقاهرة بعد أن عادت وأنهت عقدها من السـعودية .. ووجب عليهـا أن تعطى الأسـتاذ الحقن المقررة .. واكثر من هذا طلب الحاج سعد من ابنته سعدية البقاء مع الحاجة أم الأسـتاذ .. وتبيت معها فى سريرها ، حتى تتمكن من اعطاء الأسـتاذ الدواء كل أربع ساعات كما حدد له الطبيب ، والصيدلى فى الاجزخانة التى صرف منها الدواء .

وكان سعد فى كل ذلك مخلصا .. وانسـانى النزعة .. لا يطمع فى أى شىء .. ولا يبغى شيئا غير سـداد جزء من الجميل للأسـتاذ .. والوقوف بجوار هذا الشاب الغريب الذى يعيش بينهم دون أهل أو أقارب ، هو وأمه

العجوز .. التى لا حول لها ولا قوة .

ولكن هذا الموقف الانسانى لم يستوعبه أهل الكفر ولم يقبلوه .. ومن سعد الأقرع بالذات .. وسرعان ما تكاثرت الحكايات وانتشرت التكهنات .. وكان اكثرها انتشارا (أن سعد الأقرع يفعل هذا لكى يرمى للحمام حبا .. ويجر رجل الأستاذ لكى يزوجه سعدية بعد ان يطلقها من زوجها فرج أفندى .. واخرى تقول : ان سعدا هذا ثعلب وذكى وخبيث وأيضا يعرف من أين تؤكل الكتف .. أنه لا يفعل شيئا لوجه الله .. انه يفعل ذلك لأنه أدرك أن الأستاذ ربنا أكرمه وسيعمل وكيلا للنيابة .. فأراد أن يجامل الأستاذ الآن حتى يستفيد منه بعد ذلك .. ويستغل منصبه فى المستقبل فى انجاز أعماله ومصالحه التجارية .. وقول آخر يضيف — فى تهكم — وسخرية — أن سعد الأقرع يريد بهذا أن يجعل من نفســـه كبيرا من كبار الكفر .. واختلق هذا الموقف الشهم نكاية فى العمدة على وجه الخصوص .. واراد أن يضع العمدة فى الظل .. ويسلط الأضواء على نفسه هو .. فلقد كان من المألوف فى مثل هذه الأوقات العصيبة أن يكون العمدة فى مقدمة الجميع .. ســـواء أراد هو ذلك أم لم يرد .. لأن أهل الكفر اعتادوا ذلك .. فلا يجرؤ أى انسان كائنا من كان أن يقدم خدمة لمحتاج قبل حضرة العمدة — ليس خوفا — ولكن هكذا العرف سرى فى الكفر و كان أهل الكفر قد آلوا على أنفســـهم أن يكون هو السباق الى خير دائما .

ولكن الشىء الغريب أن العمدة قد تقاعس تماما فى هذه المصيبة .. وفى مرض حبيبه الأستاذ .. وكيف سمح بأن يكون ســـعد الأقرع هو الشـــهم الســـباق الى الخير واكتفى بالزيارات العادية فقط .. حقا ان الحزن والألم والتأثر غير خاف على أحد .. ولكن لم يكن فى يوم من الأيام طبع العمدة .. يقبع مكانه .. بينما ســـعد الأقرع .. يتقدم عليـــه .. يدخل ويخرج .. وصوته الجهورى يجلجل فى البيت .. آمرا ناهيا .. كأنه فرد من أهل البيت .. وكل يوم يحضر طبيبا من المدينـــة .. وكل يوم تذكرة دواء جديدة .. ويشدد فى أوامره بعدم التزاحم حول المريض بأمر الطبيب .. وأيضـــا عدم البكاء لأن ذلك فال سىء على الأستاذ ..وهو بخير ان شاء الله .. بل اكثرمن

ذلك ــ وكأنه يكيد العمدة ــ اعلن أمام الجميع وأقسم بشدة أنه سـيأخذ الأستاذ الى اكبر المستشفيات الخاصة بالقاهرة مهما تكلف .. اذا لم تأت نتيجة سريعة خلال أسبوع .

ويرى العمدة هذا بعينيه .. ويسـمع بأذنيه .. ولا يحرك ساكنا .. كما لو كانت يداه قد شلتا فجأة عن المشاركة والمعاونة فى أوقات الملمات .. مما أضفى على سـعد سعادة حقيقية .. وأعطاه دافعا أكبر وأقوى للتفان فى الوقوف بجانب الأستاذ .. أما ابنته سعدية فهى تحت قدمى الأسـتاذ دائما .. فهى ممرضة تعرف كيف تعطى الحقنة .. وفى موعدها .. وتعطى الدواء بطريقة صـحيحة ، وفى موعده .. ولكان جمـال كان يرعاها منذ أن كانت طفلة فى الصف السادس ، ويقترح على أبيها ادخالها مدرسة الممرضات فى القصر العينى فى القاهرة .. ليخفف عن أبيها مصروفات المدرسة .. لأنها ستأكل وتنام وتأخذ راتبا أثناء التعليم .. ولكان جمال كان يعدها لمثل هذا اليوم .. لأن الكفر كله لا يوجد به من يعطى حقنه غـيرها .. ولذلك كانوا يطلقون عليها مجاملة (الدكتور سعدية) .. لأنه اذا اضطرهم الأمر فى عدم وجود سعدية .. كان المرض يأتى على دراجته من قرية تبعد حوالى خمسة كيلو مترات حيث توجد أقرب وحدة صحية .. لذلك كان يحرص معظم اهل الكفـر اذا مـرض أحـدهم أن يطلب من الطبيب ويرجـوه الا يكتب له فى (الروشته) حقن .. اذا كان لها بديل من شراب أو كبسولات ..

ولم تكن سعدية وأبوها ــ من بيت الحاج سعد ــ فقط تحت أمر وفى خدمة الأستاذ وأمه .. بل ان أم سعدية زوجة الحاج سعد هى الأخرى .. وطوال النهار داخلـة حاملة صـينية الطعام لكى تأكل أم الأسـتاذ .. و (كسرولة) الشربة لكى تحاول سعدية مساعدة الأستاذ على تناول شىء من الحساء كما نصحه الأطباء ، او بعض العصـائر .. ولكن كانت فى كل مرة ترجع الصينية الى بيت الحاج سعد كما هى ولا ينقص منها اى شىء .. بل تعود كما ذهبت .. فلا الأستاذ يتناول الحساء .. ولا أمه المسكينة المكلومة لديها أية قابلية لابتـلاع حتى الماء الصـافى .. كانت غارقة حتى أذنيها فى

الحسرة والندم ، والأحـــزان .. والرعب على مصـــير وحيدها وحش شرس فاغرفاه يوشك أن يبتلعها ويهضمها فى أعماقه الرهيبة .. وهى لا تســتطيع أن تفعل أى شىء أكثر من ترديد كلمات حزينة مقتضـــبة .. ربنا كبير .. استر يارب .. خذ من عمرى واعطيه يارب .. والنساء من حولها متشحات بالسواد .. ولا يفرغ البيت منهن طوال النهار والليل .. وكانت بعضـــهن يسترعيهن تلك النظرات الحادة التى كانت تحدج بها أم جمـــال زوجة العمدة وهى تغمغم بجملة « منه الى الله من كان السبب » .. وتلك النظرات الحادة والتجهم الذى يتملكها وهى ترمق الحاجة صـــفية .. وبدأ يلفت نظرهن أن الحاجة صفية لم تعد تأتى للاطمئنان على صـــحة الأستاذ .. ثم زاد الأمر غرابة عندما سافر العمدة وزوجته وابنتهما نسمة الى الاسكندرية ..

وفى أثناء ذلك أشارت أكثر من امرأة .. ناصـــحة أم جمال — لوجه الله — بعمل زار .. مؤكدات بكل ثقة ويقين .. ومقسمات بكل عزيز وغال أن هذا الزار فيه الشفاء المؤكد — هو كلام جهل حقا . لكن فيه الشـــفاء .. وأوشكت أن تصـــدق أم جمال فهى على اســـتعداد أن تعمل أى شىء لشفاء وحيدها .. ولكن تتدخل زوجة الحاج سعد — التى لم تعد تفارق البيت — قائلة فى تسفيه لهذا الهراء وفى شموخ : لا يجوز للناس العقلاء أن تتكلم مثل هذا الكلام اليوم .. الزار والخرافات هذه قد ذهب زمانها من زمن .. العلم تقدم .. والطب تقدم .. قد يتأخر العـــلاج قليلا .. لكن النتيجة مضـــمونة باذن الله .. وسيشفى الأستاذ .. وسيعود أصبح مما كان .. الحاج سعد أطال الله فى عمره .. أحضر له أشـــهر الأطباء .. وكلهم اجمعـــوا على أن الأستاذ لا يعانى من مرض .. انه مجرد انفعال شديد مفاجىء .. بســـبب فرحته المفاجئة لنجاحه ..

لكزت واحدة منهن — لم يعجبها كلام زوجة سعد الأقرع — جارتها فى فخذها سائلة بتهكم : وهل الفرح الشديد أصبح يمرض فى هذه الأيام ؟

ولكن زوجة سعد لم تهتم بهن .. ولم تعط لتلك الطريقة فى ســـؤالها بالا .. ولكنها أضافت قائلة فى ثقة وصدق : بالطبع .. أن الفرح الشديد

المفاجىء مثل الحزن الشديد المفاجىء .. كلاهما يؤثر على أعصـــاب الانسان وصحته .. لقد أكدت ذلك بنتى الدكتورة سعدية .

وتغامزت النساء ساخرات من كلام زوجة سعد الأقرع مرددات فى خبث ومكر : جائز .. اليوم كل شىء جائز .. مادام العلم تقدم والطب تقدم !!

وكل هذا يحدث من حول الحاجة أم جمال .. وتعيش وسطاللمزات .. والهمزات .. واللكزات فى الأفخاذ والأرداف .. ولكنها لا تشــعر بشىء من ذلك كله .. فهى قد تشرنقت داخـــل عالمها الذى غزله الحزن .. ونســجه الخوف والزعر مما قد يصيب وحيدها .. انه الوحيـــد لها فى هذا العالم .. بعد الله .. لن يكون لها من يرعاها .. وكأن الله قد قدر عليها أن تكون هكذا فهى الابنة الوحيـــدة لأبوين قد ماتا بعد زواجها من أبى جمـــال مباشرة .. وزوجها المرحوم أبو جمال كان وحيد أبويه مثل جمال الذى لم تنجب سواه .. ثم تأتى صفية زوجة العمدة لتقتله لها .. تقتل آماله .. وأحلامه .. من أجل المال .. من أجل المائة فدان ومزارع الدواجن والمواشى ، وحديقة المانجو الأربعين فدانا .. ولا تلبث أن تطلق آهة ملتاعة .. تنطلق من جوف مستعر مضطرم .. فتحاول النسوة تذكيرها بالصبر .. وفوائده .. وأجر المؤمنين الصابرين عند الله .. وبأن ذلك امتحان لها من عند الله ليعرف مدى صبرها وقوة ايمانها .. ولابد أن تنجح فى الامتحان اذا كانت حقا تريد للأســـتاذ أن يشفى .. وهو بخير باذن الله ..

فتغمغم فى مرارة وأسى : انى صابرة لحكم الله ..

أما الشيخ مرزوق .. فلم يتخلف ليلة واحدة عن زيارة الأستاذ خـــلال مرضه .. فكان يأتى عقب كل صلاة عشاء من المسجد .. ومعه بعض المصلين من أهل الكفر .. ولا يطـــل الجلوس بأوامر الطبيب والتى يبلغهـــا لهم .. ويكررها على مسامعهم دائما الحاج سعد .. ويجلس بجوار الأستاذ للحظات معدودة على حافة السرير الذى يرقد عليه تائها غائبا عن الدنيا وكل من حوله .. ويأخذ فى الهمس والتمتمة بالآيات القرآنية .. ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ومن الحسد والحاسدين .. وكل ما يصيب الانسان من شر .. بينما

كفه المبسوطة المفرودة تمر فوق رأس الأستاذ وحتى نهاية قدمه .. ويظل هكذا حتى تتم رقية .. ثم يرفع الجميع أكف التضرع لله بالدعوات بالشفاء العاجل للأستاذ .. ثم قراءة الفاتحة زيادة فى شرف النبى محمد صلى الله عليه وسلم .. واذا تصادف .. وأفاق جمال فى حضوره بعد الرقية .. فانه يرفع عقيرته بسعادة .. وفرحة النصر .. كأنه هو اللى أحضر الشفاء للأستاذ .. هو بقراءة القرآن وليس أخوه الحاج سـعد بأطبائه الذين يحضرهم من المدينة .. ويصيح .. الحمد لله الحمد لله .. ألم أخبركم أن الأستاذ محسود .. والله العظيم محسود .. أنا فى ليلة النتيجة .. ليلة النجاح .. خفت عليه .. وذهبت الى بيتنا وأنا اتضرع الى الله أن يسترها مع هذا الرجل الطيب .. ويكفيه شر العين .. ألف حمـد لله على السـلامة يا أستاذ .. ويفرح الجميع .. ويكبرون وترتفع الأصـوات بحمد الله وشـكره .. وتتسـمع النسـاء الجالسـات فى الردهة فيتجمعن حـول باب الحجرة .. وتتعلقن بالباب متزاحمات .. وتزغرد احداهن من الفرحة صـائحات : سـلامتك يا أستاذ .. الحمد لله على سـلامتك يا طيب يا مؤدب يا ذوق ألف سـلامة يا أسـتاذ ..

ولكنه لا يلبث أن يعود الى حالة الغيبوبة مرة ثانية .. بعد أن يحملق فيهم بذهول .. ولكأنه تذكر شيئا مرعبا وأراد الهروب منه بعيدا بعيدا ..

(الفصــــل الثالث عشر)

قبل الأسبوع الذى حدده الحاج ســـعد للذهاب بالأستاذ الى أشـــهر الأطباء بالقاهرة اذا لم يتم شفاؤه ... كان الله قد من على جمال وأمه .. وبدأ يتماثل للشفاء .. وشرع يفيق ويميز من حوله .. ويرد التحية على من يعوده .. ويدرك كل شيء حوله .. ويبتسم ابتسامات باهتة واهنة للذين يسألون عن صحته .. وكان أكثر الناس سعادة ، وفرحا بعد أمه هو الحاج سعد .. وكأنه ربح صفقة العمر .. وهزم العمــدة فى أول معركة ومواجهة أمام الناس .. وان لم يكن محبوبا من الأكثرية .. الا أن أحدا لم يستطع انكار المجهود الواضح الذى قام به الحاج ســـعد أثناء مرض الأســـتاذ .. هو الوحيد فى الكفر بعد العمدة الذى يمتلك سيارة .. وان كانت سيارة سعد نصف نقل يستخدمها أساسا لبيع انتاج المزرعة من الدواجن .. أو لاحضار علف الدواجن من الزقازيق وأحيانا من القاهرة .. وكذلك احضار الكتاكيت الصغيرة .. لكنه فى هذا الظرف الذى تكاسل فيه العمــدة .. وانكمش .. تفرغ سعد تماما .. هو وسيارته .. وأهل بيته من أجل الأستاذ وامه .

أما جمال فقد بدأ يعى ما يدور من حوله تماما .. وأدرك ما حدث .. وشعر بالشفقة تجاه أمه .. ووخزه الاحساس بالذنب ناحية تلك المسكينة التى كبدها ما لا تطيق فى هذه السن .. فكان يرنو اليها بنظرات ذابلة مفعمة بالأســـف والاســـتعطاف .. حاملة فى طياتها بالحاح ورجاء طلب السماح والعفو عما سببه لها فى الأيام الخاليـــة .. وكانت هى تلحظ تلك النظـــرات وتحس بها جيداً من بين دموع فرحتها بشفائه .. فتشد على يده فى شـــوق .. حامدة الله على سلامته .. وكأنها تناديه من أعماق قلبها بتوسل عد الى أمك باقصى سرعة .. ولا بأس عليك ..

وبدأ الناس الذين كانوا يعودون جمالا يتناقصون شيئا فشيئا .. عندما بدأت الصحة والعافية تزحف الى نفسه وبدنه بصـــورة واضـــحة .. وتم

الاطمئنان عليه .. ولكن الحاج سـعد .. لم ينقطع .. واعتبر البيت بيته .. واصبح فمه الواسع يرى دائما مكدسا بالضحكات المجلجلة .. وتربعت على ملامح وجهه المتصلبة بعض علامات الارتياح والنصر .... وصار يردد على مسامع جمال بعض العبارات المبهمة .. ولم يحاول جمال فى أول الأمر أن يكلف نفسه عناء التفكير فى مغزى تلك العبارات .. فلقد همس فى أذنه مرة وهو يتماثل للشفاء حامدا الله على سلامته .. الحمد لله على السـلامة .. ولا تهتم (يابيه) كلها أيام فقط .. ويصبح مسمار نعلك أكثر قيمة من رأس العمدة نفسه ..

ورغم أن سعد قد كرر كلمات مشابهة فى مناسـبات مختلفة .. جعلت جمالا يسأل نفسه .. ماذا يقصد الحاج سعد بالضبط .. ؟ .. الا أنه على أية حال فان ذلك لم يكن ليشغله عن المشكلة الأساسية التى كانت تسـيطر على جمال بعد .. وهى كيف يمكنه أن يتخلص من هذه الصدمة نهائيا ؟ .. كيف يمكنه أن يعبرها بسلام ؟ ..

لقد قرأ كثيرا فى مختلف العلوم .. وخاصة علم النفس .. وكان يعرف أن فى مثل هذه الصدمات النفسية .. يكون أفضـل علاج لها ، هو اعتماد المريض على نفسه ، وارادته وعزيمته هو لمواجهة المشكلة .. وكذلك يجب عليه أن يحلل كل انفعالاته فى هدوء .. ويحاول استبطان الأسباب الحقيقية .. والتسامى بالآلام .. ويسمو فوقها .. ولا يجب أن يستغرق فيها وندب الحظ العاثر .. وتذكر عبارة (لشكسبير) تقول أن الافراط فى الاحساس هو ضعف فى الشخصية .. واسـتنكر جمال أن يكون هو كذلك .. بل شـعر بالقلق على ذاته .. وتساءل فى فزع : هل يمكن أن يكون قد انحدر الى هذا الدرك الأسفل من الضـعف .. هل يمكن أن تكـون تربية أبيه له قد خابت وفشـلت .. أبوه الذى كان دائما يردد على مسامعه كأنه يحفظـه ما يقول (الرجل الحقيقى لا تظهر رجولته الا عند السقوط فى مشكلة أو مأزق .. فاذا كان رجلا حقا فانه ينهض من كبوته أقـوى مما كان وأفضـل مما كان .. الرجل الحقيقى لا يجلس ويبكى مثل النسـاء اذا واجهته مشـكلة أو حتى

كارثة) .. وكم كان يصرخ فى وجهه مغتاظا اذا رجع اليه يبكى لأن اقرانه فى اللعب ضربوه أو آذوه .. وكان يوشك ان يلطمه على وجهه وهو يحذره بانه لو عاد باكيا منهم مرة ثانية .. فسوف يقطع رقبته .. وأن من يضربك يجب أن تضربه فى لحظتها .. حتى يخافوا منك ويعملوا لك الف حساب .. وكان يردد عليه بأن ابنه يجب أن يكون رجلا .. لا يخاف من أحد .. ولا يهزم أمام أحد .. وها هو الآن يهزم أمام أول صدمة عاطفية .. هو الذى كان يضرب به المثل فى قوة الشخصية ، والثقة بالنفس .. هو الذى تولى رئاسة اتحاد الطلبة لمعهد المعلمين بالزقازيق لمدة ثلاث سنوات .. وكان — وبفضل تشجيع والده — يعبر بشجاعة ادبية وجرأة عن زملائه من طلاب المعهد أمام الأستاذ عميد المعهد وكذلك الوكيل المعروف بشراســته وفظاظته وتعاليه عن الآخرين .. ولكن جمال كان يقف له وجها لوجه اذا تجاوز حدود واصــول التعامل الواجب بين الأستاذ وتلاميذه .. منبها له .. بأنه سـيضطر آسـفا الى الاتصال بالمحافظ شخصيا ورفع الشكوى اليه .. وقد سبق له ذلك مع وكيل سابق مثله .. وتم نقله وعقابه .. ولأن هــذا الصــنف من الناس يوارى جبنه بهذا الكبرياء المصطنع .. لذلك كان يسـتجيب له الوكيل وهو صاغر .. ويخرج جمــال من كل خلاف منتصرا .. واثقا من نفســه معتزا بقوة شخصيته وبالحصول على الحق لزملائه من طلبة المعهد .. حائزا فى نفس الوقت على اعجابهم وتاييدهم ..

هو الذى سيتسلم عمله كوكيل للنائب العام .. بعد أيام .. أو أسابيع .. وهى مهنة تحتاج أكثر من غيرها الى قوة الشخصية .. والثقة بالنفس والا كيف سيواجه الجريمة والمجرمين .. كيف سيقف أمام القاضى أو هيئة المحكمة .. ليترافع نيابة عن كل المجتمع طالبا توقيع اقصى العقوبة على هذا المجــرم الذى خولت له نفســه الآثمة الخبيثة ارتكاب تلك الجريمة فى حق الأبرياء من أفراد المجتمع ..

وتساءل فى احساس بالعار والخجل .. أهكذا .. يخر ويتهاوى .. يضعف ويستكين أمام أول انفعال شديد ؟ .. لمجرد صفعة حب فاشل ؟ .. يستسلم .. يلقى بكل أسلحته كأى جندى جبان .. فى حرب ..

وتذكرت حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .. هذا الحديث الذى كان يعلمه لتلاميذه حاثا لهم بشدة على ضرورة التمسك به .. (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ..) .. وكان يوضح للتلاميذ أن القوة المقصودة ليست القوة الجسدية فقط .. ولكن الأهم هى القوة النفسية .. قوة الشـــخصية .. والثقة بالنفس والثبات على المبدأ .. عدم الجـــزع والاضطراب فى مواجهة المفاجآت والمصائب .. وأفاق لنفسه مؤنبا وموبخا .. لماذا ابتعدت عن كتاب الله ؟ .. لماذا لا تلجأ اليه ؟ .. انه الشفاء الحقيقى للنفس البشرية المتعبة (ما فرطنا فى الكتـــاب من شئ ..) .. كيف غفـــل عن هـــذا ؟!!

ولذلك كان أول ما طلب من أمه وهـــو بعد قعيـــد سرير المرض .. أن تناوله القرآن الكريم من فوق مكتبـــه .. وناولته أمه له على التو .. وهى فرحة مستبشرة بقرب شفائه .. كأنها أعطته الجرعة الحقيقية للشفاء .. وراح جمال يتحسس كتاب الله فى سعادة .. وأمل وتفاؤل .. وقبله أكثر من مرة فى شـــوق وحب .. واحساس بالراحة .. قبـــل أن يفتحه .. وهمس لنفسه مؤكدا فى ايمان وصدق .. أن هذا القرآن .. هو العلاج الحقيقى لأى مشكلة تواجه الانســـان .. وبه ومعه .. يمكن أن يعبر الانســـان أية أزمة بســـلام ..

وبالفعل .. وبعد أيام قليلة .. سعد أهل الكفر كثيرا برؤية الأستاذ يعود الى الصلاة بينهم فى المسجد من جديد .. رغم أن جســـده قد أصـــابه الهزال الشديد بسبب الامتناع عن الطعام خلال فترة مرضه .. الا أنه كان يسترد صحته وعافيته وحيويته ..

وبدأت أمه تنتشى رضاء بذلك .. وشعرت بامتنان كبير لله الذى شملها بعطفه .. واستجاب لدعائها .. وشفى لها وحيدها .. وأدركت بأنه كان امتحانا صعبا .. لكن رحمة الله الواسعة أدركتهم .. وأن الأيام القادمة — باذن الله — ستكون أفضل من الأيام الماضية .. ولكنها فزعت عندما باغتها جمال بسؤال .. وهو لم يزل يخطو خطواته الأولى على طريق الشفاء : أحك

لى يا أمى .. بالتفصيل .. عما جرى بينك وبين الحاجة صفية .. يوم أن ذهبت اليهم للخطبة ..

وجفلت عدة مرات قبل أن تهتف مروعة .. وكأنها تدفع شرا جديدا .. يريد أن ينقض عليها وينتزع منها ابنها الذى عاد اليها بفضل دعائها الجريح الباكى : أية حكاية يا جمال ؟!! الم ننته من ذلك الموضوع ؟ .. ألم ننسه بعد ؟ .. ان الكلام فيه لن يفيد ولن يجدى .. ونحمد الله الذى جعلك تمر من الأزمة بسلام ..

وابتسم جمال وهدأ من روع أمه وفزعها الذى تدفق من عينيها : لا تخافى يا أمى .. لا تفزعى .. أنا والحمد لله .. لم أكد أكترث .. بهذا الموضوع مطلقا .. ولكن فقط أود أن أعرف شيئا معينا بالذات .. يهمنى معرفته واستنباطه .. أرجوك يا أمى .. احك لى الحكاية من الأول حتى آخرها ..

وتشرع أم جمال فى اعادة سرد القصة من جديد .. بينما كانت تتفرس فى ملامح ابنها .. وتهتف من أعماقها مبتهلة .. لله طالبة الستر .. ونظرات الشك والخوف تطل من عينيها .. تفضح توجسها وهلعها الداخلى متوسلة لأبنها فى صمت بأن يتماسك .

وجمال لا يهتز .. ولكن يتماسك .. بينما ينصت الى أمه وهى تقص كل شىء حدث فى بيت العمدة بالتفصيل .. بامعان وتركيز شديد .. كأنه يريد أن يمارس مهنة النيابة والتحقيق .. حتى قبل أن يتسلم عمله كوكيل للنيابة .. ولذلك لم يقتنع بسماع القصة مرة واحدة .. بل سمعها أكثر من مرة .. لدرجة الحفظ .. وفى كل مرة كان يقاطعها أحيانا .. مستوضحا عن بعض المواقف .. أو مستفسرا عن مدى ما تقصده أمه بالضبط من بعض الكلمات والتعبيرات ..

ـــ ولم تعرف الأم لماذا كذبت عليه .. عندما سألها اذا كانت قد صرحت أو لمحت للحاجة صفية برغبتهما فى الزواج من نسمة .. ليلة نجاحه عندما أتت الحاجة صفية مع زوجها من الزقازيق مباشرة للتهنئة كما ادعيا

.. ورغم أن الأم تذكر جيدا ما قالت للحاجة صفية عندما قدمت لها الشربات .. الا أنها أدعت أمام جمال بأنها لا تتذكر شيئا من ذلك ..

ولكن الذى كان يحير الأم حقا .. هو السبب الحقيقي وراء محاولات جمـــال تلك لمـــاذا يكرر ذلك دائما .. ؟ .. وماذا سيســـتفيد من ذلك ؟!! ولا تصل الى جواب شاف .. فتسلم أمرها لله قائلة : ربنا يستر .. ويكمل الشفاء على خير ..

(الفصـــل الرابـــع عشر)

لا احد ينكر ان ما قام به الحاج سعد .. أثناء مرض الأستاذ جمال ، ترك أثرا طيبا عميقا .. وعرفانا عظيما بالجميل فى نفس الأســـتاذ وأمه .. وخاصة أن أم جمال قد سردت على مسامع ولدها .. أكثر من مرة .. عن مقدار التعب والجهد الذى تكبده الحاج سعد .. من احضار الأطباء يوميا .. وجلب الدواء الذى يامرون به .. وكيف أن سعدية ظلت ساهرة .. لا يزور عينيها النوم طوال ليالى مرضه .. محافظة على اعطاء الدواء فى موعده .. رغم وجود المنبه .. الا أنها كانت تخاف أن يتعطل لسبب ما .. ولذلك كانت أم ســـعدية رفيقة لها ليل نهار .. والدموع لا تتوقف من عينيها .. وبناتها الصغار يقمن بنظافة البيت وغســـيل الملابس .. وكانت تكرر لجمال ابنها « ما فعله معنـــا الحاج ســـعد .. واسرته أكثر مما يفعله الأخ الشـــقيق لشقيقه » ..

وعندما اراد جمال أن يحاسب الحاج سعد على المبالغ التى أنفقها عليه خلال مرضه .. غارت الابتسامة من فوق أسنانه الصفراء الى بلعومه .. وانتفض مذعورا .. كأنه لسع .. وهب وقفا من جلسته فى بيت الأســـتاذ .. وصاح فى ألم المجروح .. وفى عتاب جاد : لقد ضربتنى فى قلبى يا أستاذ .. لوتكلمت فى هذا الأمر مرة ثانيـــة ســـتكون هى القطيعـــة بينى وبينك الى الأبد .

وعندما صاح جمال مندهشا من هذا التصرف متعجبا : ان هذا مستحيل .. ومستحيل أن يقبل هذا ابدا .. ويكفيك ما تكبدت من تعب .. وتعطيل مصالحك .. وأشغالك .. ولم يجد الحاج سعد وســـيلة قاطعة يوقف بها الكلام فى هذا الموضوع الا أن يحلف بالطلاق .. بأن لن يتبعه مليم واحد ، من جمال أو امه .. وموضحا بانفعال شـــديد وعتاب مر .. أن الذى قام به هو لا يزيد عن واحد من المليون .. من افضال جمال عليه وعلى أسرته كلها

.. منذ أن أتى الى الكفر .. وراح يجتر الذكرى .. ويذكر جمـال بأنه هو الذى تولى سعدية منذ أن وصل الى الكفر .. وكذلك بقية بناته .. بالعناية والرعاية .. وكان يعطيهن الدروس مجانا .. وكان يتصـدى لأى مشـكلة تواجههن أو تواجه سعد نفسه .. ثم انه هو الذى اشار عليه بتقديم أوراق سعدية الى مدرسة التمريض بالقصر العينى .. بل أكثر من ذلك هو الذى تحمل العبء كله .. وذهب معها الى القاهرة .. وقدم الأوراق لها ودفع من جيبه .. ورفض أن يأخذ منه اى قرش .. وبفضل الله ، وبفضل ذلك .. ربنا فتح عليها وعليهم جميعا وحصلت على عقد السعودية .. وظل يطرى على جمال حتى كمم فمه الخجل .. وسكت جمال لا يلوى على شئ .

ومع ذلك فقد عزم جمال بعد ذلك على رد الجميل الى الحاج سعد .. وكان اول شيء فكر فيه هو أن يحاول اصلاح ذات البين .. ويحسن العلاقات بين الحاج سعد وأخيه الشيخ مرزوق .. وكذلك مع بقية الناس الذين غضبوا من سعد .. فرجل بهذه الشهامة والمروءة ، والحب للغريب .. من باب أولى أن يكون بارا بأهله .. وخيركم خيركم لأهله .. ولابد للحاج سعد أن يكون كريما معهم ايضا .. ويكون البادىء بالسلام .. ويحاول اقناعه بالذهاب معه الى اخيه الشيخ مرزوق .. فهو لم يزل اخاه الأكبر .. والواجب يحتم عليه أن يذهب اليه .. ويعتذر اليه عما بدر منه فى لحظة غضب ..

عندما زار جمـال الحاج سـعد فى بيته .. واقترح عليه ذلك .. كان الحاج سعد يرنو اليه بحب شديد يلمع فى عينيه .. وكان يصيخ اليه السمع كأنه تلميذ مهذب ينصت الى أستاذه .. فى شوق واحترام كبير مما شـجع جمال على الاسترسـال والافاضـة فى أجر البادىء بالصـلح .. وكيف أن الرسول عليه الصلاة والسـلام يحض فى أحاديث كثيرة على ضرورة احترام الصغير للكبير .. ولو أن جمال تريث وسأل الحاج سعد عما تم بينه ، وبين أخيه الحاج مرزوق .. لوفر على نفسه عناء انتقاء الكلمات والألفاظ المناسبة لاقناع الحاج سعد بوجهة نظره التى جاء من أجلها متطوعا لوجه الله تعالى .. لأن الحاج سعد قال ـــ عندما انتهى جمال من كلامه : يعلم الله يا أسـتاذ

.. ان زيارتك هذه .. تساوى عندى كنوز الأرض .. أما بخصـوص أخى الشيخ مرزوق .. فلم يعد بينى وبينه أى خصام او قطيعة .. بل ان كل شىء من ذلك قد انتهى قبل أن يطلع نهار اليوم التالى .. حيث ذهبت اليه بنفسى .. بعد صلاة الفجر .. لأننى لم استـطع النوم ليلتها .. وأنا أسـترجع ما قلته له وقذفته به .. ومنظره البائس وهو يسمعنى غير مصدق ما يجرى .. ولكن .. فى الحقيقة ....

وتوقف للحظات . كأنه يسـتجمع فيها أحداثا معينة .. يقربهـا من عدسة ذاكرته المكبره .. وتغيرت ملامح وجهه .. واختفت الابتسامة المعتادة .. وبدأ يزحف على أسارير وجهه مظاهر التجهم والغضب .. ثم اردف فى أسى : فى الحقيقة لم يكن هو المقصود بذلك الكلام .. ولم تكن أنت أيضـا يا أستاذ .. وبالمناسبة .. أنا آسف جدا لك على ما بدر منى ليلتها .. فى الحقيقة لم اقصدك أنت .. ولم اكن اقصـد فى كل الموجودين غير واحد فقط .. وكان هو يعرف نفسه تماما .. وكان يتوارى فيكم .. كنت أقصد رجلا يتظاهر بالطيبة .. والشهامة والخير .. ولكنه فى الواقع والحقيقة هو كتلة من الحقد الأسـود .. تتدحرج على الأرض .. رجلا اعطاه الله الحقد لكى يوزعه على البشرية كلها .. فآثر به نفسـه .. رجل يسكن الحقد فى قلبه ويصوب عينيه صوبى .. وصوب كل انسان كان فقيرا وأعطاه الله بعد ذلك من رزقه .. لأى انسـان أغناه الله بعد عوز وفقر .. لأن أباه ترك له المال والأرض .. ولم يكلف نفسه اى عناء أو مشقة فى الحصول عليهم .. بل ولد فوجد كل شىء جاهز .. بيضـة مقشرة .. ولد ليجد نفسـه غنيا والآخرين فقراء .. هو السـيد والآخرين خدما فى حاجة اليه .. وهو لا يريد لعجلة الخير أن تدور .. لا يريد لرب الأرزاق أن يعط من فضله من يشاء .. يريد أن يظل هو وامثاله من الأغنياء أغنياء .. ونبقى نحن وامثالنا من الفقراء فقراء طوال حياتنا وحياته .. حتى نظـل راكعين لهم مادين أيدينا لهم مثل الكلاب .. وعندما أكرمنا الله .. واكرم سـعدية واشـتغلت فى السـعودية .. أرسلت لى الفلوس من هناك .. ووضعتها باسمها فى البنك فترة من الوقت

.. ثم فكرت فى استثمار هذه الأموال .. بدلا من بقائها راقدة فى البنك .. وعرضت الفكرة على سعدية .. فوافقت .. واشتريت كما تعلم الثلاثة أفدنة .. وفكرت فى مشروع مزرعة الدواجن — والحمد لله — رغم انى لم اتعلم فى مدارس .. الا أن الله أعطانى القدرة على الفهم والتعامل مع الناس .. قمت بزيارة لأكثر من مزرعة دواجن .. حتى توصلت الى افضل ، وارخص طريقة لبنائها .. واتفقت مع الدكتور أنور حسن الطبيب البيطرى ليشرف عليها ، ويطعمها .. قصدى يحصن الكتاكيت ضد الأمراض .. ولأن مال البنت حلال .. لأنها تعبت وشقيت من اجلهم فى الغربة .. ربنا بارك فيها .. وكان الانتاج والعائد كبيرا جدا والحمد لله .. فاشتريت النصف نقل .. لكى تخدم مزرعة الدواجن .. وبنيت البيت هذا من ارباح المزرعة .. وفكرت فى استثمار بعض الفلوس .. فى شراء الجرار الزراعى ولوازمه .. والمهم ربنا بارك لنا وزاد .. واردنا أن نحيا مثل بقية خلق الله .. اليس هذا من حقنا ؟ .. ولكن للأسف .. هذا لم يعجب الذى أحكى لك عنه .. نفسه الحاقدة استكثرت على سعد .. هو وبناته أن يسكنوا فى بيت من الحجر الأحمر .. وكيف لسعد أن يركب سيارة .. ولماذا يكون عنده مزرعة دواجن .. وارض .. وجرار زراعى .. صعب على نفس الأخ أن يرانى حرا من التبعية له .. لماذا لا اكون محتاجا ذليلا له طوال عمرى .. وقالها فى وجهى صراحة .. مدام سعد ركب عربية .. فقد قربت القيامة .. وامسك سعد عن استرساله فى الحديث .. يزدرد فيها لعابه .. ويرطب من حلقه الذى جف بسبب هذا الانفعال المتزايد .. لمجرد التذكر .. ومد يده الى علبة السجائر لكى يشعل سيجارة .. ولكنه تذكر أن الأستاذ لا يحب رائحة السجائر .. فسحب يده .. وتراجع عن الفكرة .. ثم استأنف يقول بنبرات صوت تنفجر بالاستهجان والاحتجاج .. بينما يداه تهتزان وتلوحان من فرط الانفعال : عندما يركب سعد ابو رزق سيارة .. تكون هذه علامة من علامات يوم القيامة .. ولكن اذا ركب هو على ظهورنا .. واذل أعناقنا .. فهذه لا تكون من علامات القيامة .. بالنسبة له ولأمثاله .. ولذلك فاض بى الكيل ليلتها .. لم استطع أن اتحمل واضغط على اعصابى اكثر من هذا

.. والا انفجرت .. لأن ليلتها .. ليلة الصلح .. وقبل أن يأتى ..

وتوقف سعد لحظة . صمت فيها .. ثم قال كأنه يفض بسر : العمدة ايوب .. هو الذى اتحدث عنه .. ليلتها .. وقبـــل أن يأتى الى بيتنا .. كان يسير مع فرج وابيه .. وسمعته ابنتى الصغيرة يقول لهما .. هو سعد الأقـــرع جاعل نفســـه (امبراطورا) .. لماذا ؟ .. لأن ابنتـــه خرجت الى الســـعودية كم ســـنة ، واحضرت له الفلوس .. هل نسى أيام زمان .. لا تعطوا له اية قيمة او اعتبار .. لأننى أعرف هذا الصـــنف من الناس جيدا .. تحترمه يعلو عليك .. لكن تضربه بالنعل يخر لك طائعا ..

ضع نفسك مكانى يا اســـتاذ جمال .. كيف تتصرف مع مثل هـــذا الرجل ؟ ..

وكان السؤال جاء مفاجئا لجمـــال .. فتلعثم ، وهو يلملم أى كلمات يمكن أن يقولها .. بعد أن اكتشـــف أن الذى غدر بهما رجل واحد : والله أنا عقلى .. لم يعد قادرا على استيعاب وتصديق أن كل هذا الكلام يصـــدر عن رجل نعتبره كلنا رجلا فاضلا و .. و

ولم ينتظر سعد الأستاذ كى يكمل كلامه .. ولكنه قاطعه بانفعال بالغ .. وغضب بركانى : كان من حقى ليلتها أن أضربه بالنعل الذى تكلم عنه .. لكنه للأســـف كان جالسا فى بيتى ونحن أناس تربينا على الواجب ومعرفة الأصول .. ومعه ناس أحترمهم وأقدرهم .. ولذلك سارت الأمور ليلتها كما رأيت .. الا انى خجلت من نفسى بعدها على ما بدر منى تجاهك وتجاهه .. تجاه اخى الشيخ مرزوق .. ولم أنم ليلتها .. وصارحت زوجتى ام سعدية بذلك .. وقبـــل أن يشرق الصـــباح ذهبت الى اخى .. وقصصت له عن الظروف التى جعلتنى أندفع فى وجهه ذلك الاندفاع .. وقبلت رأسه ورجوته أن يسامحنى .. وخجلت من مواجهتك .. وخاصة اننى اعرف أن حضرتك حساس جدا .. وأتذكر مرة حضرتك قلت لى فى سياق حديث عابر .. انك لا تقبل أن يخطىء فى حقك احد مهما كان .. لأنك لا تحب أن تخطىء فى أى مخلـــوق .. وقلت لأم ســـعدية تقابل الحاجة وتعتذر لها .. وكنت أود أن

احدثك عن ذلك بعد صلاة الجمعة التى خطبت فيها .. ولكننى قبل أن أقترب منك رأيت العمدة يتأبط زراعك خارجا معك .. فغضبت أكثر .. ولكن .. رغم كل ذلك فأن مكانتك ، ومنزلتك فى قلبى كبيرة جدا يا أستاذ .. ويشهد الله على ذلك ..

ورد عليه جمال شاكرا .. وقال فى غير اقتناع مدافعا عن العمدة بنبرة خلت من الاحساس بالصدق : ولكن الحاج أيوب العمدة رجل طيب .. وخيره على الجميع .. ولم نعرف عنه الغلط .. يا حاج سعد .. وقد تكون البنت نقلت اليك كلاما ليس صحيحا .. ولم يحدث على الاطلاق .. وربما كان يضحك معك عندما قال ان القيامة ستقوم لأنك ركبت السيارة .. و ..

ولم يمهله الحاج سعد كى يكمل .. بل قاطعه بحدة رافضا حسن النية هذا الذى يقول بها الأستاذ .. وموضحا بأنه لم يبن موقفه على مجرد الظنون أو اشياء غير مؤكدة .. ولكن كل كلمة قالها كان لها أساس من الصدق والحقيقة و ..

وصمت سعد برهة .. تغيرت فيها تعبيرات وجهه .. وتخلى عن نظرات ونبرات الحدة والانفعال الى نظرات عطف ورثاء صار يمسح بها وجه الأستاذ .. ثم همس قائلا كأنه يرجوه الا يخدع نفسه : استاذ جمال .. لا تحاول الدفاع عن هذا الرجل السىء .. وتنحنح قبل أن يواصل هامسا : هناك رجل واحد فقط فى الكفر كله .. يعرف أن العمدة .. هو السبب فى مرضك ..

وانتبه جمال .. مأخوذا بما فاجاه به سعد .. ودفت رموشه حول عينيه كأنه يتأكد مما سمع .. وراح يرمق سعد بنظرات سريعة مذهولة .. من هذا الرجل ؟ .. هل قرأ أفكارى .. هل يتجسس علينا أنا وأمى ؟ .. ان هذا الموضوع لا يعلمه أحد الا أنا وأمى فقط .. قد يكون العمدة وزوجته .. ولا أظن أن العمدة وزوجته سيكشفان مثل هذا الأمر .. وتذكر .. ثم ان أمى لم تقل لهما أى شىء عن حبى لنسمة .. أو عن رغبتى فى الزواج منها .. اذن كيف عرف هذا الرجل ؟ .. هل يخمن .. ويستغل ذكاءه الفطرى معى

.. ثم صاح فى وجه سعد مستغربا : وما علاقة العمدة بمرضى ؟ المرض كما عرفت وكما أخبرتنى .. بسبب الفرحة الشديدة والمفاجئة بالنجاح .. اية علاقة للعمدة بمرضى ؟ وبهدوء شديد نهض الحاج سعد الى المكتب الصـــغير الموجود فى ركن الحجرة .. وتناول من فوقه كتابا .. عندما قربه من جمال تبين أنه المصحف الشريف ..ووضع سعد يده فوق المصحف .. وأقسم عليه لجمال أن هذا الكلام الذى ســـيحكيه له .. لا ولم ولن يعرف به أو يعلم به احد غير جمال نفســـه .

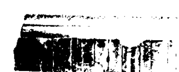
وبينما كان جمـــال لم يزل مشـــدوها لما يحـــدث أمامه .. والتوجس والخوف بدأ يزحف الى قلبه .. مخافة أن يكون هذا الرجل المعروف بالدهاء والخبث قد أدار الدفة ناحيته .. فهمس متلعثما ، وقد جف حلقه : وما هو هذا الشىء ؟

قال سعد بصوت خفيض .. حتى لا يسمعه أحد غيرهما : عندما كنت مريضا يا أســـتاذ . لا أعادها الله مرة ثانيـــة .. وفى اليوم الأول .. كنت مغميا عليك — لا تؤاخذنى — فى هذه الكلمة — تهزى .. وتردد اسم العمدة .. العمدة نسمة — نسمة .. وبالطبع كنت تلفظ بهما بطريقة غير واضـــحة .. وحمدت الله أن أحدا غيرى لم يتبينهما .. على الفور طلبت من الحاجة عدم دخول أى انسان عليك .. وانطلقت الى فاقوس وأحضرت الطبيب .. وأخبرنى الطبيب بأن ذلك بسبب .. صـــدمة عصبية عنيفة .. وكتب لك مهدئات سريعة .. وسألنى الطبيب عن نســـمة .. من هى ؟ .. وبالطبع تجاهلت .. وقلت لا يوجد فى الكفر هذا الاســـم .. ولكن بعد أن أوصـــلت الطبيب الى فاقوس .. وبينما أنا راجع .. دارت الأفكار والأسئلة فى ذهنى .. لماذا لم تقع الصدمة النفسية تلك الا اليوم فقط للأســـتاذ ؟ .. وما علاقة العمدة — ونسمة بهذه للصدمة ؟ .. ان الأستاذ يعيش فى الكفر معنا منذ مدة طويلة .. لماذا لم يحدث هذا الا اليوم فقط ؟ .. وسمعت الحاجة والدتك وهى تبكى وتنتحب حزنا عليك .. « حسبى الله ونعم الوكيل فى من كان السبب » .. وبعد لحظات ســـألتها بطريقـــة مباشرة وسريعة : هل ذهبت الى بيت العمدة اليوم يا حاجة ؟

فقالت وهى تندم وتبكى : ليتنى لم اذهب .. ليتنا لم نأت الى هـذا الكفر ابدا .. فهدأت من روعها .. وطمأنتها .. ولكننى قد استوعبت كل شيء .. وادركت أن الحاجة والدتك ذهبت لكى تخطب لك نسـمة .. ولكن العمدة بعنجهيته لم يوافق .. وادركت ايضا انك كنت تحبها حبا شديدا منذ زمن .. ولكنك كنت تنتظر حتى تحصل على اليسانس و ..

وسارع جمال مقاطعا اياه فى رفض وتكذيب وبحدة ؟ : لكنى لم اتقدم لخطبة نسمة .. وفى نفس الوقت لم يرفضونى .. ولكن ..

وأطرق للحظات .. ساد الصمت فيها أرجاء الحجرة .. ولم يشأ سعد أن يقطع هذا الصمت .. بل ترك للأستاذ الفرصـة لكى يرتب افكاره كما يشاء .. أو حتى يرتبه كذبه كما يشاء .. ثم قال جمال لسعد فى هدوء .. بعد أن احس تجاهه بشيء من الأمان ــ بعد حلفه على القرآن الكريم ــ مادمت قد حلفت على كتاب الله بحفظ السر .. سـأحكى لك كل شيء بصراحة .. والذى لم يعرفه احد غيرى أنا وأمى فقط ..



(الفصـــل الخامس عشر)

منذ ان ادرك جمال ان الوسيلة الناجحة والناجعة لعبور الأزمة العاطفية .. التى صادفته .. هى الارتماء بكل كيانه وحواســه فى محراب الدين .. واستشعر من أول وهلة مدى الراحة النفســية .. والســكينة التى سرت فى حناياه .. عنــدما شرع يفتح كتاب الله .. ويقرأ فيه بعض الآيات .. أخذ عهدا على نفسه بأن يتلو كل كتاب الله فى خــلال عشرة أيام .. بالاضــافة لقراءة بعض الكتب الدينية الأخرى ..

وبتلك الوســيلة ازداد قربا من الخالق عز وجــل .. وعندما ازداد جمال قربا من خالقه .. ازداد بعد نفســه عن التشــبث بملزات الدنيــا العارضة من مال .. وأولاد .. ومناصب .. وأى متع مادية فانية .. وحينما يشرق حب الله بضوئه السرمدى فى نفس الانســان المعتمة .. اشراقا كاملا .. ويضىء كل جوانبها .. فان أى عاطفة حب تجاه أى مخلوق .. تضمحل .. ويخبو ضوءها .. ويتلاشى .. كضوء الأقمار والنجوم البعيدة فى وجود الشمس .. وأحس جمال بمتعة نفسية عظيمة من خــلال ذلك .. وأحس أكثر بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكأنه يصور حالته (ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حــلاوة الايمان ، من كان الله ورســوله أحب اليــه مما سواهما ......) ..

وهتف جمال لنفسه مؤكدا : حقا .. اذا أحب المؤمن الله ورسوله حبا حقيقيا مخلصا .. فان ماعداهما من حب يتضاءل .. واذا ما هجر الانسان حب الشهوات ، والمتع العارضــة .. من حب امرأة .. أو حب الزواج منها .. أو حب المال .. أو المنصــب .. فلن يفلح أى مغر من مغريات الحيــاة الفانية أن تكون ســببا لحزنه أو ألمه .. وبالتالى لن يصاب أبدا بأبشــع امراض العصر والقلق النفسى .. والضغط والســكر .. تلك التى تنتج عن الخوف والفزع من عدم القدرة على تحقيق الرغبات .. أو من مظنة أو توقع

ضياعها أو فقدها ان كانت لديه .. لأنه سيصبح بالنسبة للمؤمن سيان عنده .. تحققت أم لم تتحقق .. وبقيت أم زالت .. لأنه يدرك ادراكا كاملا ويقينيا ان هذه الدنيا مجرد دار عبور ومرور لا دار استقرار وخلود .. هى مجرد فيلم (سينيمائى) له بداية وحتما له نهاية .. ومهما كانت النهاية .. فانها لا ريب آتية حتما .. سواء كانت سعيدة أم مأساوية حزينة .. الا أنه من المؤكد أنه لا خلود للانسان .. والعاقل من يجعل هذه الدنيا وسيلة الى الخلود الحقيقى فى الآخرة .. وينظر الى كل شىء فى هذه الدنيا على أنه صغير جدا .. وحقير جدا .. أصغر من أن يحبه الانسان .. واحقر من أن يحزن على ضياعه الانسان .. ولكن الشيطان الملعون .. الشيطان الملعون هو الذى يزين للناس حب الشهوات .. كى يلعب دوره المخطط له فى هذه الدنيا الفانية .. النفس الأمارة بالسوء .. تلعب دورها القذر لتشد صاحبها الى الدرك الأسفل من النار .. ولكن **العاقل** هو من يعرف الحب الحقيقى .. ويكتشف الحقيقة مبكرا .. وقبل فوات الأوان .. وينأى بنفسه عن مواطن الهلاك .. وملذات الدنيا الفانية .. الكاذبة .. من مناصب .. ونساء .. ومال .. لأن كل ذلك الى زوال ..

وحمدا لله لأنه لا رهبانية فى الاسلام .. والا كان قد خسر المجتمع الأستاذ جمال صفى الدين .. وما يمكن ان يعطيه للآخرين من أعمال طيبة وصالحة .. وفوائد كثيرة تساعد على استكمال مسيرة الحياة .. والا كان قد تقوقع داخل أى مكان للعبادة .. هاجرا الدنيا ومافيها .. مبتعدا عن الناس من حوله .. ومؤثرا لنفسه السلامة فقط .. غير عابىء بالآخرين .. لأن حياته بين الناس .. وتعامله مع بقية أفراد المجتمع بواقعهم كما هم .. بعيوبهم كما هى .. بسلوكهم الأزلى الثابت منذ الخليقة .. جعله شيئا فشيئا يهدىء من تحليقة فى سماء الشفافية والروحانية الرحبة .. ومع كل يوم كان يتنصل جمال من حالة الزهد تلك .. وبدأ يغادر تلك الفترة من حياته فى مستشفى التصوف المرحلى .. وشعر بأنه كان يمر فى الأيام الماضية بآلام تشبه آلام المخاض .. مقاساة .. ومعاناة .. وعذابا يشبه ذلك

الصرخات الملتاعة التى تطلقها المرأة عندما يهاجمها الطلق ولحظة الميلاد .. صرخات تشق عنان السماء .. وتهز قلوب محبيها .. وتتعلق بأى شىء حولها طالبة الخلاص ولو الى القبر .. وفى اللحظة الثانية عندما يرسل الله اليها الرحمة والفرج تنسى كل آلامها التى أصرختها منذ لحظة ومع سماعها لبكاء طفلها الذى برز منها توا .. يزداد تمسكها بالحياة وتشبسها بكل نفس فيها .. ويزداد احساسها أكثر من غيرها براحة الدنيا وجمالها .. بعد أن جربت أصعب ما فيها من معاناة وآلام .. هكذا احس جمال وهو يتملص برفق من تلك الاحزان التى استولت عليه عندما خطفت منه نسمة .. وعاد الى حياته العادية اليومية .. ولكن بعد ان استشعر بالكثير الكثير من القوة والعزم .. وايضا الحرية والحيادية .. والموضوعية فى التفكير .. أحس براحة كبيرة لأنه انتزع دفة حياته من يدى العمدة التى كان قد سلمها له من قبل عن طيب خاطر .. ولم يعد هناك شك فى ان الأستاذ جمال بدأ يعيد تفكيره من جديد .. وقد تخلى عن الكثير من المعتقدات والمعطيات السابقة .. لم يكن حديث الحاج سعد معه الا بداية للنظر بعمق العقل وتجرده الى سلوك الناس .. كل الناس .. وعلى وجه الخصوص الحاج أيوب مفتاح عمدة الكفر .. وتساءل جمال فى دهشة : أيعقل أننى كنت مخدوعا فيه طوال هذا العمر ؟ .. لقد أنزلته من نفسى منزلة الأب والأخ الاكبر .. هل ياترى كان يبادلنى نفس هذا الشعور من الحب والتقدير والاحترام ؟ .. أم كان يعتبرنى أى شىء من مكملات اطاره الاجتماعى ؟ .. هل كان قربى منه .. وتقربى اليه مجرد شىء يحقق له سعادة خاصة به .. تشعره بالراحة .. سعادة وراحة من تلك النوع التى يشعر بها السادة والملوك عندما يرون احتياج العبيد والرعية لنعمتهم وبركاتهم وعطائهم ..

وتجهم وجه جمال واكفهر .. واشاح بجبهة مرفوعة فى اباء وشموخ فى وجه هذه فكرة .. وهمس فى ندم خذلان .. كم كنت ساذجا .. أبله .. ولكنه استدرك مدافعا عن نفسه : لا .. لم أكن ساذجا ولا اهبل .. ولكن حبى لابنته .. هو الذى جعلنى انقاد اليه انقيادا أعمى ..

واستغرب جمال وهو يجتر ما سلف من عمره فى الكفر ، ومع عمدة الكفر .. واحس بالخزى والعار : كيف أعطيته الحق المطلق ليوجه دفة حياتى .. هكذا .. وكما يحلو له — .. كنت احلم ان اكون محاميا .. فسفه احلامى .. واحدا بعد آخر .. فاقتنعت واطعته .. زكى العمل فى النيابة العامة ، ورفع من شأنه .. فاقتنعت ، واطعته .. ولو كان جاء بعد ذلك وقلل من قيمة العمل فى النيابة .. لكنت وافقته .. وانا هكذا مسلوب الارادة .. والمشيئة .. كأننى منوم مغناطيسيا .. وربما جعلته — من خلال تبعيتى الكاملة له — يحس بأنى دمية فى يده .. يمسك بخيوطى .. يحركنى كيفما يشاء .. وأينما يشاء ..

وازداد شعور جمال بالعار والأسف اكثر .. وهمس لنفسه فى غيظ محبوس : وما أن مرضت .. حتى تركنى نهبا للمرض .. وفر هو ، واسرته للاستجمام والراحة والمتعة على شواطىء الاسكندرية .. لم يكذب الحاج سعد عندما قال (ان العمدة تركك مطعونا بخنجره .. وذهب هو واسرته ليصيف فى الاسكندرية) .. وها هم خمسة عشر يوما مضت منذ أن ذهب .. ولم يعد حتى الآن .. وعندما يرانى شيخ الخفراء يدعى بأن العمدة اتصل من الاسكندرية (بالتليفون) .. ليطمئن عليك .. وعلى صحتك و ...

وافاق جمال من شروده ، وهو جالس فى ردهة بيته .. على صوت طرقات بالعصى على الباب الخارجى .. وفورا وبرد فعل تلقائى زم شفتيه استهجانا ونفورا .. لأنه ادرك من الطارق .. لم يكن احد غير العمدة .. هو الوحيد الذى يطرق على الأبواب بالعصى التى يمسكها دائما .. تكملة للأناقة والعظمة .. وكأنه يصعب عليه ويترفع عن ان يلمس بيده الكريمة ابواب الناس الغلابة ..

فنهض من فوره .. وفتح الباب .. بعد أن تماسك تماما وستر عنه انفعاله .. واذ بالعمدة يفتح ذراعيه عن آخرهما بحركة تمثيلية .. مرحبا ومهنئا على السلامة والصحة والعافية .. وضم جمال الى صدره .. واحس جمال بمدى ابتذال هذا المشهد .. لم يعد يشعر بدفء وحرارة

واخلاص هذا الحضن .. أصبح يستشعر فيه الشوك الذى يوخز صدره الى حد الادماء .. رائحة أنفاسه تجعله يشـــعر بالغثيان .. ولكن .. مع ذلك .. لا بأس .. « أفعل كما يفعل الرومان » .. وبادله ترحابا بترحاب .. وأفسح له الطريق ليدخل الى حجرة الاستقبال .. وعرفت الحاجة أم جمال بمجيئـه بينما كانت تكمل طهو الطعام فى المطبخ .. فمطت شـــفتيها تعجبا واستهجانا هامســـة لنفسها : يقتلون القتيل ويمشـــون فى جنازته .. انها حقا بجاحة ..

وأخذ العمدة يقســـم ويحلف بالله والنبى .. انه لولا الأيام والظروف الصعبة جدا التى كانت تمر بها ابنته (عليه) فى الاسكندرية .. من مرض خطـــير .. لما تركتك وحدك هنا .. وســـافرت .. ولكن يعلم الله انى كنت موزعا نصفين .. هنا معك .. وهناك مع ابنتى .. وكان لزاما على كل يوم أتصل بالكفر (تليفونيا) .. لكى اطمئن على صحتك .. حتى طمأننى عليك شيخ الخفراء منذ أسبوع .. وعلق جمال على شفتيه ابتسامة .. ولم يتركها تسقط من على شفتيه وهو يستمع الى كلام العمـــدة .. بينما ملامح أخرى من اللامبالاة احتلت كل خلجات وملامح وجهه .. فلم يعد امام العمـــدة — كما كان — مثل عمود الزئبق فى (الترموميتر) سريع التأثر بحرارة كـــلامه المفتعل .. الكاذب ..

ورد عليه ببرود شديد : شكرا لك يا حضرة العمدة .. لقد كنت غائبا عنا .. لكن أنفاسك كانت معنا ..

ونظر العمدة الى وجه جمال مليا .. ثم أردف بوجه باش وكانه يحمد الله على العافية : لكن .. ماشاء الله .. ماشاء الله ..

صحتك الآن افضل بكثير .. لقد عدت الى حالتك الطبيعية ..

— الحمد لله .. والشكر لله .. ولكن كيف حال ابنة حضرتك الآن ؟

— الحمد لله .. لم نتركها الا بعد أن تماثلت للشـــفاء تماما .. أنت تعرف خلتك الحاجة صفية وحنانها الزائد على بناتها .. قررت وصـــممت الا نتركها الا بعد الشفاء الكامل .. لأن البنت المسكينة ليس معها احد يعتنى بها فى الغربة غير زوجهـــا .. وهـــو كان الله فى عونه .. عطل كل اعماله فى

الفترة الماضية بسبب مرضها .. ولكى يعتنى بالأولاد الصغار أيضا و ..

وتفرس جمال فى وجه العمدة .. كان يواصل حديثه .. فاذ به يلاحظ ان بشرة وجه العمدة قد حرقتها اشعة شمس الاسكندرية .. فزاد سـواده .. فسأله ولم تزل الابتسامة نفسها معلقة فوق شفتيه : يبدو أن الشمس على الشاطىء كانت ملتهبة جدا .. ولكى لا يترك للعمدة مجالا للكذب أكمـل قائلا : سمرة وجهك شديدة جدا ..

وكان الكلام قد باغت الحاج أيوب .. فتردد لحظات قبل أن يجد بعض الكلام الذى يرد به متتعتعا متململا : لا .. لقد .. احتوانا مرض علية كلية .. جعلنا ننسى كل شىء .. اطباء داخلين وأطباء خارجين .. وكل يوم دواء جديد .. وحقن جديدة .. وتأخرت نتيجة العلاج بعض الوقت .. مما زاد من قلقنا وافزعنا على البنت .. ولكن منذ يومين فقط .. عندما تماثلت للشفاء .. الحت علينا هى وزوجها .. وأولادهما .. وصمموا أن نخرج معهم الى البحر .. وبالطبع رفضنا .. ولكنهم حلفوا علينا وأقسموا قائلين : ليس من المعقول ان تكونوا فى الاسكندرية ولا تذهبوا الى الشـاطىء .. ولذلك خرجنا معهم مجاملة لهم .. وليوم واحد فقط .

واراد جمال أن يكذب العمدة موضحا له أن سواد وجهه الزائد وجلده المحروق هذا يفضح كذب ادعائه .. ولكن حياء جمال وادبه المتأصل فيه لم يزل ملازما له ومنعه من ذلك .. ولكن لم يمنعـه من أن يسأله : وهـل استمتعت بالبحر يا حضرة العمدة ؟ اجاب الحاج أيـوب فى حسرة وندم : استمتعت ؟!! .. وهل فى أيامنا هذه يمكن لأى انسان أن يستمتع بشىء ؟!! .. أن الفساد امتد لكل شىء فى حياتنا .. حتى المصايف .. من قبل ، ومنذ سنوات يا أستاذ جمال يابنى .. كان المصيف مكان راحة واستجمام حقيقى .. كنت ترى المياة النظيفة .. الهواء العليل .. الناس على الشاطىء عددهم محدود مما يشع جوا من الهدوء والراحة فى أرجاء المكان .. ولكن اليوم .. اختفى كل هذا .. المياه لم تعد نظيفـة كما كانت .. ولا تعرف هل السبب هو نفايات البواخر أم صرف المجارى .. هواء البحر نفسه لم يعد نظيفا هو

ايضا .. صــار مختلطا بروائح الطعام التى تملأ الشاطىء فكل واحد اليوم يذهب الى (البلاج) .. اى واحد .. سواء سباك .. أو نجار .. أو حداد ..كل الطبقات يغج بها الشاطىء ويمتلىء بها ..وبالطبع يذهبون اليه بكل ترفهم .. معهم حلل المحشى وصوانى البطاطس .. ورائحة الدهون والبصل والثوم النفاذة تعبق المكان كله .. وياليت هذا وفقط .. بل أصــبح من المألوف أن ترى واحدة منهن مادة رجلها مجلسة عليها صغيرها ليقضى حاجته على الرملة .. وتقوم بعد ذلك بدفنها فى الرمال .. ثم يأتى من يطأها بعد ذلك .. مناظر تثير القرف والاشمئزاز .. اكثر من هذا .. الغلاء الفاحش على الشواطىء .. لماذا .. لأن عدد الرواد كثر بصــورة مذهلة والسبب بالطبع السفر الى الخارج .. كل واحد يرجع ومعه كم الف جنيه .. أول شىء يتفوه به هو (الله يلعن أبا الفرش الذى لا ينزه صاحبه) وأول مكان يفكر ينزه نفسه فيه هو الاسكندرية وبالطبع يصــطحب معه (الفاميلية) الأسرة الكريمة أولاده العشرة وزوجته وأباه وأمه ..وربما أخوته .. ويريد أن يؤكد لنفسه ولهم انه كسر حاجز الفقر واصــبح من الطبقات الراقية فى المجتمع .. هؤلاء الناس .. يا أســتاذ جمال أفسدوا على المجتمع كل شىء جميل .. رفعوا سعر الأراضى سواء الزراعيــة أو اراضى البناء .. رفعوا الأسعار للمواد الغذائية .. سرقوا الراحة والاستقرار والهدوء والجمال من كل مكان حتى من شواطئنا .. و ..

تذكر جمال كلام الحاج سعد عند العمدة « الناس الأغنياء يصعب على نفســهم أن يروا الناس الغلابة مرتاحين » فقاطع العمدة بحدة وقد أثارته كلمة سرقوا الذى قال بها العمدة : وماذا يمنع يا حضرة العمدة اى انسان من الاستمتاع بكل مكان وكل شــبر فى بلده .. مادام قادرا على تكاليف ذلك .. لا يهم من أين جاء بالمال .. مادام المال حلالا ومشروعا .. واذا كان الله عز وجل .. مالك الأرض ومن عليها .. ساعدهم .. ووســع فى ارزاقهم .. ويسر لهم هذا .. فهل يحق لنا نحن العبيد الى الله أن نعترض على ذلك ..

اضـــطربت الكلمات بين شـــفتى العمدة لأول مرة وهو يكلم جمـــال شاخصا اليه ومحملقا .. وحاول اخفاء ما اعتراه من دهشة لتلك الطريقة الحادة التى لم يســـبق لجمال ان تكلم بها معه .. وقال مستدركا : لا .. انا لا اعترض .. ولكن .. كنت اود أن اقول .. ان ذلك يشوه صـــورة البلد .. يشوه صورة مصر فى عيون السائح الأجنبى .. ماذا يقـــول عنا الأجانب عندما يرون مثل هذه المناظر .. او عندما يصورونها .. وينشرونها على العالم أجمـــع .. ويفضـــحوننا فى الخارج ويقولـــون عنـــا اننـــا متخلفون .. و ..

وقاطعه جمال مستنكرا كل كلامه ولكن بحدة أكبر : الى متى سيظل اهتمامنا الأول موجها لما يقوله الأجانب عنا .. ومن اجل عيونهم الحاسدة لنا نحرم أبناء بلدنا من الاستمتاع بوطنهم .. وبالأمكنة الجميلة فيه .. الى متى سيظل ابن البلد محروما من الشواطىء فى بلده .. والأماكن الجميلة فى بلده ولا يراها الا فى (السينما) و (التلفزيون) والمجلات والصحف .. لا ياعمدة .. اعتقد انه قد حان الوقت لكى يستمتع كل مواطن بكل شبر فى بلده .. ولو تاملت يا حضرة العمدة .. ودققت النظر فى هؤلاء الذين قلت عنهم انهم يسرقون الراحة والهدوء والجمال من على شواطئنا .. لوجدت أن من بينهم من ظل فى الجيش تحت السلاح لأكثر من تسع سنوات على خط القتال يواجه مرارة وعذاب حرب الاستنزاف منتظرا الاستشهاد مع كل قصف سواء من البر او من الجو .. محروما من كل شىء حتى من أحب الناس اليه من أولاده وزوجته وأهله .. فى سبيل ماذا ؟ .. فى سبيل ان يحافظ على هذه الأرض .. على تلك الشواطىء طاهرة خالصـــة له او لأولاده من بعده .. قد نجد بينهم ايضا احد أبناء أو اخوة الشهداء فى حرب ٦٧ او ٧٣ .. لكى يحافظ على مصر حرة مستقلة عزيزة لمن بعدهم من أخوانهم وأولادهم .. وليس للسائح الأجنبى .. ولو ان أى واحد من هؤلاء الأبطال الذين ضحوا بكل شىء فى وقت العسرة والشدة .. ورد على باله ساعتها .. انه يدافع عن مصر من اجل أن يستمتع بها غيره وغير أولاده من أمثال السائحين الأجانب الذين تحكى عنهم .. فؤاكد لك انه لم يكن ليطلق طلقـــة واحدة من مدفعه

.. ثم بعد ذلك وبعد تلك المعاناة التى عاناها الناس الغلابة .. نأتى نحن ونحسدهم على بضــع لحظات استمتاع على شاطىء .. نتهمهم بالسرقة .. رغم أنهم هم الذين حموها وحفظوها لنا وردوا الأجزاء المغتصـــبة لمصر كلها من أيدى الغاصبين ..

لم يخف العمدة عدم ارتياحه لطريقة جمـــال فى النقاش معه .. اذ أن هذه ظاهرة جديدة فى اســـلوب جمال .. لم يســـبق له أبدا أن تحدث اليه بهذا الوجه الجامد الحجرى .. وهذا الصـــوت المرتفع .. وتلك النبرات الحادة وكأنها سكين يغرسها فى صدره .. ولذلك رأى العمدة أنه من الأفضل أن ينهى هو النقاش من جانبه بسلام .. فقال بابتسامة ممسوخة لا تحمل أى احســـاس بالصدق أو الاخـــلاص .. المهم .. أنت صـــحتك الآن أفضل بكثير .

ـــ الحمد لله والشكر لله ..

فتمتم العمدة وهو ينهض من مجلسه متكئاً على عصـــاه : وهذا هو المراد من رب العباد .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ونهض معه جمال .. وأوصله الى الباب .. وودعه .. ولكن ليس فى حرارة كما كان من قبل .. عندما كان هو وآلد نسمة .

((الفصـــل السادس عشر))

كان الأســـتاذ جمال يقف على جانب الطـريق الخارج من الكفر .. بجوار جزع شجرة التوت الضخمة .. التى يعتبرها أهل الكفر محطة لركوب المواصلات .. (لأن الســـيارات الأجرة التى تمر بالكفر — وهى قليلة — تهدىء من سرعتها عندما تقترب من تلك الشجرة على أمل أن تلتقط اى راكب من تحتها) .. وكان جمال ينتظر اى ســيارة تنقله الى فاقوس .. وبعد لحظات قليلة من الانتظار شاهد سيارة نصــف نقل قادمة من صوب الكفر .. مسرعة ومثــيرة خلفها الغبار والأتربة الكثيفة .. وادرك منذ الوهلة الأولى أنها سيارة الحاج سعد .. فسرى فى نفسه شعور بالارتياح .. لأن انتظاره لن يطول على الطريق كالعادة .. وسرعان ما وصــل اليه الحاج سعد .. واطلق عن بعد آلة التنبيه .. ثم اوقف السيارة بمحاذاة الأستاذ .. ومد يده فاتحا باب الســيارة ، والابتســامة العريضة تملأ وجهه .. واشار بيده الى الأســتاذ محييا ومستفسرا : الى أين — ان شاء الله — يا اســتاذ ؟

— فاقوس باذن الله ..

فلوح بيده فى ود طالبا منه الصعود : تفضل يا اســتاذ .. طريقنا واحد .. أنا ذاهب الى فاقوس أيضا ..

وبسرعة انتبه سعد الى سيجارته المشتعلة .. التى كان يمسكها بين اصــابع يده اليمنى .. فأخذ نفســا عميقا منها .. وكأنه يقبلها القبلة الأخــيرة .. قبل أن يلقيها بعيدا خارج الســيارة .. متحاشيا مضايقة الأستاذ من رائحة دخان السجائر .

وشعر جمال بالامتنان وهو يثب داخل الســيارة .. واغلق الباب بحرص شديد حتى لا يكسر الباب أو الزجاج .. ومد يده مصــافحا للحاج سعد .. بعد ان استقر واستوى على مقعد السيارة .. ونبهه الحاج سعد

فى ادب الى ان الباب لم يغلق جيدا بعد .. ورجاه أن يفتحه ويغلقـه مرة ثانية بشدة اكثر .. وبعد أن تأكد من غلق الباب تماما .. بدأ يسـتأنف السير مرة اخرى وهو يطلق آلة التنبيه لاثارة حمية أحد الخراف كان يقف فى عرض الطريق .. ويثير فزعه حتى يهرب من أمامه .. وتمهل وسـار بهدوء وحرص شديد .. حتى اجتازه .. ثم انطلق بسيارته وكأنه تأخر عن موعد .. ثم التفت بحركة سريعة الى الأستاذ قائلا : خيرا أن شاء الله يا استاذ ؟ لماذا تذهب الى فاقوس اليوم ؟

فرد جمال ومازالت ابتسامة الامتنان على شفتيه : ذاهب لزيارة أحد أصـدقائى .. هو طالب زميلنا .. منتظم فى كلية حقـوق القهرة .. هو اصـغر منى فى السـن .. من معر تلاميذنا .. ناجح هذا العلم معى .. وحصل على تقدير جيد جدا .. وباذن الله سـيتم تعيينه فى النيابة العامة ايضـا .. وكنت اود ان اسـتعلم منه عن أشـياء كثـيرة مثل الأوراق والمسوغات المطلوبة والشهادات .. لكى نجهز أنفسنا حالما ترسـل الينا خطابات الترشـيح من النيابة العامة .. لأن ظـروف مرضى منعتنى طـوال الفتـرة الماضـية من النزول الى فاقوس .. هـذه أول مرة أنزل اليهـا بعد مرضى .

ــ ربنا يعطيك الصحة يا اسـتاذ .. ويتم على خير .. ويحقق لك كل أحلامك وآمالك آمين يارب .. أنت ابن حلال وطيب وتستاهل كل خير .. وان شاء الله نراك وأنت فى منصب النائب العام نفسه .

فضحك جمال وقال فى تواضع : النائب العام مرة واحدة ؟

ــ وهو النائب العام يزيد عنك فى شىء ؟ .. شـهادته مثل شهادتك .. فقط السن والخبرة .. والأيام كفيلة بتحقيق ذلك .

وصمت لحظة عن الكلام ثم قال كأنه تذكر شيئا : لقد وصـل العمدة .. هل عرفت ؟

ــ نعم .. ولقد زارنى فى بيتى يوم أن وصل .

ولفت نظره فى خبث : هل لاحظت ؟ .. وجهه محروق .. من شمس الشاطىء ..

ــ يقــول انه لم يذهب الا يوما واحدا .. لأن ابنته عليــة كانت مريضــة جدا .

ــ وهل صدقته يا أستاذ ؟ .. ارايت صحة كلامى ؟ .. كيف أنه هرب من الواجب نحوك .. وذهب هو وأسرته ليستمتعوا فى الاسكندرية .

ــ يا اخى .. هو حر فى حياته .. ولكن ــ خيرا ان شاء الله ؟ .. لماذا تذهب الى فاقوس اليوم ؟

فابتسم سعد وقد ادرك ان الأستاذ لم يعد يحب سيرة العمــدة .. فقال : ذاهب لاحضــار المهنــدس المختص من مجلس المدينة .. لكى يعاين مكان المصنع على الطبيعة .

ــ مصنع ؟ .. اى مصنع ؟

فاستدرك سعد وقد ازدادت ابتسامته انفراجا : حقا .. لم أخبرك عنه من قبل .. لقد فكرت فى بناء مصنع للطوب الأحمر فى الكفر ..

فصاح جمال فى فرح صــادق : ألف مبروك .. ألف مبروك يا حاج .. انت تستاهل كل خير .. انت رجل نشيط ومكافح وهذا هو المفروض فى أى انسان .. يسعى الى رزقه ولا ينام ويطلب من الله المزيد ..

واردف ســعد يقول وهو لم يزل مركزا على الطــريق ببصره .. ممسكا بعجلة القيادة فى حرص : لقد درست الموضوع أولا .. فوجدت أن المواد الأولية اللازمة كلها للصناعة متوفرة .. التراب والتبن وما الى ذلك .. والمكان موجود .. واهم من ذلك كله الفلــوس ــ الحمد لله موجودة .. وقمت بزيارة الى اكثر من مصــنع للطوب الأحمر فى مدينة زفتى وميت غمر .. وتأكدت أولا من مقدار الربح الذى يدره ..وكذلك لاحظت ان المنطقة هنا فى حاجة ماسة الى انتاجه ..والناس هناك عرضوا على المساعدة بالراى والخبرة والعمال .. وبالفعل طلبت من المهندس تخطيط الرسوم اللازمة لانشاء المصنع .. وقدمته للحصول على الرخصة .. ولقد حدد اليوم موعدا لمعاينة المكان .. سياتى المهندس لكى يرى مكان المصــنع .. وهل هو بعيد عن المبانى أو قريب .. ويتحقق من انطباق كافة الشروط الأخرى .. ولقد اشتريت منذ اسبوعين فدانا .. يبعد عن الكفر قليلا .. سأقيم عليه المصنع .. وربنا

يسهل لنا الأمور .. هكذا الحياة يا أســتاذ لابد من المغامرة .. والتوفيق من الله ..

— ولكن .. هل درست الموضوع دراسة جيدة يا حاج ؟

— بالطبع يا أستاذ .. بالاضافة الى الدراســة فان روح المغامرة يجب أن تسود فى مجال التجارة والأعمال .. لأن الخوف من الفشــل يوقع فى الفشل .. فلابد للانســان أن يعقلها ويتوكل .. كما يقــول الرســول صلى الله عليه وسلم .

فهز جمـــال راســه موافقا ودعا له فى اخــلاص : ربنا يوفقك .. ويتم على خير ..

— آمين يارب .. قاصدين الله .. وايضــا كتبت عقد ايجار مخزن كبير فى فاقوس .. لكى أديره كمســتودع ومخزن لبيع مواد البناء .. من أسمنت أو جبس وخلافه .. ولقد قدمت طلبا للحصول على (تليفون) .. فى الحقيقة على (تليفونين) .. واحد منهم للمصنع .. والثانى للمستودع بفاقوس .. وعلى الله التساهيل .

— ربنا ينجح مقاصدك يا حاج .. أنت جدير بكل الخير ..

— آمين يارب .. الله يعلم يا أستاذ .. أنا أتعب واكافح دائما .. لا أنام .. ليس من اجــل نفسى .. ولكن من أجل أسرتى .. اسرتى كما تعلم يا أستاذ عددها كبير .. وكلهن بنات .. خمس بنات .. وأنا — فى الحقيقة — ارجع كل هذا الخير وهذه النعمة التى أعطاها الله لنا انما هى رزق البنات .. ونحن نأكل بجوارهم ..

واستدرك جمال مستفسرا : لكن ياحاج .. العمل بهذه الصورة .. الن يكون متسعا عليك ، ومتشعبا الى حد ما ؟ ستضطر الى توزيع جهــدك على أكثر من مكان بين الكفر وفاقوس فقاطعــه ســعد موضــحا ومطمئنا الأستاذ .. وهو لم يزل يتطلع أمامه لتجوز الســيارة التى امامه : أنا فى الحقيقة يا أستاذ .. رتبت كل شىء .. واتفقت مع أخى الشــيخ مرزوق على أن يتولى هو ادارة المستودع فى فاقوس .. فقط يجلس فيه للملاحظة

.. ملاحظة العمل وسيكون معه عامل او اثنان لانجاز العمل داخل المستودع .. من تحميل .. وتنزيل وخلافه .. ومرزوق فقط للبيع واستلام الفلوس .. لأنى لن اجد من هو آمن منه على مالى .. واتفرغ انا للمصنع ومزرعة الدواجن فى الكفر .. وبالطبع سآتى الى فاقوس مرة او اثنين فى اليوم لكى احضر الشيخ مرزوق واعيده والاحظ سير العمل .

ـ على بركة الله .. ربنا معك .

ـ آمين يارب .. ودعواتك لنا يا استاذ انت رجل طيب .. وامثالك دعواتهم مستجابة عند الله .

ولم يستطع جمال ان يمنع نفسه من سؤال يلح عليه منذ فترة .. .. ولكنه احس بالحرج وهو يقول للحاج سعد : لكن .. موضوع .. سعدية .. ماذا تم فيه ؟

ـ فى الحقيقة .. حتى الآن لم يتم اى شىء .. ولكنى اتفقت مع الأستاذ ممدوح فراج المحامى على أن يرفع دعوى لطلب الطلاق بسبب الضرر .. وأنا وسعدية مصممان على ذلك .. ولذلك هو يحاول عمل اتصالات ودية أولا مع الولد واهله .. حتى يطلق بدون محاكم او مشاكل اولا .. وكلام بينى وبينك يا استاذ .. اتفقت مع المحامى أن يعرض على الولد مبلغ خمسة آلاف جنيه مقابل اطلاق حرية بنتى .

ـ لكن ياحاج .. لا تؤاخذنى .. أنت تعرف أن ابغض الحلال الى الله هو الطلاق .. الا يوجد حل آخر خلاف ذلك ؟

ـ صحيح يا استاذ .. ولكن احيانا .. يكون الطلاق هو الحل الوحيد والعلاج الأكيد لكثير من المشاكل (وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما) .

ـ صدق الله العظيم .. لكن الهذه الدرجة .. تلك المشكلة ليس لها حل ؟ من اجل خاطر الطفلة الصغيرة .

ـ الحقيقة يا استاذ .. انت اخ وغالى علينا .. ولا نخبىء عنك اى شىء .. ولكن هذا السبب حساس وخاص جدا .. لا يعرفه الا انا

وسعدية .. حتى أم سعدية نفسها لا تعرفه .. هو سبب خاص جدا .. بين الرجل وزوجته .. ولكن أقدر أقول لحضرتك أن الولد يريد أن يفعل شيئا حرمه الله .

طاطأ جمال رأسه فى استحياء زاما شفتيه فى اشمئزاز واستهجان ، ولكأنه فهم ما يريد أن يقوله الحاج سعد وغمغم مستنكرا : أعوذ بالله .. أعوذ بالله .. حقا البيوت أسرار .

وانتبه جمال فوجد أن السيارة تشق به زحام الطريق داخل شوارع فاقوس الغاصة بالمارة .. ووجد نفسه يقترب من منزل صديقه أشرف .. فابتسم وهو يشير بيده الى الحاج سعد قائلا : عند دورا الساعة .. من فضلك ياحاج .

— مع السلامة يا أستاذ .. سأصطحب المهندس أولا الى الكفر ثم أعود به الى فاقوس .. قد يستغرق هذا ساعة ونصف أو ساعتين .. هل تكون قد أنهيت كل مصالحك فى فاقوس لترجع معى ؟

— ربما .. ولكن لا تشغل نفسك بى ياحاج .

— كيف يا أستاذ ؟ .. على أى حال .. بعد ساعتين .. سأمر عليك فى هذا المكان فى دوار الساعة .. اتفقنا ؟

أجابه جمال مبتسما ممتنا وهو يهبط من السيارة فى دوار الساعة .. أن شاء الله .. اتفقنا .

ولوح بيده مودعا قائلا : مع السلامة ياحاج .

(الفصـــل السابع عشر)

عندما ضغط جمال باصبعه على زر جرس باب شقة صـــديقه اشرف .. لم تصل الى مسامعه استجابة فورية .. توجس خيفة .. من ألا يكون هناك احد موجودا بالشقة .. وبذا يكون مشـــواره من الكفر الى فاقوس قد ضاع عليه بلا فائدة أو جدوى .. ولن يجنى منه غير التعب .. فليست المواصلات متوافرة دائما وفى كل وقت .. والصدفة الطيبة التى يسرت له سيارة الحاج سعد اليوم .. لا يضمن أن تتكرر مرة ثانيـــة .. وكان بوده أن يقابل أشرف ليبارك له بمناسبة نجاحه .. ويناقش معه بعض الأمور التى تهمهما معا .. فلاشك ان لديه معلومات كافية عن النيابة العامة .. وقد يكون وصله خطاب الترشيح للعمل فى النيابة .. وأحس جمال بالتوتر .. فضغط بعصبية على زر الجرس مرة اخـــيرة .. وما أن رفع يده حتى انفرج الباب عن أشرف .. مرتديا (بيجامة) النوم .. ولم يزل شعره غير مصفف .. وكانت كل هيئته تؤكد أنه أيقظ من نومه توا وقسرا .. ووقف امامه للحظة .. حملق بامعان فى جمال وهو يتثاءب .

وسادت لحظة كان يبتسم فيها جمال لمنظر أشرف الذى ايقظ من النوم توا .. وشرد كأنه يتذكر صاحب هذا الوجه والجسد النحيلين الذى ينتصب بالباب مبتسما وكأنه صديق أو قريب .. ولم يشأ جمال أن تطول الحيرة أكثر من ذلك فصـــاح قائلا ومبادرا بالســـلام : الســـلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أستاذ أشرف .. كيف حالك ؟ مبروك النجاح الباهر .. ياحضرة وكيل النيابة العظيم ..

وأخـــذ اشرف من المفاجاة .. فتهلل وجهه من الفرح وهو يصـــيح غير مصدق : من الأستاذ جمال ؟ !! أهلا وسهلا ..

ومد يده مصافحا فى حرارة وشوق .. ثم جذبه من يده مفسحا له الباب .. واجتاز به الطرقة الصغيرة الموصلة الى حجرة الاســـتقبال التى

يعرف جمال كل ركن فيها كما يعرف كل ركن فى بيته .. واشار اشرف بيده الى مقعد مريح ليتفضـــل جمال بالجلوس عليه وهو يكرر كلمات الترحيب المخلصة والمفعمة بالشوق والحب الحقيقى سائلا : كيف حالك يا أســـتاذ جمال ؟ .. لقد انتظرتك .. وتوقعت أن تأتى فى اليوم التالى أو الثالث على الأكثر .. ولكنك لم تأت ؟ .. كان بودى ان آتى أنا اليك لكى ابارك على تلك النتيجـــة المشرفة .. ولكن أنت تعرف أن المواصـــلات اليكم فى الكفر صعبة جدا .. ومازلت اذكر ذلك اليـــوم الذى ذهبت اليك فيه منذ عامين .. ذلك اليوم الذى زرتك فيه فى عطلة نصـــف العام .. لقد تعذبت فيه عذابا شديدا .. على اى حال كما يقولون « الهنا بعد سنه » الف الف مبروك .. أنت الأول على المنتســـبين ؟ .. والله العظيم أنت نموذج مشرف لكفـــاح الشباب .. موظف .. وبجانب تعب ومسئوليات الوظيفة فانك تحصـــل على ليســـانس الحقـــوق وبترتيب .. وبتفـــوق .. ماشـــاء الله شىء مشرف حقا ..

وابتسم جمال فى سعادة وهو يرد عليـــه : بارك الله لنا فيك يا أخ أشرف .. هذا بفضل توفيق الله وبفضل مساعدتك المخلصة جدا لى ..

قاطعه أشرف بخجل لهذا الاطراء : عفو ايا أستاذ .. أنا لم اقم بغير الواجب .. ولكن .. جـــدك واجتهادك ومثابرتك هو الأســـاس الحقيقى الذى أوصـــلك الى هذا النجاح .. وانت جدير — حقيقة — بكل خير .. ولكـــن ؟

وأمسك عن الكلام برهة .. بينما كانت عيناه تتفرسان فى وجهه .. ان عينيه غائرتان .. وكذلك وجنتيه قد برز عظامها .. وخف البريق من عينيه اللتين أصابهما الذبول .. وجسده الذى كان مفرودا ممتلئا .. صار الآن نحيفا جدا .. لقد تحول الى هيكل عظمى وهمس مستغربا كأنه يرثى لحاله هذا : لكن .. ما هذا ؟ .. لقد اصبحت رشيقا جدا ..

(وضحك جمال قائلا : تريد أن تقول هزيلا جدا ..)

فاعترض أشرف قائلا : لا يا اســـتاذ .. لم أقصـــد هذا .. ولكن ..

بصراحة .. لو لم تبادرنى بالكلام والتحيــة .. لما أمكننى التعرف عليك بسهولة .. خيرا .. هل تزوجت ؟!!

وانفجر الاثنان على اثر هذه الكلمة فى الضــحك .. وقاطعه جمال قائلا : وهل من المعقول أن أتزوج دون ان ادعــوك لتحضر فرحى .. انت اخ وصــديق مخلص جدا يا اســتاذ اشرف .. ونادر وجــود أمثالك فى هذه الأيام .

شكره أشرف على هذا المديح .. ونهض مستأذنا منه قائلا : بعد اذنك دقائق فقط .. سأدخل الحمام .

فقال جمال مبديا أسفه واعتذاره : ارجو المعــذرة .. لقد بكرت فى الحضور اليك اليوم .. وأيقظتك من نومك وســببت لكم ازعاجا .. ولكنها الظروف .. كنت أضع فى اعتبارى أننى سأنتظر ــ كالعادة ــ ساعة أو اكثر على الطريق فى الكفر حتى تأتى سيارة .. ولكن الصــدفة بعثت الى سيارة على الفور .. مرة ثانية أنا آسف .

فعقب اشرف معترضــا : لا .. لا يا أســتاذ .. البيت بيتك .. وحضرتك تأتى فى اى وقت .. انا الذى تأخــرت فى النــوم .. لقد ســهرت أمس أمام التلفزيون .. أبدا البيت بيتك ..

وتركه اشرف ودلف داخل الشقة .. وبقى جمــال وحيدا فى حجرة الاستقبال .. يتأمل جدرانها واللوحات الزيتية والآيات القرآنية المعلقة على تلك الجدران .. واسترجع تلك المواقف الرجولية التى وقفها أشرف بجواره .. خلال سنوات الدراسة الأربع .. رغم صــغر سنه .. فهو لم يتجاوز الواحد والعشرين من عمره بعد .. ولكن منذ أن تعرف به فى نصــف العام الأخير وهما بعد فى السنة الأولى من الدراسة فى الجامعة .. وهو مثــال للأخلاص ونظافة الضمير والعطاء والكرم الأصيل .. فكان يشــترى الكتب ويحجزها له أولا بأول وقبل أن تنفــذ الطبعات .. ويحفظها لجمــال .. وعندما يذهب اليه فى حجرته بالمدينة الجامعية .. يرحب به ترحابا كبيرا .. ويمده بكل ما يلزمه من الكتب والموضوعات الهامة التى اشار الأساتذة الى

أهميتها .. واحمتال أن تأتى عليها اى أسئلة .. وكذلك بعض الموضوعات غير الهامة والتى حذفها الدكتــور من كتابه المقرر .. وكان عندما يأتى أشرف الى بيته هذا فى فاقوس فى العطــلات والاجازات فانه يتصــل بجمال .. ويحضر جمال ويجلس فى هذه الحجرة التى لم تتغير .. واحيانا كان الكلام بينهما لا ينتهى ويحل عليهم موعد الغداء ويصمم أشرف ويقسم على ضرورة تناول الغداء معه .. وكثيرا ما تناول جمال معه الطعام .. واذا كان هناك بعض الموضوعات الجافة التى استغلق فهمها على جمــال .. كان لا يجد حرجا فى الاستفســـار عنها من أشرف فقد يكون الدكتور قد شرحها لهم فى المحاضرة بطريقة أفضل من تلك التى شرحها فى الكتـاب .. والذى كان يزيد من اعجاب جمال واحترامه لأشرف هو أنه فى اثنــاء كل هذا العطاء الذى يقدمه الى جمال كان يقدمه له بطيب خاطر وبتواضع شـــديد جدا وبكامل تلقائيته بحيث لم يشــعر جمال ولو لمرة واحـــدة أن أشرف يتجمل عليه او يتضجر منه .. بل كان يمده بكل شيء بسماحة مطلقة وادب جم مراعيا فى كل الحالات فارق السن بينه وبين جمال وكان يتعامل معه كأنه أخوه الأكبر .. وكان جمـــال يحس دائما باعجابه العظيم بقصـــة كفاحه وذكائه وكأنه كان يتمنى لو كان مثله .. وهمس جمال وهو يهز رأسه هزات عمودية .. كانت معاناة حقيقية .. لكن .. الحمد لله .. ألف حمد وألف شكر لله .

وبعد قليل أقبل أشرف مبتسما — وقد عدل من هندامه ورتب شعره — وحاملا بين يديه صينية .. موضوع عليها الشاى وصحن من السندوتشات .. ووضـــعها على المنضـــدة بينه وبين جمـــال قائلا وهو يشـــير بيده الى السندوتشات : تفضل يا أستاذ جمال .. تناول معى طعام الافطار .

فاعتذر جمال شاكرا : لقد سبقتك .. لقد تناولت فطورى مع أمى .. ولكن فقط سأشرب الشاى ..

— ارجوك تفطر معى .

— ليتنى أســـتطيع .. أنا لســـت غريبا .. أهى المرة الأولى التى آكل فيها معك .. واستدرك أشرف كأنه نسى شـــيئا هاما : حقا .. كيف حال الوالدة الفاضلة ؟ كيف صحتها ؟

ـ الحمد لله بخير وعافية .. وهى تسلم عليك كثيرا جدا .. وعندما اخبرتها بأننى آت اليك حملتنى اليك أمانة التحية والتهنئة من كل قلبها وهى تدعو لك دائما .

ـ الحمد لله على سلامتها وشكرا لها .. ارجو أن تبلغها خالص تحياتى وتقديرى .. ولكنك حتى الآن لم تخبرنى عن السبب وراء هذا التحول الذى اعترى جسم حضرتك ؟

ـ ابدا .. لقد مرضت لمدة أسبوع .. كانت حمى .. ولكنها كانت شديدة بعض الشىء .

ـ ألف سلامة لك يا أستاذ .. الناموس اللعين .. عندكم الناموس كثير جدا فى فصل الصيف على وجه الخصوص .. لكن الآن الحمد لله ؟

ـ الحمد لله تم الشفاء .. وهذا هو الذى منعنى من المجىء اليك للتهنئة .. لقد مرضت فى اليوم التالى مباشرة لظهور النتيجة .. ولكن .. ما هى اخبارك ؟

ـ الحمد لله ..

ـ بخصوص العمل فى النيابة العامة ؟ .. هل وصلك خطاب الترشيح للعمل فى النيابة ؟ .. هل عرفت المطلوب من أوراق التقديم .. هل جهزت شيئا منها ؟

وبهدوء شديد وثقة زائدة رد أشرف باسما : لا .. لم يصل أى شىء بعد .. وحتى لو وصلنى أى شىء .. فلن أستجيب لهم .. لأننى لن أعمل فى النيابة العامة ..

ذهل جمال وصاح منزعجا : لماذا ؟ .. هل هناك أسباب سياسية ؟.. انت ليس لك ميول سياسية معينة على حد علمى .. ثم ان تقديرك .. لقد قرأته بنفسى .. جيد جدا .

ـ لا .. ليست هناك أية أسباب سياسية تمنع تعيينى .. وتقديرى والحمد لله جيد جدا .. ولكنى .. أنا ليست لدى الرغبة للعمل فى النيابة العامة .

صرخ جمال وكأنه صعق : هل هذا معقول ؟ .. هل يوجد طالب واحد

فى كلية الحقوق لا يحلم بالعمل فى النيابة العامة ؟ مستحيل !!!

ــ نعم .. يوجد .. انا .. لأنى فى الحقيقة أهوى العمل فى المحاماة اكثر .. وأى انسان قانونى يحب القانون .. لن يرضى بغير المحاماة عملا .

ــ كيــف ؟!!

ــ لأن المحامى هو القانون الوحيــد الذى يلم بكل فروع القانون .. ســعة وعمقا .. وكذلك هو القانون الوحيد المضــطر الى متابعــة كل جديد يصدر من تشريعات أو لوائح أوقرارات .. وذلك حتى يكون مستعدا ومؤهلا للدفاع فى اى قضية تعرض عليه مهما كان نوعها .. بينما العمــل فى النيابة سيدفنك بين دفتى القانون الجنائى والاجراءات الجنائية و ..

وقاطعه جمال مستدركا : ولكن منصب وكيل النيابة منصب محترم .. وله قيمته .. وله مكانة كبيرة وسط المجتمع .. لا يستطيع احد أن ينكر ذلك .

ــ أنا لا اخالفك الرأى فى هذا يا أستاذ .. ولكن نظرة سريعة لما يدور فى المجتمع من حولنا .. فى هذه الأيام .. ونسأل أنفسنا سؤالا صريحا .. أين هو مكان الموظف العام على خريطة الدخل الاجتماعى .. أين يقف الموظف العام .. اى موظف عام فى الدولة مهما علت وظيفته .. أين يقف بالنســبة لدرجات سلم الدخل الشهرى أو السنوى ؟ وذلك بالنســبة لغيره من فئات المجتمــع الباقية .. وخاصــة الأعمــال الحرة .. مهما كانت طبيعــة هــذه الأعمــال الحــرة .. حتى الحرفية منها .. بالتأكيد ســتجد هــذا الموظف العــام واقفا منكمشــا فى خجــل أســفل الدرجــة الأولى .. ولا أقول على درجة الســلم الأولى .. لأن تلك هى الحقيقــة المؤلمة والتى لا يستطيع أن ينكرها أى انسان صادق مع نفسه ولا يخشى فى الله لومة لائم .. بينما أى عمل حر الآن .. تجده يصعد وثبا فوق تلك الدرجات .. ليحتل قمتها .. ويكفل حياة مادية مريحة وســعيدة له ولأسرته من حوله .. بينما الموظف .. واقول أى موظف مرتبط بميزانية الدولة .. ومها كان كبيرا حتى ولو كان وكيل وزارة .. يئن ويشكو ويتالم هو واسرته عجزا تحت ضــغط متطلبات الحياة اليومية .. فى هذا الجو الملتهب والمســتعر بالغلاء وارتفاع الأسعار .. بصورة تكاد تكون يومية ..

ـ ولكن يا اشرف .. ليست الفلوس هى كل شىء .. والمنصب مازال له أهميته ..

ـ لا .. اسمح لى يا استاذ .. أنا لست معك فى هذا الرأى .. ولا اتصور أنه يوجد فى هذه الأيام شاب .. يكتوى بأعباء ومتاعب الحياة .. يفكر بهذه الطريقة .. ولكن دعنى لا احدثك حديثا نظريا مجردا .. سأقص عليك حكاية لمستها ورأيتها بنفسى منذ حوالى أسبوعين .. هذه الحكاية جعلتنى أصمم على رفض العمل فى النيابة والى الأبد .

واخذ رشفة من كوب الشاى الذى أمامه .. قبل أن يستأنف حديثه قائلا : منذ اسبوعين كنت جالسا مع زوج خالتى .. فى متجره .. وهو متجر كبير للقماش .. وبينما كنت أتجاذب معه أطراف الحديث .. اذ بإثنين .. شابين يتجهان نحونا .. عرفت احدهما على الفور .. كان زميلا لنا متفوقا فى نفس كليتنا .. ولكن يسبقنا بعامين .. وتخرج وتسلم عمله كوكيل للنيابة هنا فى مركز فاقوس .. وبعد أن سلما علينا .. وقدم لهما زوج خالتى المقاعد والعصير .. عرف صاحبنا صديقه الذى معه بأنه فلان (بك) وكيل النيابة وهو فى نفس الوقت رئيسه فى العمل هنا .. المهم انهما كانا قاصدين زوج خالتى لكى يستأجرا منه شقة لرئيسه هذا حتى يمكنه الزواج فيها .. وزوج خالتى عنده عمارة كبيرة ، وبها بعض الشقق غير مؤجرة .. وكانت المفاجأة لى .. عندما اعتذر لهما زوج خالتى مدعيا بأن كل شقق العمارة قد تم تأجيرها .. وبعد أن ذهبا .. سألت زوج خالتى مندهشا .. لماذا ادعيت بأن كل الشقق قد تم بأجيرها .. وأنا أعلم أن هناك خمس شقق لم تؤجر بعد ؟ .. فكان رده على انه قال هذا حتى يريح نفسه وينتهى من وجع القلب هذا والمشاكل التى يمكن أن يجرها هذا الايجار .. ووضح كلامه بأن هذا الشاب يريد أن يسكن عندى .. وهو يضع فى ذهنه أنه وكيل نيابة .. ونسى أو يتناسى أننى كلفت هذه الشقة الشىء الكثير وعصارة عمرى .. وسيذهب لاحضار لجنة الايجارات لتقدر الايجار الشهرى للشقة .. وبالطبع ستجامله اللجنة على حساب الحقيقة .. ومن ثم تبخس لى الايجار .. وماذا استفدت أنا ؟ .. فقلت له ولكن هذا وكيل نيابة المركز ..

وقد يفيدك .. ويخدمك ويســاعدك .. فى تخليص مصالحك .. ويمكنه ان يتوسط لك فى انهاء بعض امورك .. فضحك وقال : يا اشرف يا ابنى .. هذا كان زمان .. لكن اليوم .. القرش هو الواسطة الوحيدة .. والأفضل التى تجنبك الذل واستجداء انهاء مصالحك عند اى موظف .. هو واســطة التى لا تخيب رجاءك ابدا .. ان اى شىء تود أن تنجــزه .. يمكنك انجازه ببساطة وبدون تعقيد بالفلوس .. فمثلا لو كنت محتاجا لأسمنت مدعم من مجلس المدينة لبناء العمارة مثلا .. لو طلبت من وكيل النيابة هذا التوسط لى عند الموظف المختص بصرف الأســمنت لاتمام الاجــراءات والسرعة فيها .. فسيكون رد الفعل واحدا من اثنين .. اما أن يضع فى نفسه انه وكيل نيابة .. ولا يتوســط .. واما أن يكون ابن حلال ويتواضــع ويتوسط .. فاذا توسط فانه سيذهب أو يتصل بالموظف المختص .. وسيكون رد الفعــل عند الموظف هو الكثير الكثير من الاحترام والكلام الحلو المعســول .. والوعود الحلوة .. مرة بعد مرة .. الى ان ييأس ويخجل (البيك) وكيل النيابة .. وبالتالى تتأخر مصالحى .. ولكن لو اعتمدت أنا على نفسى .. وذهبت الى نفس الموظف .. والموظف يعرف أننى صاحب المصــلحة ومحتاج اليه .. وبالتالى لن يخاف منى .. وسيأمن جانبى .. وهو محتاج الى الفلوس التى ساعطيها له وذلك لقلة وضآلة راتبه .. وزيادة اعبائه وســط هذا الغلاء الفاحش .. ولذا سيهب واقفا منفذا — على الأقل — للتعليمات .. أن لم يجاملنى فوق حقى .. وسيحرر لى (البون) لكى أصرف الأسمنت .. بل سيذهب معى وبكل ترحاب الى المخزن لكى يسلمنى أجود الأنواع فى الحال .. ودون أن تتعطل مصالحى .. ودون ان يكــون لأحد اية مجاملة يذلنى بها و ..

وقاطعه جمال مستعجبا : اســمح لى يا أخ أشرف .. ان زوج خالتك هذا يفكر بطريقة غريبة .. الست معى فى هذا ؟

هز أشرف رأسه هزات بالعرض نافيا : هذه الطريقة يا أستاذ .. لم تعد غريبة .. لقد اصبحت وللأسف — عرفا ساريا فى هذه الأيام .. سواء أردنا أم أبينا .. وكما يقول الكاتب احسان عبد القدوس .. (لا تســألوا الناس .. اسألوا الظروف) .

اشاح جمال بوجهة مستنكرا : أية ظروف تلك التى تجعل من الرشوة عرفا ساريا ؟!! .. أنت رجل قانون يا أشرف .. وتعلم أن الرشـــوة جناية .. وتوقع العقوبة على كل من الراشى والمرتشى والرائش وهو الوسيط بينهما .. وقبل ذلك وبعده فان الرسول عليه الصلاة والسلام قد جرمها وحرمها فى اكثر من حديث شريف ..

هز أشرف راســـه هزآت عمودية موافقا : بالطبـــع .. كل ما تقوله حضرتك صحيح .. و أنا لا أدافع عن الرشوة والمرتشى .. فهو عمـــل غير مشروع شرعا وقانونا .. ولكن واقع الحال المر الأليم يفرضها .. واقول كما قالها أحد علماء الاقتصاد فى مصر فى يوم من الأيام : العلم يملأ راسى والجوع يملأ بطنى) .. كل الناس تعلم أن الرشـــوة حرام ثم حرام وغير مشروعة قانونا وشرعا .. ومع ذلك اذا لم تدفع الرشوة فان المصـــالح ســـتتوقف وتتعطل .. ولا نريد أن نبحث أســـبابها .. لأنها معروفة للجميع .. أولها واهمها هو هذا البخل والتقتير الشديد الذى أصيبت به ميزانية الدولة تجاه موظفيها .. وسط هذا الهدير الهائل من الغلاء والارتفاع الطاغى للأسعار .

ــ لكن هذا الغلاء كما تعلم .. فى كل بلاد الدنيا .. وكان مصـــاحبا لارتفاع اسعار البترول فى اعقاب حرب عام ٧٣ .

ــ نعم .. ولن أخالفك فى هذا ايضـــا .. ولكن كل بلاد الدنيا .. أو حتى معظمها وخاصة الدول المتقدمة .. التى لا تدفن الحكومات فيها راسها فى الرمال عندما تواجهها مشكلة صــعبة مثل مشكلة ارتفاع الاسعار هذه .. هذه الحكومات لديها لجان متخصصة لكى توازن المرتبات بالاسعار .. فاذا زادت الاســـعار .. زادت المرتبات بنفس القـــدر أو قريبا منه .. وبذلك يحافظـــون على كرامة الوظيفة العامة والموظف .. التى هى فىنفس الوقت كرامة الحكومة نفســـها ــ لو كانت تدرى ذلك ــ لأن الدولة أو حتى الحكومة كمؤسسة دستورية مكلفة بمهمة محددة ومنصوص عليها سلفا فى نصـــوص الدســـتور والتشريعات .. يجب عليهـــا أن تحافظ على ســـلطانها ومكانتها وسيادتها فى نفوس جماهير الشعب .. وهذا كله ينبعث من خـــلال احترام الناس لشخص الموظف .. الذى يمثل الحكومة .. ســـواء كبر منصب هذا الموظف او صغر .. واحترام الجماهير لن يأتى الا من خلال احساســـهم

ورؤيتهم لعفة الموظف وتفانيه فى خدمتهم باخلاص ونزاهة متعاليا عن سفاسف الأمور .. وذلك كله لن يتأتى الا عنـــدما يهتف الموظف راضيا الحمـــد لله أن العلم يملأ راسى والطعام يملأ بطنى وبطن أولادى .. وبذا .. تستقيم أمور الحياة فى المجتمع وتحافظ الحكومة والدولة على كرامتها .. ولكن للأســف الشديد .. وما ترى فى بلادنا وكل بلاد العالم النامى تحول الوضع الى شىء مخز ومخجل ــ وكأنه متعمد ــ صارت الوظيفة العامة فيها محلا للنكات عليها من كل طبقات المجتمع وفى وسائل الاعلام المختلفة حتى ولو كانت فى النهاية تختفى وراء نوايا حســـنة .. الا أنها اصبحت تظهـــر الموظف العام وبالتالى الدولة فى وضع يثير الضحك .. بل وصل الأمر بأحد رجال الدين المعروفين أن يفتى على الملأ ــ وهو معه حق فى هذا ــ بانه يجوز اعطاء الموظف من أموال الزكاة .. لأنه اصبح فى وضع المعدم المســكين .. والحكومة تســمع هذا وتطرب له وكأن علاقة التبعية التى تربط الموظف بها صـــارت علاقة عــداء وشـــماته .. فهى تغض الطرف عن ذلك وتبتســـم .. ثم تخرج تصريحات الصبر خلف تصريحات الصبر زاعمة الزعم الأزلى الذى نسمعه منذ أن فتحنا اعيننا على الدنيا هو أن الميزانية بها عجز فى هذا العام والأمل كبير أن تتحسن الأوضاع فى العام القادم وبعد السير فى الخطة الخمســـية .. (وكم من خطة خمسية) انقضت وعجز الميزانية هذا السرطانى لا ينقضى كما لو كان هو موظفا دائما ابديا فيها لن يفسخ عقده ابدا .. ولذلك فانا أعتقد أنه اصـــبح من الواجب على أى شاب يحترم نفســـه ويخشى على كرامته أن يبتعد عن العمل فى الحكومة .. بل يجب عليه أن يسارع الى العمـــل الحر الشريف مهما كان العمل .. ولذلك .. ومن هذا المنطلق قررت العمـــل فى المحاماة .. والابتعاد بنفسى عن ميزانية الدولة وعجزها وعن خطتهم الخمسية والفرج الذى لا يأتى .. حتى ولو كان هذا العمل فى النيابة العامة ..

ــ لكن يا أشرف .. ليس كل الموظفين بهذه الصورة القاتمة الكالحة .. ان هناك الكثيرين شرفاء .. وكما يقال (تموت الحرة ولا تأكل بثدييها) .. فليس اذن بالضرورة أن كل موظف يتعرض للمأذق ــ ينحرف .. انك بهذا تلغى من حياتنا قيما كثيرة وهامة .. انك بهذا تلغى العقيدة الدينية من نفوس

الناس .. أنت تعرف أن مجتمعاتنا هى فى حقيقتهـا وجوهرها مجتمعـات ريفية .. حتى سكان المدن من أصل ريفى .. والريف كما تعلم .. تربى فيه الاجيال على التمسـك بالتعاليم الدينية .. والبعد عن الأشـياء التى تعيب الانسـان فى دينه وخلقه وشرفه .. وتلك الاشياء هى التى تصنع فى الانسان الضمير .. ذلك الحارس الخفى الذى لا يغفل .. الذى يحذر الانسان اذا أراد أن يقدم على خطأ .. واذا وقـع فى الخطأ فانه يظل يوخزه بلا هوادة مدى الحياة .. ولذا فانا لا أوافقك تماما على ان المو ظف المحتاج لابد أن يقبـل الرشوة ويتخلى عن عفته وكرامته .

ــ استاذ جمال .. عفوا .. انا لا أتكلم كعالم كيمياء فى معمـل .. يجرى التجربة على بعض المواد .. ثم يكتشف قانونا .. وبعد ذلك يقـوم بتطبيقه على سـائر المواد الأخـرى من نفس النوع والخـواص والطبيعة .. لا .. أنا هنا أتكلم كرجل اجتماع ــ لو جاز لى ذلك ــ يدرس حالة .. كظاهرة اجتماعية من خلال الملاحظـة .. ومعنى الظاهرة أى أن التصرف أو السلوك البشرى هذا فى مكان ما فى زمان ما صار واضـحا ملموسا أكثر من ذى قبل .. وفى حالتنا هذه يكمن أن نقول أن الرشوة فى الماضى لم نكن نسمع عنها الا نادرا .. رغم أنها كانت موجـودة منذ زمن بعيد منذ عهد الرسـول عليه الصلاة والسـلام بدليل ن الرسول الكريم حرمها وجعل عقوبة مرتكبيها النار فى الآخرة .. والسبب فى ندرة مرتكبيها فى الماضى أن الوظيفة كانت لها قيمتها لأنها كانت تحمى كرامة الموظف لأن الراتب فى الماضى كان يكفى الموظف وزيادة .. وأيضا لم تكن مطالب الحياة تدفعه الى المزيد .. فلم تكن الدروس الخصوصية مثلا قد فرضت على الجميع فرضـا .. لم تكن الأدوات المنزلية الحديثة .. من ثلاجة أو غاز أو تليفزيون ملون وخلافه أو حتى السيارة .. قد أصبحت من الضروريات الملحة .. وخاصة بعد السـفر الى الخارج .. هذا السفر الجماعى .. والعودة بمليارات الدولارات .. واستفادة من هذه الدولارات كل المهن الحرة فى البلد بأن رفعت اسعارها أو أسعار خدماتها .. عدا الموظف هو الوحيد الذى لم يستفد منها لأنه كما قلت لك من قبل مرتبط بميزانية الدولة .. بينما .. المحامى والطبيب والنجار والحداد والترزى وكل

المهن على الاطلاق ربحت من خلف هذا العبور العظيم لحلب آبار البترول فى بلاد المشرق والمغرب العربى .. ولكن مع ذلك ستجد من الموظفين من يفضل الموت على أن يمد يده طالبا رشوة او حتى قابلا هدية بصدد عمله .. مهما كانت الظروف التى تحاصره لدرجة الخنق وكتم الانفاس .. حتى ولو كان ابنه الوحيد سيموت بسبب عدم قدرته على علاجه .. ودفع أجرة الطبيب التى قفزت الى السماء مستنجدة بملائكة السماء بعد أن ضاقت بملائكة الرحمة على الأرض داخل المستشفيات الخاصة .. ولكن مع ذلك ايضا أعود واقول انه بعد أن كان احجام الموظفين عن الرشوة فى الماضى هو الأصل .. أصبح احجام الموظفين عن الرشوة اليوم هو الاستثناء .. وربما تلمس هذا بنفسك واضحا اذا اضطرتك الظروف للاحتكاك بالموظفين فى أى مكان بصورة أكبر .. وفى المصالح المختلفة .. ولكنك لا تشعر بفداحة الموقف الذى نحياه اليوم لأن حضرتك تقيم فى سلام فى الكفر .. ومرتبك يصلك مع سكرتير المدرسة كل أول شهر .. ولكن مجرد احتكاك مع رجال الادارة سيجعلك تقتنع بصحة كلامى هذا .. ولكن على أى حال ليس هذا هو موضوعنا الأساسى .. لقد نسيت أن أقول لك أنه .. بعد اسبوع من ذلك اللقاء بين وكيل النيابة ورئيسه ، وزوج خالتى .. تصادف وقابلت صديقى هذا الذى كان معه .. وتطرقنا الى الحديث عن موضوع الشقة فأقسم لى أن زميله هذا يبحث فى فلتوس عن شقة منذ ثلاثة أشهر .. ولم يعثر عليها حتى الآن .. رغم أن الأثاث الذى جهزه لعش الزوجية مكوم فى بيت صهره منذ أكثر من ستة أشهر حتى سيطر عليه اليأس وفكر فى الاقلاع عن فكرة الزواج هذه التى أذلته لكل من هب ودب .. هذا من ناحية صاحبنا وكيل النيابة .. فى نفس الوقت .. أعرف زميلا لنا .. تخرج من الكلية منذ ثلاثة أعوام فقط .. وبعد فترة تدريب وجيزة لمدة شهور مع الأستاذ فتحى قنديل المحامى .. بدأ يتناول قضايا باسم مكتب الأستاذ فتحى بموافقة منه طبعا .. فى محكمة الحسينية .. والآن ماشاء الله .. استطاع أن يؤسس شقة ويتزوج .. ومنذ أيام رأيته راكبا سيارته الخاصة .. واضعا عليها علامة الميزان وعرفت منه أنه تزوج مدرسة اعدادى والدها عنده حوالى خمسين فدانا فى الحسينية ..

ولكن انظر الى الصفوة من خريجى الحقوق الذين يعملون فى النيابات المختلفة أو حتى فى مجلس الدولة أو حتى المعيـــدين منهم .. من منهم يركب ســـيارة الا اذا كان لديه اموال من خارج الوظيفة .. رغم المســـاعدات التى تقدمهـــا الحكومة لهم فى جميع الأحوال .. هذا بالاضافة الى الأعباء الضخمة الملقاة على عاتقهم فى العمـــل .. من تحقيقات فى القضـــايا المختلفـــة ليل نهار .. وحضور جلسات .. والمحافظة على المظهر والهيئة وسط المجتمع .. والقيود الكثيرة التى تكبلهم وتكبل حريتهم .

وانقلبت سحنة جمال وســـيطر عليها العبوس عندما تذكر العمدة الحاج ايوب وهو يقول ان عمل المحامى حرام .. وشعر جمال بامتعاض وهو يوضح لأشرف كأنما يريد أن يستكشف رأيه : ولكن : هناك من يزعم بأن المحاماة — على مابها منمزايا — .. ذكرتها .. الا أنها تبنى على الحرام .. وكل دخلها حرام .. لأن المحامى قد يدافع عن القاتل .. ويطالب ببراءته .. وهو يعلم أنه قاتل .. ويدافع عن المجرمين مثل السارق والمرتشى وهو يعلم أنه سارق أو مرتشى .. لا لشىء الا للحصـــول على الأتعاب ونقط .. من اجـــل الأتعاب يطلب البراءة للمجرمين وهذا بالطبع حرام بين لا يحتاج الى اثبات .. ولذلك فان كل قرش من اتعاب المحاماة تكون حراما وسحتا ..

وهنا ترك أشرف كوب الشاى الذى كان يرتشف منه بعضه .. ووصل الى آخره .. ووضعها على الصينية .. وانبرى موضحا فى حماس .. وكأنه يدافع عن قضية مصيره وحياته : لا .. بالتأكيد لا يا أستاذ .. لأن المحامى هو رجل دفاع .. يدافع عن الحق .. يدافع عن المظلومين .. ولقد ورد فى القرآن الكريم (أن الله يدافع عن الذين آمنوا) .. فالله عز وجل هو المدافع الأول عن المؤمنين .. ولله ورسوله المثل الأعلى .. الرسول نفسه (صلى الله عليه وســـلم) مواقفه الخالدة فى مجال تطبيق الحدود كثيرة وكلها تؤكد أن الرسول الكريم كان هو المحامى والمدافع بالحق عن الذين يتهمون بتجاوز حدود الله .. لأنه كان نبى الرحمة .. وأعتقد حضرتك تذكر تلك القصـــة التى تقول أن واحدا من المســـلمين جاء معترفا للرســـول الكريم بأنه ارتكب جريمة الزنى .. فلو أن الرسول الكريم نصب من نفسه عضـــو نيابة لأقام

عليه الحد فورا وفى الحال لأن الاعتراف سيد الأدلة .. وماذا يمكن أن يطمع عضو الاتهام أو وكيل النيابة فى أكثر من الاعتراف من قبل المتهم .. ولكن نبى الرحمة المهداة .. أعرض عنه ورده .. أكثر من مرة .. رده حوالى اربع مرات .. وفى كل مرة كان يعاود الرجل المجىء الى الرسول معترفا بجريمته .. مطالبا اياه بتطبيق العقوبة واقامة الحد عليه .. وسأل الرسول عنه الناس المحيطين به عن مدى سلامة قواه العقلية .. فأكدوا له سلامة عقله .. ومازال الرسول صلى الله عليه وسلم ينصب من نفسه مدافعا ومحاميا عن هذا المسلم الذى يعترف بجريمته .. فقال له : لعلك قبلت .. او غمزت .. أو نظرت ..) وفى كل ذلك يحاول الرسول التشكيك فى مدى صحة وقوع الجريمة .. ملتمسا الطريق لدرء الحد عنه .. ولكن أمام أصرار الرجل على ذلك لم يجد بدا من تطبيق العقوبة وتم رجم الرجل .. وكذلك فعل مع المراة الغامدية .. وردها مرة .. وفى المرة الثانية عندما اراد عليه الصلاة والسلام ان يردها قالت اراك تريد أن تردنى مثلما رددت ماعز بن مالك .. وهو اسم الرجل الذى حدثتك عنه من قبل .. وقالت لكننى حامل يارسول الله وليس هناك اثبات اكثر من ذلك .. وهنا أمر الرسول الكريم بأن تذهب حتى تضع حملها وتلد .. وبعد أن ولدت أتتت حاملة طفلها .. فامرها أن تذهب وترضعه حتى يتم فطامه .. وجاءت بعد فطامه ومعه تمرة ياكل فيها .. وهنا .. أعطى الطفل لأحد المسلمين ليتعهده بالرعاية والتربية .. ثم اقام عليها الحد ووقع العقوبة .. وماذا يفعل المحامى أكثر من التشكيك . المحامى الماهر وخاصة فى الجنايات — كما تعلم — لا يفعل اكثر من تشكيك هيئة المحكمة فى مدى صحة الجريمة .. سواء بنفى أحد اركانها .. أو التشكيك فى مدى سلامة الاجراءات التى تمت لأثبات تلك الجريمة .. وفى النهاية فان المحامى لا يصدر الحكم .. ولكن القاضى هو الذى يصدره مبنيا على اقتناعه الكامل الواعى الحر والمستمد من الأدلة والوقائع .. والمحامى اذا نجح فى تشكيك القاضى فى ثبوت التهمة على المتهم لا يكون ذلك حراما .. بل على العكس .. يؤدى عملا مشروعا .. استجابة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « ادرءوا الحدود عن

المسلمين ما استطعتم فان وجدتم للمسلم مخرجا .. فخلوا سبيله .. فان الامام لأن يخطىء فى العفو .. خير من ان يخطىء فى العقوبة » .. وكم رأينا وسمعنا عن المتهمين الذين ثبتت براءتهم ولكن بعد تنفيذ حكم الاعدام فيهم .. لأن الذى حاك لهم الجريمة لم يترك لهم فرصـــة للبراءة .. ولو أن الله قيض لهم محاميا ماهرا استطاع أن يشـــكك القاضى .. مجرد تشـــكيك .. لنجوا من حبل المشنقة .. لأن الشك يبرر لصـــالح المتهم كما جاء فى حديث رسول الله .. ثم ان المحامى بصـــفته رجل دفاع واقســـم اليمين .. يجب عليـــه أن يدافع عن المتهم الموكل اليه الدفاع عنه .. باخـــلاص كامل .. وتفان تام .. وهنا .. لا حرام فى ذلك ولا جرم .. ولكن اذا انحرف البعض منهم .. وحاول تزوير مستند .. أو اصطناع دليل براءة لموكله .. أو ينصح موكله بذلك .. فهنا فقط .. يكون الحرام .. وهنا فقط أقول لحضرتك .. ان العيب ليس فى المحاماة كمهنة .. ولكن العيب فى المحامى نفسه .. أو فى من يدعى المحاماة .. ولم يحافظ على شرف المهنـــة .. واذا كان البعض من المحامين يمارس ذلك فانه لا يجـــوز ان يسىء الى الكل .. لأن المفروض أن المنحرف لا يمثل الا نفســـه هو .. ولا يجب أن يتحمـــل تبعته الآخرون .. وحضرتك يا أستاذ اذا تطرقت الى موضوع الانحراف هذا .. فســـتجد أن انحراف هذا اذا كان يصـــيب بعض المحامين .. فهو يصـــيب مختلف المهن الأخرى .. وكم سمعنا .. وكم قرأنا على صـــفحات الجرائد المهازل التى يمارسها بعض الاطباء .. من انحرافات خلقية مع المرضى .. أو الجشـــع الذى ســـيطر على معظمهم .. أو الاهمال الجســـيم .. ولقد اقسم لى أحد الاصـــدقاء أن أحد الاطباء فى المناطق المتاخمة للارياف .. فتح بطن المريض .. واعاد خياطتها مرة ثانية بحجة اجراء عمليـــة .. وهو لم يجر أية عملية .. فقط من أجل الحصول على أجر العملية المزعومة .. وها هى مهنة ملائكة الرحمة والانســـانية .. هل العيب فى مهنة الطب ؟ .. بالطبـــع لا .. لكن العيب فى الفـــرد المنحرف الذى انتســـب اليها وهو مجرد من الضـــمير المهنى والانسانية .. وكما يصدق الكلام على مهنة الطب يصـــدق على بقية المهن الأخرى .. وبلا اســـتثناء .. ولماذا نعدد كل المهن ونترك أهم وأنبل المهن

على الاطلاق .. مهنة الأنبياء ، والرسل .. وكما يقول امير الشعراء أحمد شوقى .. قم للمعلم وفه التبجيلا .. كاد المعلم ان يكون رسولا .. مهنة التدريس .. وحضرتك فى ذلك اعلم بها منى .. كم كنا نقاسى .. ونحن تلاميذ وطلبة من بعض المدرسين الذين كانوا يهددوننا بدفتر اعمال السنة .. وانه سيرسبنا فى الامتحانات اذا لم ناخذ عنده درسا خاصا فى البيت مقابل اجر كبير قد لا يستطيع ولى الأمر ان يتحمله .. وبالاضافة الى العقاب والاضطهاد فى الصف لمن لا ياخذ الدرس عنده .. وهكذا دون حياء أو خجل .. هل العيب هنا فى المهنة ؟ .. بالطبع لا .. لكن العيب كل العيب فى هذا المدرس صاحب الضمير الميت .. الذى حول مهنة الأنبياء والرسل الى تجارة وجشع .. ولا يهمنى هنا أن أذكر الأسباب .. والمبررات .. ولكنى هنا بصدد توضيح مفهوم واحد .. هو أن جميع المهن طيبة وفاضلة .. ولكن قد ينتسب اليها أناس غير طيبين ، وبعيدين كل البعد عن الفضيلة .. وهنا لا يجب ان يلحق العيب المهنة ذاتها ولكن يجب أن يلحق العيب الشخص المنحرف نفسه ...

ولم يفعل جمال اثناء هذا الدفاع الحماسى من جانب أشرف عن مهنة المحاماة غير المتابعة فى شوق .. وتزايد الاعجاب باشرف وبطريقته فى الدفاع .. تلك التى استطاع بها أن يخلخل فى نفسه عقبة كئودا .. كان قد زرعها فى نفسه ووجدانه الحاج ايوب العمدة عندما صارحه جمال ذات مرة برغبته فى العمل فى مجال المحاماة .. واقنعه العمدة يومها أن المحاماة هى حرام والمال الذى يأتى منها حرام ثم حرام وبان المحامين ياكلون هم وأولادهم الحرام والسحت .. وهتف جمال فى نفسه منبهرا باشرف : ليس السن هو المعيار الحقيقى الذى يجعل الانسان يفهم الأمور والقضايا فهما جيدا .. لقد ادرك اشرف الحقيقة ببساطة .. تلك الحقيقة التى غابت عنى .. ليس العيب فى المحاماة كمهنة ولكن العيب فى بعض المحامين الذين لا يحافظون على شرف المهنة .. ومثلهم فى هذا مثل اى منحرف فى اى مهنة أخرى .. حقيقة بسيطة جدا يمكن لأى انسان ان يعرفها دون كثير ذكاء .. ولكن فقط يلزمه أن يكون حرا فى تفكيره .. بعيدا عن اى انحياز عاطفى .. لقد اقتنعت بكلام ورأى

الحاج ايوب .. ليس لأن رأية صــواب .. ولكن لأننى كنت منقادا الية .. من خلال عاطفة حبى لابنته نسمة .. وضغط على شفته السفلى بأسنانه .. وهى عادة بدأت تلازمه عقب اجتيازه لتلك الصدمة التى مرت به .. وخاصة كلما تذكر نسمة او شعر بالأسى والندم ..

وافاق جمال وصاح فى صدق : ستكون محاميا ماهرا وممتازا يا اشرف ــ ان شاء الله ــ .. لقد قلبت افكارى السابقة عن المحاماة راسا على عقب كما يقولون ..

فقال اشرف مندهشا وهو يبتسم : كيف يا استاذ ؟ هل نســيت أنك انت الذى اوقدت فى نفوسنا جذوة حب العمــل فى المحاماة .. منذ أن كنا فى السنة الثانية فى الكلية .. هل نسيت انك كنت تقول لنا دائما .. ان أهم شىء فى المحاماة أن تعب الانســان وجهده تعود المنفعة منه على الشــخص نفسه ؟ .. هل نسيت قولك بأن العمل فى المحاماة يجعل الإنسان فى مأمن من تطبيق أكثر من نصــف عقوبات القانــون الجنائى .. تلك التى تطبق على الموظف العام من رشوة واختلاس .. واستغلال سلطة وما الى ذلك ؟

فهز جمال راسه فى اسى وحسرة وهو يضــغط على شــفته السفلى متذكرا فى مرارة : نعم .. لقد نسيت ..

واستأنف اشرف بنفس حماسه السابق : يا اســتاذ جمال .. العمل الحر هو سيد الأعمال اليوم .. ويجب أن يسعى اليه كل شــاب طموح .. يريد أن يحقق ذاته ويبنى نفسة .. ويريد أن ينفع بلده ..

فتساءل جمال مبتسما : يحقق ذاته .. ويبنى نفسه .. وهذه مفهومة .. ولكن كيف ينفع بلده بالعمل الحر ؟

ــ طبعا يا اســتاذ .. العمل الحر معناه عدم تحميل ميزانية الدولة بمرتب وعلاوات موظف جديد .. فى ظل تلك التخمة الوظيفية الموجودة اليوم والتى تعانى منها الدولة الآن .. وأهم من ذلك فان العمل الحر فى اى مجال يعنى زيادة الانتاج فى هذا المجال .. وما مشــكلة مصر وكل الدول النامية الا مشكلة انتاج .. فلو ان كل شاب اطلق طاقته وامكانياته من عقالها ..

واخذ زمام المبادرة الفردية .. وانطلق منتجا فى المجال الزراعى أو الصناعى أو التجارى أو أى مجال آخر .. مهما كانت نوعية هذا المجال .. فان النتيجة الحتمية لذلك هو زيادة الانتاج وحدوث الاكتفاء الذاتى فى يوم من الأيام .. وعند ذلك .. يتحقق الاكتفاء الذاتى ويقل أو ينعدم اعتمادنا على الخارج فى كل شىء .. ونستطيع أن نحرر رغيف الخبز المصرى من أيديهم .. وعندما نحرر الرغيف المصرى من أيدى الأجانب نكون قد حررنا القرار المصرى أيضا .. اما قبل ذلك فمن الخجل أن نتكلم عن الحرية الحقيقية و ...

وقاطعة جمال معترضا وضاحكا وهو يتطلع الى ساعته : الله .. الله .. لقد دخلت فى السياسة يا عم أشرف .

فرد أشرف وهو يبتسم : وهل نستطيع أن نمنع انفسنا من الكلام فيها .. ؟ .. حتى لو أردنا ؟ .. لقد دخلت فى كل شىء فى حياتنا .

ونهض جمال واقفا . ومد يده لمصافحة اشرف .. واستأذنه شاكرا له هذه المقابلة الطيبة .. وهذا الحديث الممتع المثمر .. متمنيا له التوفيق فى عمله بالمحاماة .. معتذرا بأنه مضطر للانصراف وذلك لارتباطه بموعد مع رجل من الكفر له سيارة سيوصله الى البيت .. وودعه .. وانصرف .. على أمل اللقاء ...

«« الفصـــل الثامن عشر »»

لم يطل وقوف جمال منتظرا الحاج ســـعد .. فما هي الا دقائق حتى ظهرت سيارته من بين زحام السيارات .. وتوقفت .. وبابتسامته الواسعة المعهودة فتح الباب للأستاذ جمـــال ســـائلا بطريقـــة تقليدية : كيف حالك يا أســـتاذ ؟

فأجاب جمال وهو يحتل المقعد .. ويغلق الباب .. ولكن بشـــدة هذه المرة : الحمد لله .. كيف حالك أنت ياحاج ؟

ـــ الحمد لله .. جاء المهندس .. وعاين مكان المصـــنع .. وعدت به مرة ثانية .. ..

ـــ ووافق على المصنع ومكانه ان شاء الله ؟

ـــ بالطبع .. لازم يوافق ..

ـــ ألف مبروك ياحاج .. يبدو أن المهندس الذى صمم لك المصنع .. مهندس ماهر حقا فضـــحك الحاج ســـعد من فوره ضحكة مالت برأسه الى الخلف .. حتى كادت تمس ظهر كرسى القيادة .. لولا أنه ممســـك بعجلة القيادة .. ويركز بنظره على الطريق .. ثم قال وهو يحاول امساك نفسه عن الضحك : ان المهندس الذى صمم المصنع وخططه هو هو نفسه المهندس الذى عاين المصـــنع .

فاندهش جمـــال وقال : ألم تخبرنى بأن الذى يقوم بالمعاينة .. هو مهندس من القسم الهندسى بمجلس المدينـــة ؟

ـــ نعم .. صحيح .

ـــ لكن هذا موظف عام .. ويمتنع عليـــه القيام بأى عمـــل خارجى خاص .. وخاصة فى محل عمله .

فأجاب ســـعد : يا أستاذ .. عفوا .. هذه المثاليات لم تعد موجودة اليوم .. لم تعد موجودة الا عند حضرتك فقط .. المهنـــدس هذا .. موظف مسكين .. بعد عشرين سنة خدمة للحكومة .. لم يتجاوز راتبه المائة جنيه

.. عنده أولاد فى المدارس .. فى الثانوى والاعدادى .. يدفع لهم دروسا خصوصية فقط اكثر من سبعين جنيها شهريا .. هل سيكفيه المبلغ الباقى هو وأسرته .. طعام .. ملابس .. وخلافه .. وفى ظل هذا الغلاء الفاحش .. وحضرتك تعرف ثمن كيلو اللحم اليوم .. بالطبع استحالة أن يكفيه .. وماذا يفعل .. رجل مثل هذا .. متعلم .. والمفروض أن له كيانه فى المجتمع هل يقف على باب الجامع ويمد يده ؟ .. طبعا غير ممكن .. والأولاد يا أستاذ مطالبهم كثيرة ولا تنتهى ..

ــ لكن هذا الذى يفعله المهندس يعد حراما .. وغير قانونى .

ــ يا أستاذ .. ياأستاذ .. وما تفعله الحكومة معه ومع غيره من الموظفين .. أليس حراما ؟ .. ثم ان الرجل لم يقم بشىء منكر .. لم يأخذ منى الا ماكان سيأخذه منى اى مهندس آخر .. بل أخذ اقل منه بكثير .. بالاضافة الى انه سيخدمنى فى الحصول على بعض التموين اللازم من المجلس .. وهذا المهندس بالذات يعتبر من الموظفين الشرفاء .

ــ لكن .. اذا كانت ظروفه هكذا صعبة .. يمكنه الاستقالة ــ طالما أن المرتب لا يكفيه ــ ويفتح مكتبا هندسيا خاصا .. أو مقاولات .

واعترض الحاج سعد .. رافعا صوته الجهورى .. حتى يتغلب على الضوضاء المنبعثة من آلات التنبيه المتواصلة من سيارات حوله .. موضحا للأستاذ : اسمح لى ياأستاذ .. مع احترامى لرأيك .. ليس من السهل لأى انسان أن يفتح مكتبا هندسيا خاصا أو مقاولات .. لأن ذلك يستلزم امكانات وأموالا كثيرة .. فهو مثلا يلزمه شقة فى مكان مناسب وأين هى الآن ؟ .. وكذلك مستلزمات الديكورات .. واعداد الشقة للعمل وكذلك الموظفين للمكتب .. وأهم من ذلك كله .. لا يضمن العمل الفورى للمكتب .. فقد ينتظر لمدة شهور قبل أن يطرق بابه أحد .. ولذلك لابد له من رصيد كبير فى البنك لينفق منه على بيته خلال الفترة الأولى من فتح المكتب .. حتى ينتعش المكتب .. ولماذا كل هذا التعب وتلك الحيرة ؟ .. انه الآن .. ومن خلال هذا الأسلوب الذى يتبعه وهو على رأس عمله فى المجلس .. يحصل على حوالى سبعمائة جنيه على الأقل شهريا .. بالاضافة الى راتبه ..

وبهت جمال مستغربا وصاح : ابهذه الدرجة الحياة اصبحت صعبه ؟ لدرجة ان يحل الناس الحرام و ..

ـــ صعبة جدا ياأستاذ .. اسمح لى .. أنت .. أنت الذى لا تعيش ايامك .

ـــ كيـــف ؟

ـــ لا تؤاخذنى .. أنت بالنســـبة لى أخ فاضـــل وكريم .. وتهمنى مصلحتك .. أيوجد بيت اليوم يخلو من الأدوات الكهربائيـــة مثل الغسالة والثلاجة والبوتاجاز والتلفزيون الملون ؟ .. ولم تعد هذه الأشياء كمالية كما يقولون .. ولكنها صـــارت ضرورية لا يخلو منها أى بيت .. حضرتك فقط الذى لم تشترها بعد .. ليس عندك غير التلفزيون الأبيض والأسود .. ثم انك تقيم فى بيتك الملك ولا تدفع أى ايجار .. والحمـــد لله أنت راض بذلك وقانع به تماما أنت والحاجة والدة حضرتك .. ونعمة الرضى هذه تعـــد نعمة كبيرة من الله .. لأن القناعة كنز لا يفنى .. كما يقولون .. ولكنك لم تفكر يا ستاذ .. عندما تتزوج ان شاء الله .. هل سترضى زوجتك بذلك ؟ .. الن تقارن بين بيتها وبيت صديقاتها وقريباتها .. واليـــوم كما قلت لحضرتك لا يوجد بيت يخلو من هذه الأدوات الحديثـــة .. اولادك ـــ ان شاء الله ـــ سيكون لهم مطالبهم الكثـــيرة من جهة الملبس والمأكل والتعليم .. والتعليم اليوم بمفرده يحتاج الى خزنة لا تغلق أبدا .. لا تقارن نفسك يا أستاذ بأحد من المدرسين .. المدرسون يأخذون منى شهريا على البنات .. حوالى ثمانين جنيها كل أو شهر .. هذا درس انجليزى .. وهذا درس رياضـــيات وهذا علوم .. وهذا بلاء أزرق .. ومصيبة ســـوداء .. والمطالب لا تنتهى .. هذا ملخص عربى وهذا مجموعة رياضيات .. وغير الكراسات .. ماذا كنت سأفعل اذا لم يفتحها الله على فى الوقت المناسب ويوســـع لى فى رزقى .. والله يا أستاذ هم يزعمون الآن أن التعليم مجان ..كذابين .. (والله العظيم) كذابين .. اليوم الولد أو البنت لكى تتم تعليمها .. تكلف أهلها ثقلها ذهبا .. ثم ان المهندس لم يخطىء .. بل بالعكس هذا النوع من الموظفين انا احبه واحترمه .. لأنه ينجز المصلحة ولا يعطلها ويضع العقبات فى طريق انجازها

.. كما يقول المثل نقع واستنقع .. وهو افضل الف مرة من هذا الذى لا يأخذ ولا ينجز العمل بل يحاول تعطيلها .

وبالطبع لم يقتنع جمـــال بهذا الكلام .. فهز كتفيه .. وضـــغط على شـــفته السفلى فى تحسر وحـــيرة وهمس قائـــلا : جائز .. انها وجهـــة نظر ياحاج .

وسرح ببصره برهة .. كانه يتابع الطـــريق .. ثم اســـتدار فجأة مبتسما .. كانه ياخذ رأى الحاج : معنى هذا .. انك تؤيدنى ياحاج لو فكرت اشتغل فى المحاماة ؟

ـــ ردد سعد الكلمة الأخيرة ليتاكد : اتقول المحاماة يا أستاذ ؟!!

ـــ نعم .. ما رأيك يلحاج ؟

ـــ يا ليت .. يا ليت يا اســـتاذ تعملها .. والله انت لو فكرت فيها حقا .. تكون قد وضعت رجلك على اول طريق السعد والعز والهنا .. تكون بدأت فعلا ـــ لا تؤاخذنى فى هذه الكلمة ـــ بدات تفكر التفكير السليم والمعقول لمن يعيش فى هذه الأيام .. هل تعلم كم جنيها أخذها منى المحامى فى موضوع طلاق سعدية بنتى من زوجها .. رغم أنه لم يتم بعد ؟! .. لقد وصـــله منى اكثر من مائتى جنيه .. وهى قضية بسيطة جدا .. فى أيامنا هذه يا أستاذ .. اقل محامى يدخل جيبه شهريا لا يقل عن الف جنيه .. اقل مكتب محامى اليوم عبارة عن نهر فلوس جارى .. هل ســـمعت عن ناس يبيعون الكـــلام بالذهب ؟ .. انهم المحامون ..

فابتســـم جمال قائلا : هل تعنى بهذا ياحاج أنك توافق على عملى فى المحاماة ؟ .. ولكن .. هل ياترى سأنجح فى هذا المجال ؟

ـــ يا أستاذ .. حضرتك ابن حلال .. وستنجح باذن الله فى اى عمل .. وفى اى مجـــال .. ولكن بشرط واحد ومهم .. هو .. يجب أن تتخلى نهائيا عن هذه الطيبة الزائدة عن الحد .. وحكاية للعمل بدون أتعاب أو مقابل لابد أن تنساها تماما .. ولا تفعل فى المحاماة كما تفعل فى الدروس المجانية تلـــك .. نظـــرة واحـــدة منـــك الى زملائـــك من المدرســـين أو فى المـــدارس الأخـــرى .. الـــذين يعطـــون الـــدروس مقابل أجـــر ..

واجـر باهظ كمـا حدثتـك من قبـل .. سـتجد كل واحـد منهم ماشاء الله .. منهم من اشترى الأراضى .. ومنهم من يشارك الفلاحين على أكثر من خمسـين بقرة .. وحالتهم المادية ممتازة .. ولكن حضرتك الذى تترفع عن أجر الدروس وتعتبره حراما .. قد يكون ذلك مقبولا فى الماضى .. عنـدما كان الناس فقراء معدمين .. لكن الآن كل الناس مسـتورة ، وربنا اكرمهم .. لا يوجد بيت الآن لم يخرج منه واحد الى الخارج .. أو يعمل فى طائفة المعمار .. أو المهن الحرة .. واقل واحد اليوم يعمـل فى المهن الحرة دخلـه فى يومين اكثر من دخلك أنت فى شـهر .. ارجوك لا تغضـب منى يا أستاذ .. الحال تغير تماما .. ولابد أن تعى هذه الحقيقة و ..

قاطعه جمـال بطيبة : ولكن ياحاج .. مازال هناك من الناس الغلابة .. الذين لم تصلهم فلوس الخارج .. أو من المهن الحرة والتجارة .

ـ من تتكلم عنهم يا أستاذ .. لن يضطروا لزيارة مكتب المحامى .. وبالتالى لن يـدق على باب حضرتك وانت محـام الا كل قادر .. أو من سـيربح من وراء الدعوى التى سـترفعها له الكثير .. أما غـير القادر .. فسيحاول حل مشاكله مع الآخرين بالسلم .. وحتى لو كان له حق سيتنازل عنه .. تجنبا للمشاكل ومصاريف المحاكم .. كما كان يحدث فى الماضى .. لكن اليوم .. اصغر مشكلة عند الناس تكبر وتتصعد ويضعونها أمام الشرطة أو النيابة .. وببساطة يوكل له محاميا للانتقام من الخصـم .. مهما كلفه ذلك الكثير .. لا تهم التكلفة والمصـاريف .. الفلوس كثيرة وموجودة .. عندك أقرب مثال على ذلك .. تلك المشاجرة التى نشبت بين المرأة زوجـة محمود ابو فاضل .. والمرأة زوجة حسنين أبو جمعة .. تلك المشكلة التى وقعت منذ أيام .. قد تكون سمعت عنها .. الكفر كله عرف بها .. كانت على شىء بسيط جدا .. زوجة محمود سكبت بعضـا من مياه غسـيل الملابس الوسخة .. فى الشارع قدام باب بيتها .. كما يحدث لأى بيت كل يوم .. ولأن الحارة غير متساوية .. ومنحدرة تجاه بيت حسنين أبو جمعة .. لذا سالت المياه بدون قصد أو سوء نية أمام بيت حسـنين .. لا أكثر من ذلك .. مشكلة مثل هذه المشكلة لو حدثت منذ خمس سنواه .. وكثيرا ودائما

كانت تحدث .. يحدث أكثر منها .. كانت تحل فى حينها .. ولا يعلم بها اى انسان .. وحتى لو تدخل الشيطان ونفخ فيها لكى تكبر .. وكبرت وجرى مهما جرى .. كانوا يذهبون الى العمـــدة .. وبمجرد كلمة واحدة منه يتم الصلح وينتهى كل شىء فى لحظة ويعود السلام بين الجيران قبل أن يمر عليهم اليوم .. لكن اليوم لأن زوج (زهيرة) .. حسنين ابو جمعة يعمل فى العراق .. ويرسل لها كل شهر حوالى خمسمائة جنيه .. وفتحت لها دفتر توفير باسمها فى البريد .. واحست بالدفء .. وكذلك ابن محمود أبو فاضل فى اليمن .. هذا الولد الفاشـــل الذى رسب فى الثانوية العامة أكثر من أربـــع سنوات .. ولم يفلح فى الحصول عليها .. راح واشترى شهادة مزورة بأنه حاصل على دبلوم المعلمين .. وراح واشتغل مدرســـا فى اليمن .. وكل مدة يبعث لأبيه الدولارات .. أنا الذى اقوم بتحويلها اليه بالجنيه المصرى .. فى مرة واحدة حول خمسة آلاف دولار .. وجرت الفلوس فى أيديهم .. ولذلك قام كل من البيتين .. وكتبوا بلاغات فى بعضهما وتقدموا بها الى المركز .. وكل واحد منهما عملا توكيلا للمحامى الخاص به وبات كل واحد يتوعد الآخر ... ولذلك فان عمل المحامين زاد وارتفع أجرهم .. لأن معظم الناس صاروا يتصرفون بهذه الطريقة .. وراحت على العمدة خلاص ..

وضحك مقهقها بصوت عال كما لو كان يشمت فى العمدة الحاج أيوب مفتاح .. ثم واصل كلامه بعد ذلك بصوت خفيض مقتربا بقدر المســـتطاع برأسه من الأستاذ .. بينما كانت عيناه تتابعان الطريق .. وكأنه سيفضى الى جمال بسر : ارجوك يا أستاذ .. لا تغضب منى .. أريد ان اكلم حضرتك بصراحة أكثر .. لأن المؤمن مرآة أخيـــه .. وحضرتك أخ عزيز .. لو كان حضرتك محاميا .. وعندك الفيلا والسيارة .. ورصـــيد فى البنك هل تعتقد ان تصرف بيت العمـــدة معك .. اذا طلبت الزواج كما هو الآن .. بالطبع لا .. بل على العكس من ذلك .. هم الذين كانوا ســـيلاحقونك حتى تتزوج ابنتهم .. الانسان .. الواعى يا أستاذ لازم يعيش أيامه كما يعيشـــها من حـــوله .. كل الناس النهارده تسعى خلف الفلـــوس مهما تظاهرت بالقناعة والزهد .. وخاصة الناس الكبار فى السن .. وهذا ليس تفكـــيرى وحدى

لكنه تفكير كل اب عنده بنات ويفكر فى زواجهن .. كل اب يتمنى أن يزوج ابنته لشاب ميسور الحال ماديا .. يستطيع أن يوفر لها حياة آمنة ومستقرة وخاصة بعد وفاته .. لأن أى واحد منا نحن الآباء .. آخر أمنية لنا هو أن نموت مطمئنين على أولادنا .. وخاصة البنات .. لأن الولد يستطيع تدبير نفسه .. .. وسواء شرق أو غرب فهو ولد .. لا خوف عليه من الظروف .. لكن البنت عموما قليلة الحيلة .. وهى الجناح الضعيف .. ولذلك كل اب .. يتمنى أن يزوج ابنته لشاب لرجل غنى أو على الأقل ميسور الحال .. وأنا لا انكر قيمة الأخلاق واهميتها .. ولكن اذا جاء لابنتى رجلان احدهما عند فلوس .. والاثنان على قدر من الأخلاق ، فبدون تفكير سأفضل الغنى طبعا .. للأسباب التى ذكرتها لحضرتك .. هذا هو تفكير الناس اليوم .. ومن يدعى بغير ذلك فهو كاذب .. نحن نعيش زمن الغلاء والفلوس .. انا أستطيع أن اشبه حال الناس فى هذا الزمن بحال الغرقى فى بحر عاصف من الأسعار المرتفعة والغلاء الكاسح .. وكل واحد يحاول اخراج يده من قلب الأمواج مستغيثا .. طالبا طوق النجاة .. وطوق النجاة هذا .. لن يكون غير الفلوس والمال .. الفلوس التى قال عنها الشاعر .. هى السلاح لمن أراد قتالا .. ولكن كلام التمثيليات هذا .. وكلام الأغانى .. كله كلام فارغ .. لا معنى له .. المطرب الذى يقول أن بيت الزوجية .. يقول لحبيبته .. أن بيت الزوجية هو عش اثنين فوق شجرة .. وبذلك حل المشكلة .. مشكلة تتسبب فى فشل آلاف من الزيجات اليوم وهى مشكلة الحصول على الشقة للسكنى .. ولكن .. الانسان العاقل يفكر تفكيرا سليما واقعيا .. حتى لا يخدع نفسه .. ولا يصطدم بالواقع المر الذى نحياه منذ فترة .. زمان كان المصرى يتزوج أربعة نساء .. وخاصة فى الريف .. لماذا ؟ لأن الزواج لم يكن يكلفه اى شىء .. مجرد حصير ولحاف قطن ومرتبة ومخدة .. واذا لم تعجبه الزوجة بعد الزواج .. لا تمثل له أية مشكلة .. بمنتهى البساطة يرمى عليها يمين الطلاق .. وتذهب الى بيت أهلها وتجلس منتظرة لرجل آخر يتزوجها ويعرف قيمتها .. وهكذا كان عدد المطلقات كثيرا جدا .. لماذا ؟ .. لأن الحياة كانت بسيطة والزواج والطلاق لا يمثل مشكلة .. بينما اليوم كما ترى .. لا نسمع عن اى مشاكل طلاق الا نادرا ـــ ولأسباب قوية مثل

التصرف القذر الذى يريد أن يتصرفه الولد القذر زوج ســعدية بنتى .. ومع ذلك أنا الذى أعرض عليه الفلوس كى يطلقها .. لكى نحل المشكلة .. اليوم يا أستاذ ونظرا لظروف الغلاء .. فان الرجل والمراة أيضا .. يتحملان تطاول كليهما .. حتى لو زاد بعضهم قليلا .. بينما فى الزمن الماضى اذا قال الرجل لزوجته .. أريد ان أشرب وتأخرت عنه قليلا .. كان يرمى عليها يمين الطلاق .. الحياة صعبة جدا يا أستاذ .. وهذه هى الحقيقة ..

وامسك سعد عن الكلام ليرى أثره على الأستاذ .. أو يسمع منه تعليقا عليه .. ولكنه لم يسمع منه اى كلمة .. كما لو كان قد نام .. فنظر اليـه سريعا .. وابتسم لأن الأستاذ لم ينم بعد .. فصاح بصوت مرتفع أكثر : الا توافقنى على ذلك يا أستاذ ؟ وقبل أن يرد عليه جمال عض شفته السفلى وهو يهمس فى مرارة وضيق .. وكأنه يكلم نفسه : والله ياحاج سعد .. أنا اليوم .. سمعت من الكلام ما اربكنى وازعجنى وشوش تفكيرى تماما .. فى الحقيقة أصبحت غير قادر على التمييز بين ما هو صــواب وبين ما هو خطأ .. بين الشىء المعقول وبين الشىء غير المعقول .. من خــلال كلامك وكلام صديقى أشرف الذى زرته اليوم .. لقد بدأت أشعر بأننى فى الأيام الماضية من عمرى كنت أعيش على هامش الحياة .. ولا أخفى عليك ياحاج وأنت أخ عزيز .. أننى كنت أعيش من أجل هدف واحد فقط .. هدف واحد فقط لاغير .. هدف واحد سيطر على منذ عشر سنوات تقريبا .. وحجب عنى كل شىء سواه .. هو الزواج من نسمة .. ومن أجل هذا الهدف وجهت حياتى هذه الوجهه .. واصبح الطريق الوحيد لتحقيق هذا الهدف ــ كما تصــورت ــ هو الحصول على الليسانس بتقدير كبير .. والعمل فى النيابة .. ولذا كانت الدراســة والتفوق .. هى الطــريق لتحقيق ذلك الأمل .. ولم أكن أفكر فى الفلوس أبدا كطريق لتحقيق الهدف .. والا لكنت قد وافقت على الاعارة لدولة عربية منذ سنوات وحققت من ورائها المال الكثير .. ولكنى رفضــتها ــ كما يعلم ــ الجميع .. لا لشىء الا لتحقيق الهدف والحصول على المؤهل الجامعى .. ولا ننكر قيمة هــذا المؤهــل فى وقتها ياحاج .. ولم يكن الزمن قد لعب لعبته وجعــل المال هو المقدم على كل شىء .. حتى على العلم والثقافة ..

واصارحك الحقيقة ايضـــا بأننى كنت ــ ومن خـــلال كلامك الآن ، وكلام صديقى اشرف الذى ســـمعته منه اليوم ــ كأننى كنت نائما فى حجرة وردية ممتعة نسجتها وبنيتها من خيالى العاشق . . حجرة مغلقة النوافذ . . مغلقة على وحدى أنا . . . . اسمع بعض الضـــجيج خارجها . . اســـمع بعض الهمهمات والأصوات المبهمة تتوافد الى مسامعى . . كأنها تصل الى مسامع رجل نصف نائم . . وربما كنت ادرك كنة هذه الأصوات التى تجأر من ضغط الحياة والغلاء فيها . . وتلك القسوة المادية التى تنشب اظافرها فى كل شىء فى هذه الحياة فى هذه الأيام . . لكن حقيقة كان احساسى بها . . هو أحساس رجل مخدر . . لم اجرب لسعاتها ولا احس بها حتى لو أمسكت بلظاها مرة او مرتين . . الا أن احساسى بها كان حقا ــ ضعيفا . . ولكن اليوم فقط . . فتحت النوافذ . . وبدأت تهب على رياحها الملتهبـــة . . وراحت تصـــفعنى بعنف كى افيق من هذا الخيال الذى كنت غارقا فيه حتى قمة رأسى . . وها أنا على وشك أن انفض عن تفكيرى كل تلك الأحلام الوردية . . الأحلام الخادعة التى ظللتنى طوال تلك الفترة من الزمان . . ولكن . . على أى حال لا نملك الا أن نقول (ما اختاره الله للعبد . . افضل مما اختاره العبد لنفسه) .

وصح الحاج سعد فى نشـــوة وبهجة . . ولكأنه يبارك ميـــلاد رجل جديد : هذا هو الكلام المفيد يا اســـتاذ . . والله كنت نفسى أفاتحك فى هـــذا الموضـــوع من فترة طويلة . . ولكن . . كنت خائفا . . أن تفهمنى بطريقـــة خاطئة . . الحياة لم تعد مجالا للحب والعواطف والأحـــلام الوردية . . كما كانت فى الماضى ــ . . أيام الوردة البيضـــاء ويحيا الحب كل افـــلام الحب والغـــرام تلك . . لم يعد لها من يشاهدها . . اليوم كل الناس تركض خلف القرش . لو يعلن اليوم عن اسم فيلم مثلا . . كيف تحقق مليون جنيه تأكد أن كل الناس ستحرص على مشاهدته . . ولكن افلام الحب هذه أصـــبحت موضة قديمة وبطلت . . منذ أن دق الغلاء على أبواب الناس وهم يشعرون بالفـــزع على كل شىء حولهم . . هل تعتقد ان من يشـــعر بالفزع على غده ولا يأمن شره تكون عنده نفس للحب . . الحب يا أستاذ كلمة الفقراء والغلابة . . هؤلاء الناس أصلهم لديهم من الفراغ ما يجعلهم يحلمون كثيرا . . والحب

وليد الفراغ .. اسمع منى يا استاذ .. انا لم أذهب الى مدارس مثل حضرتك .. ولكنى خريج مدرسة الحياة التى تعلم العلم الحقيقى .. وليس علم المدارس والجامعات المزيف .. بدليل انه لم يعد .. يكفى صاحبه حتى الطعام بدون ادام .. ورغم الأخطاء الجسيمة التى أدركها جمال من خلال كلام سعد عن الحياة والحب وعن العلم والناس فى هذه الأيام .. وبالرغم من أنه غير موافق على معظم ما قاله الحاج سعد .. الا انه فقد الرغبة فى النقاش وفى توضيح الصواب من الخطأ فى افكار الناس .. أو كأنه لم يعد يثق فى مدى الخطأ فيها .. فلقد اصبحت ماثلة امام عينيه الفكرة ونقيضها فى وقت واحد .. ولم يعد يدرى .. اهذا خطأ منه وسوء تقدير .. أم ان الحياة من حوله هى التى تدور بصورة فى غير فلكها المرسوم لها مما جعل كل الأحوال فيها تبدو للناظرين كأنها مقلوبة .. وهتف فى داخله الله وحده أعلم بحقيقة الأمر .. ولم يبد اى تعليق على كلام الحاج سعد وكأنه لم يسمع منه أى شىء .. بل صمت تماما — .. وراح يعض على شفتيه السفلى .. وأخذ يحملق شاردا فى تلك الأشجار المغروسة على جانب الطريق الأيمن .. كأنه يحصى عددها .. وهو فى الحقيقة لا يشعر بوجودها على الاطلاق ..

مما أعطى الفرصة للحاج سعد فى استئناف كلامه قائلا : حتى لو فرضنا .. يا استاذ أن نسمة بنت العمدة لم تكن قد خطبت لأحد وكانت خالية من كل الموانع الشرعية التى تحول دون زواج حضرتك منها .. وحضرتك تسلمت عملك فى النيابة .. وذهبت لخطبتها .. هل تعتقد .. أن الموافقة منهم كانت مضمونة تماما ومائة بالمائة .. عفوا يا استاذ .. ليس هذا اعتراضا على شخص حضرتك — لا سمح الله — أنت تعلم أن مقام حضرتك كبير وعظيم عند الجميع .. ولكن كان هناك الكثير من الأسئلة التعجيزية التى ستسمعها .. منهم ان لم يكن من العمدة حبيبك !! .. فمن الحاجة صفية .. مثلا كم ستدفع مهرا ؟ .. وأين ستسكن ؟ .. وهل ستسكنها فى بيتك الطينى المتواضع ، وهى بنت العمدة ؟ .. وانت تعلم فيلا العمدة .. واختاها البنات كل منهما تأتى لزيارة أبيها مع زوجها فى السيارة الفارهة .. هل كنت تعتقد أن حب العمدة لك وهذا الكلام الناعم

المعســول الذى يقوله لك بأنك مثــل ابنه .. هل تعتقد أن مثل هذا الكلام سيكون له قيمة ساعتها .. وهل ياترى لو تغلب على نفســه فى هذه النقطة هل ياترى سيستطيع التأثير على صــفية زوجته .. تلك المراة التى تعشــق المظاهر وتحبها كما تحب نفسها .. وهل يستطيع التأثير على ابنته نســمة .. التى لا أعتقد أنها يمكن أن تقبل بعريس يقل فى المستوى المادى عن زوجى أختيها ؟ .. وستواجه بأسئلة كثيرة .. لن يجدوا لها أجوبة عند حضرتك .. بينما لو كنت نفذت الاعارة الى البلد العربى هــذا .. وعدت ومعــك الفلوس وتزغلل عيونهم بها .. أؤكد لك أن نســمة كانت من نصــيبك .. ولكن يا أستاذ كما قلت حضرتك ــ أنك كنت تعيش حلما ورديا .. وهذه هى مشكلة معظم المتعلمين اليوم .. الواحد منهم يحلم كثيرا ويعمــل قليلا .. وعنــدما لم يحقق حلمه .. يلعن الدنيا ويلعن الزمان .. وكل ذلك أنا أعتبره هروبا من الواقع .. لأنه غير قادر على المواجهــة .. بينما البلد اليوم .. كل مصر .. مليئة بالخير والفلوس والغنى .. فقط تنتظر من يمد يده بشجاعة ويغرف منها .. البلد اليوم محتاجة للشجاع المجازف .. وليس للحالمين .. لا تغضب منى يا أستاذ .. انا احبك جدا وباك على مصلحتك ولذلك أتكلم بصراحة وحرقة .. لأنه ليس من الســهل على نفسى أن أرى واحــدا مثل العمدة هذا يرفض واحدا مثل حضرتك .. (مســمار فردة حذائك برقبتــه ورقبة عائلته كلها) .. ولكن آن الأوان تلقنه درســا يا أستاذ .. وتعرفه بأنك لست أنت من تخدع منه أو من غيره ..

فقاطعة جمال فى ضجر بعد أن ضاق بكلام سعد هذا .. بحجة حبة له وخوفه على مصلحته وهو يوشك ان يجعل من نفسه الها وفيلسوفا .. لأنه أصبح يملك بعض المال من عدم : وهل سأحاربه ياحاج سعد ؟!!

ــ لا لم أقل تحاربه .. ولكن تعطى له درســا عمليا .. بالعمــل فى المحاماة .. وتجمــع الفلوس .. وبهذه الطريقة .. تســتطيع أن تواجه الحقيقــة .. ولكن بشرط هو ان تتخلى عن تلك الطيبة الزائدة عن الحد .. ولا تفرط فى أى قرش من أتعابك حتى ولو كان أخوك .. أو اعز اصــدقائك

.. لو فرطت أو أهملت فى طلب حقك ستجعل نفسك فريسة سـهلة مطمعا لأضـعف الناس من حولك .. لأن المجتمـع اليوم يا أسـتاذ مجتمع ذئاب ولصوص ان لم لم تتغذ بهم سيتعشون بك .. و ..

فصرخ جمال مزعورا ومحتجا على هذا التعبير وتلك النظرة التشاؤمية للمجتمـع والناس وقال : ليس لهذه الدرجة ياحاج .. لقد جعلت الصـورة داكنة أكثر مما يجب .. مازال المجتمـع بخير .. والناس الطيبون والشرفاء بخير و ..

ـ نعم .. ولكنهم أصـبحوا قلة نادرة .. وحظهم ضـائع فى هذه الحياة .. وأولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال مكانا فى هذا المجتمـع الذى نعيش فيه .. وعلى أى حال .. كلام أخيك سعد هذا سيظل بدون معنى عند حضرتك .. حتى تحتك بالناس (ماديا) .. وسترى بنفسك اما أن ياكل الواحد منهم حقك أو يقف ضدك ويعاديك ..

ابتسم جمال .. كأنه يجامل الحاج سعد .. لأنه يركب سـيارته .. وقال : ربنا يستر ياحاج .. ويكفينى شر أولاد الحرام .

وأخذ يحرك سـاقيه ويهزها .. محاولا التخلص من هذا الخدر الذى يكبلها .. استعدادا للهبوط من السيارة .. حيث إنها دخلت الطريق المؤدى الى الكفر .. وبعد دقائق ستصل بيته ..

وسادت فترة صمت .. شرد فيها كلاهما ..

وقبل أن يهبط جمل من السيارة التى توقفت تماما أمام منزله .. مال اليه سعد هامسا فى اخلاص شديد : أستاذ .. أرجو من حضرتك أن تعتبرنى مثلما اعتبر حضرتك أخا .. وعزيزا وغاليا .. ولو فكرت بجد فى مشروع المحاماة .. أرجو أن تعتبرنى تحت أمرك فى اى شىء .. أى فلوس تحتاجها حتى تقف على رجليك فى السـوق .. أنا تحت أمرك .. واذا عزمت فتوكل على الله .. لا تتراجع ولا تخاف الحيـاة التى لا ترحب الا بالشـجاع قوى القلب .. وتسلم له عنقها راضية طائعـة .. ولا تستعصى الا على المتردد الخائف .. وانت طوال عمرك شجاع يا أسـتاذ .. لا تتردد .. وآن الأوان

لكى تعيش أيامك .. وحياتك كأى شاب .. وربنا يوفقك .. ونراك أشهر محام فى مصر كلها ..

ومد جمال يده له مصافحا .. دون تعليق .. قبل أن يهبط من سيارته .. فشد عليها الحاج سعد بحرارة واخلاص شديد .. وكأنه يؤكد كل كلامه السابق وتمتم بابتسامته الواسعة : مع ألف سلامة يا أستاذ .. أنت شرفتنا .. وحلت علينا ألف بركة .

« الفصـــل التاســـع عشر »

لم يتأخر الأستاذ جمال كثيرا فى الوصـــول الى قرار نهائى فى مسألة عمله فى المحاماة .. وهجر العمل فى النيابة العامة والتحرر نهائيا من التبعية للحكومة وميزانية الحكومة .. ويكفيه تبعيته لها أكثر من عشر سنوات .. ويبدو أن حوار أشرف معه كان بمثابة المعول الذى ازاح كل العقبات النفسية من أمامه .. ورسخ الفكرة فى ذهنه .. وفتح شـــهيته للحياة من جديد .. كان بمثابة الثقب الذى ساعده على الخروج من الشرنقة .. فلأول مرة يدرك جمال أنه .. ليس بالنيابة وحدها يحيا خريج كلية الحقوق .. وجعله يدرك أيضا .. أن المنصب وحده فى هـــذه الأيام ليس هو الأهم .. ولكن هنـــاك الدخل المرتفع .. وهناك الحياة المرفهة المرتاحة .. هناك الحياة اللامعة .. هناك الســـيارات الفارهة .. والفيلا والأجهزة الحديثـــة .. هناك الزوجة الأنيقة الجميلة وداهمة طيف نسمة .. فامتعض وعض على شفته السفلى .. وأشاح بوجهه بعيدا عنه فى استعلاء .. ثم .. واصل أحلامه .. هناك مزهريات الورد الطبيعى والصـــناعى .. موزعة فى أرجاء الفيـــلا .. هناك الستائر على النوافذ وأبواب البلكونات .. والفراندات .. بألوانها الخلابة الرائعة المتناسقة مع الوان الجدران .. هناك المطبخ النظيف اللامع .. مثل هـــذا الذى نراه فى الأفلام والمسلسلات الأمريكية .. والثلاجة الكهربائيـــة ذات البابين .. والبوتاجز ذو الفرن والشواية .. تلك الأشـــياء التى كان يراها معروضة فى المعارض فى القاهـــرة ولم يكن يلقى بالا اليها من قبل .. وسط هذه الرفاهية والسعادة .. هناك الزوجة الســـعيدة .. التى تتبختر أمامه عبر ردهات وممرات الفيلا وحجراتها .. داخلة .. خارجة .. ســـعيدة راضية بحياتها .. فخورة بزوجها .. تسأله بحنان وحب كل صباح وهم على مائدة الافطار .. ماذا تحب أن تأكل اليوم فى الغذاء يا حبيبى ؟ .. وقبلة حانية مخلصة فى الوداع .. وقلق وشوق له أثناء النهار .. وانتظار وتوتر خلف ستائر النافذة قرب موعد عودته من المحكمة .. بعد الظهر .. حتى اذا

رأت سـيارته البيضـاء تجتاز بوابة الفيلا الى « الجراج » .. دق قلبها وارتفع وجيبه .. لهفة وشوقا .. أسرع من هدير محرك السيارة .. ويظل يدق ويدق حتى تفتح له الباب فتبتلعه فى أحضـانها .. وتتحسس وجهه وشعره وجسمه .. وكأنها تطمئن على طفلها الذى عاد توا من الحضانة بعد ان غاب عنها ليوم طويل .. وبحنان وحب تأخذ منه حقيبته بيد .. وبيدها الأخـرى تصـطحبه الى حجرتهما ــ حيث دولاب المـلابس .. تناوله (البيجامة) ليغير ملابسه .. وتساعده هى فى خلع حذائه .. ثم تطلب من زوجها حبيبها بود ورقة .. أن يجهز نفسه .. ويصلى الظهر .. لأن طعام الغذاء معد وجاهز على المائدة .. وعندما يسألها ماذا أعدت من اصـناف الطعام ؟ .. تسرد على مسامعه كل الأصناف التى طلبها منها فى الصباح .. والتى يحبها كثيرا .. وهتف لنفسه قائلا : لكم أحب واشتهى المحشى كثيرا .. بالذات محشى الباذنجان .. والكوسـة .. سأجعلها تطهو لى المحشى ثلاث مرات فى الأسبوع على الأقل .. وسأكون محظوظا جدا لو كانت هى الأخرى تحب المحشى مثلى .. وفى كل أسبوع .. سنخرج معا .. وكذلك والدتى أطال الله فى عمرها .. للنزهة .. سأشـترى مزرعة صـغيرة .. لقضاء وقت الراحة فيها .. لا يهم أن تكو كبيرة .. لأن الهـدف منها ليس الاستثمار .. ولكن فقط لقضاء الأوقات والراحة بعيدا عن صخب وضجيج الحياة العصرية .. ولذا .. فان مزرعة فى حدود عشرين فدانا تكفى .. واذا أعطانى الله مالا أكثر .. فيمكن استغلاله فى اشياء ومشاريع أخرى .. واذا رزقنا الله أطفالا .. سأجعلهم أسعد أطفال فى العالم .. سأشترى لهم كل اللعب التى يريدونها ...سأحفظهم القرآن الكريم منذ الصـغر .. سأربيهم تربية اسلامية .. وسأهتم كثيرا بتعليمهم اللغات الأجنبية .. ان المستقبل فى مصر مفتوح أمام اللغات الأجنبية .. وخاصة بعد الانفتاح على العالم .. والرسول الكريم يقول (من تعلم لغة قوم أمن شرهم) .. سأحاول أن اتفرغ لهم ولو ساعة كل يوم على الأقل .. يجب أن اكون زوجا وأبا ناجحا اوازن بين نجاحى فى عملى واسـعاد أسرتى .. لا ينبغى أن يكون نجاح عملى على حسـاب حقـوق أولادى وزوجتى مثلما نرى فى مسلسـلات التلفزيون ..

وما يترتب على ذلك من فشل ودمار للأسرة وانحراف للأولاد .. ويجب أن اختار زوجتى من بيت طيب كريم .. حتى تعامل والدتى معاملة حسنة .. مثل امها تماما .. على أى حال اذا أحبت الزوجة زوجها .. فانها تحب كل أهله .. ولذلك فهى حتما ستحب أمى ..

وتذكر كلمات سعد له (كل شيء ممكن تحصل عليه فى هذه الدنيا بالفلوس) .. ان أول شرط للعمل فى المحاماة هو أن تتخلى عن تلك الطيبة المبالغ فيها .. لا تتهاون فى أى قرش من أتعابك حتى ولو كان أخوك .. عندما تحتك بالناس ماديا .. ستري الناس على حقيقتهم .. اما أن يأكل الواحد منهم حقك .. أو يقف ضدك ويعاديك .. ان أقل واحد فى البلد اليوم .. معه فلوس أكثر منك .. ومع ذلك مازلت تعطيهم الدروس الخصوصية بالمجان وبدون مقابل .. بصراحة لقد اضعت ما مضى من عمرك بلا مقابل .. لو أنك تقدمت الى نسمة لخطبتها كان العمدة سيرفضك حتما .. حتى ولو لم تكن قد ارتبطت هى بأحد آخر .. لأنك لا تملك المال الذى يضمن الحياة السعيدة الآمنة لها .. لأن اليوم .. أى أب يحلم بأن يزوج ابنته بشاب ميسور الحال على الأقل اذا لم يكن غنيا ..

وأحس جمال بالحزن على نفسه .. والسخرية لذلك الخيال المفرط الذى كان أسيرا له طوال السنوات الماضية .. ومنذ أن رأى نسمة وهى تستذكر دروسها فى حديقة الفيلا .. وهمس لنفسه مؤنبا وموبخا : لقد دفنت نفسك كل ذلك العمر فى بساتين الخيال والأمل الكاذب بعيدا عن الواقع .. وكنت سعيدا بها .. رمرتاحا لها .. كمن خدر ليهرب أو لينسى .. بينما الناس العقلاء على الجانب الآخر .. يعيشون حياتهم بواقعية كاملة .. ويحققون ذاتهم وأحلامهم على أرض الواقع .. سعد الأقرع .. الذى كنت من قبل أقتطع من راتبى واشترى ملابس لبناته لأنه مسكين وغلبان ومحتاج .. صار اليوم هو الذى يعرض على مد يد المعونة والمساعدة .. وذلك لأنه فهم الحقيقة .. ادركها قبلى وعمل لها .. لكننى استسلمت لخدعة كاذبة اسمها (حب الناس أغلى من كنوز الأرض) .. لقد أصبحت عملة مزيفة فى هذه الأيام ..

واخيرا قرر جمال فى عزم كامل أنه لابد من تحقيق أصعب الأشـــياء على الأطــلاق .. وهى : تحقيق الثروة السريعـــة .. ولكن بطريقة شريفة ونظيفة مائة بالمائة .. وقال لنفسه : أن عمره وسنه لم تعد تتحمل تجارب فاشلة مرة أخرى .. ويكفينى مافات .. ولكنه قبل أن يضع النقاط الأخيرة على حروف قراره النهائى همس لأمه مستشيرا : أمى .. ما رايك .. لقــد قررت ان أعمل فى المحاماة ؟

زهلت الأم وتساءلت وهى مشـــدوهة : والنيابة يا بنا ؟ .. ألم تحلم طوال عمرك بالعمل فى النيابة ؟

ــ لقد قررت التحرر نهائيا من كشـــف مرتبات الحكومة .. قررت أن أبنى مســـتقبلى بسرعة .. وأعيش حياتى .. وكفانى ما اضـــعته فى هذا الخنوع والاستسلام للواقع .. هل يرضيك أن أحيا أنا وأولادى داخل هذا البيت الطينى الى الأبد .. أنه ليس ببيت .. أنه مقبرة .. لابد أن اشـــق حياتى فى سرعة وقوة .. ان اقل واحد من زملائنا المحامين .. حتى الجدد منهم يدخل له فى الشهر الواحد اكثر من ألف جنيه .. معظمهم يركب السيارة .. بينما وكلاء النيابة يخرجون كرنيهاتهم لكمســـارى الأوتوبيس .. حتى يعفيهم من دفع الأجرة .. وكذلك القضـــاة .. كل منهم يذهب الى المحكمة على قدميه .. لا اريد تلك الحياة الرتيبة المملة .. والفقيرة فى نفس الوقت .. أريد الحيـــاة المرتاحة .. كفانا قناعة .. كفانا استسلاما .. كفانا زلا وتبعية للآخـــرين .. مللت التبعية .. اريد ان أكون أنا المتبـــوع .. هل فهمتينى يا مى ؟

وخافت أمه عليـــه من هذا الانفعال الذى تملكه وهو يتحدث اليها .. وصرخت فى داخلهـــا ؟ فلتذهب كل المناصـــب الى الجحيم .. وليحيا ولدها سعيدا .. صحيحا .. معافى وقالت على الفـــور حتى تهدىء من انفعاله : يا جمال ما تراه صوابا .. افعله .. أنت كبير واعلم بمصـــلحتك منى .. المهم عندى صحتك .. ربنا يطيل لى فى عمرك ..

وأراد أن يتأكد صراحة : أموافقة على هذا يا أمى ؟

— بالطبع يا حبيبى ..

— لأنى .. فى الحقيقـــة .. افكر فى أن نترك هذا الكفر .. ويكفينا ما رأيناه فيه .. لقد فكرت فى السفر والاقامة فى المنصـــورة .. المنصـــورة مدينة بها جميع أنـــواع المحاكم .. ولذلك أرى أنها انســـب مكان يمكن ان ابدأ فيه .. وفكرت أن نبيع هذا البيت .. وبالاضافة الى الألف جنيه التى ندخرها فى دفتر التوفير .. ويمكننا استئجار شـــقة فى مدينة المنصـــورة .. وابدأ تدريبى هناك .. وصمت فترة .. ثم أردف قائلا :

الم تحدثينى مرة يا أمى .. أن لك قريبا هناك .. قريبا محاميا ؟

أجابت أمه وهى تطلق اهة تذكر : آه .. اننى لم أســـمع عنه اخبارا منذ أكثر من عشر ســـنوات .. ولا أعرف ان كان حيا أم توفاه الله انه ابن خالى .. ولكن لم التق به من فترة طويلـــة .. لقد كان محاميـــا هنـــاك فى المنصورة ..

— ما اســـمه يا أمى ؟

— مصطفى ... اسمه مصطفى سعيد فاضل ..

— سأسافر الى المنصورة .. غدا — ان شاء الله — .. وأحاول أن أرتب كل شىء .. وقبلها ســـأمر على الزقازيق .. لتقديم اســـتقالتى الى التربية والتعليم للعمل فى المحاماة .. ولكن قبل اى شىء .. هل توافقين على بيع البيت يا أمى ؟

— على بركة الله يا حبيبى .. البيت بيتك .. وأنت حـــر .. وانا ضيفة عندك يا حبيبى ..

فقاطعها جمال فى تأثر وكأنه يعاتبها : ارجـــوك يا أمى لا تقولى مثل هذا الكلام مرة أخرى .. البيت بيتك أنت .. وانا هنا ضيف عندك وخادمك .. وأنت الخير والبركة .. ورضـــاؤك هو عندى اهم من أى شىء آخر .. واذا قلت لى لا تفعل فلن أفعل ..

فقاطعته بصدق قائلة : لا يا حبيبى .. لا تتراجع عن رغبتك .. واذا

عزمت نتوكل على الله .. وربنا يوفقك .. ويجعل النجاح من حظك ونصيبك يا جمال ..

وفى خلال أسبوع .. وبصورة مفاجئة .. وترك الأستاذ جمال صفى الدين وأمه .. الكفر .. دون مقدمات .. ودون ضجة .. وكأن جمال قد أراد ذلك .. حتى أنه لم يفكر فى وداع أحد .. أو السلام على احد .. وعلى راسهم العمدة نفسه .. لم يكن يعرف الا الحاج سعد فقط .. لأنه أشترى منه البيت .. وكأنه بذلك اراد جمال أن يرد الصفعة للعمدة وللكفر كله .

« الفصــــل العشرون »

زمجر الحاج سعد بزفرات نارية وهو يصرخ فى وجه أخيه الشيخ مرزوق .. وشرر الغيظ يتناثر ويتطاير من عينيه كأسد هوجم فى عرينه : أصـــدقت الآن ؟ .. أتأكدت من صدق كل كلامى عن هذا العمدة الكلب .. كنت تتهمنى دائما بأننى أهول فى الموضـــوعات .. وأننى أتهم أيوب مفتاح ــ بالحقد على ــ بالكذب .. وأن خيالى هو الذى يصور لى ذلك .. ولكن هاهو .. لقد وصل الى آخر الحد وتجاوزه .. لقد وصـــل به الأمر الى حد منع لقمة العيش عن بناتى .. لقد وصـــل به طغيانه الى محاربتى فى أكل عيشى .. محاربتى فى رزقى ورزق بناتى .. هل صدقت الآن ؟ .. أم ســـتظل تدافع عنه بعد أن ذهب أمس هو وجماعة النفاق من أقربائه الى النيابة وقدموا فى شكوى وموقعة من أهل البلد .. يطالبون فيها بوقف بناء مصنع الطوب الذى أوشك أن يتم .. بحجة كاذبة .. يدعون أن هذا المصــــنع سيسبب أضرارا كثيرة لأهل الكفر .. وأن الدخان المتصاعد منه سيلوث البيئة .. وأن وجود هـــذا المصــــنع سيؤدى الى تجريف التربة الزراعيـــة مما يؤدى الى الاضرار بالاقتصاد القومى لمصر كلها .. مصـــنع الحاج سعد هو الذى ســـيخرب لاقتصاد القومى لمصر .. هل تأكدت الآن ياشيخ مرزوق ؟ .. عندما كنت أفضى اليك من قبل بأن العمـــدة قلبه أســـود من ناحيتى .. ويحقـــد على ويحسدنى .. كنت تقول أنها مجرد تهيؤات .. ولكن الآن .. وبعد أن سجل حقده هذا فى محضر رسمى .. وقدمه الى النيابة لا يمكنك أنت .. أو غيرك أن تطعن فى صحة كلامى عن العمدة هذا ..

قال الشيخ مرزوق بصـــوت متهدج من فرط الانفعال ، وكأنه صـــدى لانفعال أخيه : اهدأ .. اهدأ .. يا حاج سعد .. من قال لك ذلك ؟ .. كيف عرفت ؟ .. هل أرسلت لك النيابة أى ..

لم يمهله سعد ليكمل كلامه بل صرخ بسخط ونفاذ صبر : أمازلت تقـــول

اهدأ ؟ .. امازلت تشــك فى مدى صدق كلامى ؟ .. امازلت تلتمس الأعــزار للعمدة الجبان هذا ؟ ..

ــ اهدأ .. لا تنفعل .. فقط أريد أن أعرف .. هل تأكدت من ذلك ؟

ــ نعم .. لقد أخبرنى أمس حسن أفندى ســكرتير النيابة .. وقال ان عمدة الكفر وكان معه ثلاثة من أولاد عمه عند وكيل النيابة وقدموا شكوى ضد المصــنع ويطالبون بوقف بنائه وهدمه .. وســمع منهم أقوالهم .. وسيرسلون لى استدعاء .. لمواجهتى بالشكوى .. وبالطبع لم أنتظر .. ذهبت الى الأســتاذ ممــدوح فراج المحامى .. واطلعتــه على كل الاوراق والمستندات الخاصة بالمصنع .. وسأذهب بنفسى الى سراى النيابة غدا .. لن أنتظر حتى يصل لى الاستدعاء .. لأن العمدة عديم الضــمير قد يضع لى فخا .. ويؤخر أو يمنع وصول الاستدعاء .. لقد طمأننى المحامى .. بعد أن اطلع على كل الأوراق والرخصة وكل المستندات التى أعطتنى الحق فى اقامة المصنع .. ووجد أنها سليمة وتؤيد موقفى تماما .. وأكد لى أن الموضــوع سينتهى فى وقته أمام وكيل النيابة .. وأن الشكوى ستحفظ فى الحال لعدم وجود المخالفة ..

فقال الشــيخ مرزوق مبتســما كأنه يهنىء أخاه على النصر : مادام الأمر كذلك .. والشكوى لن تضرك بشىء .. وكل شىء سيسير على مايرام .. ولن يتوقف المصنع .. فلماذا تغضب نفسك هكذا ؟ .. أنس الموضــوع تماما .. وكأن شيئا لم يكن .. ويكفى العمدة ومن معه خيبة أملهم ، وفشل مسعاهم فى الشر والكيد للناس .

ولكن سعد أشاح بوجهه أمام هذه الكلمات الاستسلامية .. وكز على ضروسه فى غيظ وتحد ، وهمس كأنه يتوعد : لا .. ان الموضوع لم ينته .. لقد بدأ .. لقد تجاوزت كثيرا عن أخطاء العمدة .. وسامحته كثيرا .. على أمل أن يبتعد عنى ويتقى شرى .. ولكن يبدو أن ذلك كان يشجعه ويجرئه على أكثر .. ولكن من الآن فصاعدا .. سأجعله يعرف من هو الحاج سعد أبو رزق .. لقد أعلن الحرب على رسميا .. وسأعلمه درســا لن ينســاه أبدا .. سأعرفه أن الأولاد الصغار اذا لعبوا بالنيران فلن يحرقوا الا أنفســهم ومن حولهم .. سأجعله يندم على اليوم الذى ولدته أمه فيه .. سأجعله يتنازل

لى عن العمدية وبطيب خاطر .. مهلا يا أيوب .. لقد أوقدت نار الحرب .. ولابد ان يبقى منا واحد .. انا او انت .. وسابقى أنا .. لن اجعل النوم يزور عينيك من الآن فصاعدا .. ساحاربه كما حاربنى .. فى رزقه فى ماله .. فى شرفه .. لو ادى الأمر الى تسميم بهائمه .. لو أدى الأمر الى خطف بنته .. لو ادى الأمر الى حرق محصوله .. لو أدى الى ....

وبسرعة مد الشيخ مرزوق يده مكمما فم أخيه .. صارخا فيه ومحذرا اياه بعنف وفزع : هل جننت ياسعد ؟!! .. ماذا جرى لك ؟!! اياك أن تتفوه بمثل هذاالكلام امام اى مخلوق .. والا قد يسمعه أى واحد على خلاف مع العمدة .. ويعتدى هو عليه وتلبسك التهمة .. وأنت لن تعمل شيئا .. ولن تسوى أى شيء .. ولكنك تهدد فقط .. انت أخى وأنا اعرفك جيدا .. قلبك ابيض ولن تؤذى احدا .. تملأ الدنيا زعيقا وصياحا .. وبعد ذلك تهبط على لا شيء .. اياك ياحاج أن تتفوه بهذا الكلام مرة ثانية .. انه كلام خطير ..

وأنزل يده من فوق فم أخيه .. وهمس سعد فى تحد مكتوم : لا .. الطيب هذا .. والقلب الأبيض هذا .. كان فى الماضى .. كان قبل أن يمد العمدة يده جهارا نهارا ليسرق اللقمة من أفواه بناتى .. والله .. والله .. سأجعل أصغر طفل فى كفر مفتاح يضحك عليك ياعمدة الكفر .. وأنا وراءك والزمن طويل .

ولم تمض أيام قليلة حتى اسفر التحقيق فى النيابة عن خيبة أمل العمدة ومن معه ممن قدموا الشكوى فى الحاج سعد .. وصدر قرار لصالح سعد بأحقيته فى استكمال المصنع .. وبالطبع لم يترك سعد هذه المناسبة تمر دون الكيد للعمدة ومن معه .. فقام بزف عجلين وذبحهما مدعيا أن ذلك لوجه الله .. ووزعهما على أهل الكفر .. ونزل مدينة فاقوس واحضر فرقة من مدينة فاقوس .. وعمل ليلة ذكر (بالميكرفون) .. وعلى أنغام الموسيقى وصوت المنشد يصدح حتى آذان الفجر .. وبين الفينة والفينة كان الحاج سعد ينتزع (الميكرفون) من يد المنشد ويجأر بصوته المتشفى على الملأ :

اللهم انصر الحق على الباطل يارب .. اللهم اخزل الباطـل واهله .. ومن خلفه يؤمن الذاكرون رواد أمثال هذه الليالى .. آمين يارب .. آمين يارب ..

ولم يكتف بذلك الحاج سعد .. بل ســأل المحامى اذا ما كان يمكنه رفع دعوى تعويض على العمــدة على أســاس هذا البلاغ الكاذب .. فقال المحامى ممكن رفع الدعوى ولكن نجاحها غير مؤكد .. فطلب منه سعد رفعها على العمدة قائلا : لايهم النتيجة .. المهم ان يصل الى العمدة اعلان على يد محضر .. ويذهب الى المحكمة .. سأحاربه نفسيا .. لن اترك له فرصــة للراحة .. سأجعله ينسى النوم و

ولم يكتف سعد بذلك ايضا .. بل أطلق اشاعة فى الكفر — مســتغلا حب الناس لجمال — ودهشتهم لتركه الكفر فجأة .. « بأن الأســتاذ ترك الكفر وفر منه بعد أن شتمه العمدة هو وأمه وأهانه .. لأن جمال طلب منه الزواج من ابنته نسمة .. فى ثانى يوم نجاح الأستاذ .. مما ســبب المرض لجمال وكاد يودى بحياته .. ولقد صــارحنى جمال بذلك .. والدليل على صحة ذلك أن العمدة ســافر هو وأسرته ليســتمتعوا بقضاء الصــيف فى الاســكندرية .. وتركــوا الأســتاذ مريضــا .. معتقــدين أنــه سيموت .. وعندما رجعـوا ووجدوه حيا .. هدده العمـدة بأنه ان لم يترك الكفر ويرحل منه حالا .. والالن يحميــه من بطشــه وعذابه أحد .. ولأن الأستاذ غريب وليس له أحد يحميه هنا .. خاف على نفسه وعلى أمه .. وصارحنى بالحقيقة .. فقلت له أنا ممكن اقف معك فى وجهه كما وقفت معك فى مرضك .. ولكنه قال أنا لا اريد مشاكل .. ولكن فقط .. لو تعمل معى معروفا .. تشــترى منى هذا البيت .. كى أرحل سرا من الكفر .. وأنجو بنفسى وامى .. واضطررت ان اشــترى منه البيت بأكثر من ثمنه الحقيقى .. حتى نرد لهذا الرجل الذى قدم الخير للجميع .. وقدم المساعدة لكل بيت فى الكفر .. نرد له جزءا من الجميــل .. لكن نحافظ على جزء من صــورة الكفر هذا مشرقة وحلوة فى ذاكرته .. بعد أن طرده منه العمــدة .. كما لو كان هذا الكفر بأرضه وناسه ملكا له ولأجداده » ..

ولم يصـــدق الناس فى أول الأمر .. وراحوا يرتبـــون الأحداث خلف بعضها .. فوجدوا أن الاشاعة تحمل بين جوانبها كثيرا من الحقائق والصحة .. والذى رجح صحتها هو خروج جمال الفاجىء من الكفر دون أن يسلم على أحد منهم .. رغم أنه كان يعتبر نفسه واحدا منهم .. وكذلك مرض جمـــال الفاجىء عقب ظهور النتيجـــة .. فعلا فى اليوم الثانى من ظهور النتيجة .. وعدم مساعدة العمدة له فى مرضه .. وسفره هو وأسرته الى الاســـكندرية .. كل هذه الأحداث بعد اعادة فهمها على ضوء الاشاعة التى أطلقها الحاج سعد .. رسخت صـــدق ما قاله الحاج ســـعد فى قلوب الناس .. ففارت قلوبهم بالحنق والغضب على العمدة .. وازداد الناس حزنا على فراق جمال وأمه .. وكان أكثرهم حنقا على العمـــدة وتحديا له هم شـــباب الكفر .. ومعظمهم من تلاميذ الأســـتاذ .. تساءلوا فى غضـــب وثـــورة : كيف يمكن للعمدة أن يهدد أو يطرد أى انسان من الكفر ؟؟!! .. فى أى عصر نحن ؟؟

واستعد كل واحد منهم للتحرش بالعمدة فى أى مناسبة .. وأصـــبحت الوجوه المتجهمة ، والمتعضة المتعالية فى تحد .. هى التى تلاقى العمدة أينما ذهب فى الكفر .. وصار الناس يردون عليه الســـلام .. بطريقة جافة .. مفرغة من معانى الاحترام والتقدير ..

((الفصـــل الواحـــد والعشرون))

شيئا فشـــيئا .. بدأ يزحف القلق الى ارجاء فيلا العمـــدة .. فهاهو الموعد يقترب .. والدكتور محسن خطيب نسمة لم يتصل بهم .. ولم يتصل بهم أحد من أسرته للاعداد وللترتيبات الواجبة لعقد القران .. كما حدد له سلفا .. فلم يبق على الموعد المحدد غير أسبوع واحد فقط .. ولم يتصـــل بهم احد .. وعندما اتصلوا بزوج أخت الحاجة صـــفية الأستاذ أحمد .. والذى يعمـــل مســـجلا فى كليـــة الزراعة بالزقازيق مع نفس الدكتـــور .. ويستفسرون منه عن السبب .. انكر معرفة السبب .. فى هذا التأخير .. ووعدهم بأن يتصل بالدكتور أو بأسرته لمعرفة السبب .. ولأنهم فى العطلة الصـــيفية .. ومجىء الدكتور الى الكلية قليل جدا ، لذلك سيذهب لزيارته فى بيته .. ويعرف السبب .. ولعل المانع خير ..

ولكن .. ها قد مضت أربعة أيام .. على ذلك الوعد .. ولم يتصـــل بهم ايضا الأستاذ أحمد ..

وكان أكثر من بالفيلا قلقا هى الحاجة صفية .. تلك التى تعمدت نشر خبر الخطـــوبة بسرعة فى الكفر حتى قبل قـــراءة الفاتحة .. والتى تمت فى الاسكندرية عند ابنتها .. ابان مرض جمال .. مراعاة لشعور جمال وأمه والكفر كله .. واستطاع العمـــدة أن يقنع الحاجة صـــفية بذلك .. بعد أن كانت مصممة على ان الأصول يأتى العريس الى بيت العروس .. لكى يتعرف علينا وعليها فى بيت ابيها .. لا فى بيت أختها .. ولكن العمدة تعهد لها بأن يوضح للدكتور محسن الأســـباب .. على أن يحدد له ولأسرته زيارات بعد ذلك الى الكفر .. وبعد أن يشـــفى جمال ويقف على قدميه .. وبالفعل جاء بعدها الدكتور محسن هو وأسرته .. فى ســـيارتين .. تظهر عليهما مظاهر العظمـــة والعز والأبهه .. وكان ذلك حديث أهل الكفر لعـــدة أيام .. حيث وقفت السيارتان أما باب (فيلا) العمدة من قبيل الظهر وحتى بعد العصر ..

حيث تناولوا جميعـــا الغـــذاء .. وذهبوا بعدها .. وفى ذلك اليوم .. تم الاتفاق على كل شىء .. وحددوا موعد عقد القران .. على أن يتم الزفاف بعد ذلك .. فى عطلة نصف العام الدراسى القادم .. ان شـــاء الله .. وبعد أن تؤدى نسمة امتحان الجزء الأول من العام ..

ولكن مما بعث التوتر فى أنفس ســكان (الفيلا) .. أنه لم يبق على الموعد الآن غير ثلاثة أيام فقط .. ولم يتصل أحد من بيت الدكتور .. وكذلك لم يرد عليهم أيضا احمد زوج أخت الحاجة .. ليوضـــح السبب فى ذلك كما وعدهم منذ اربعة أيام ..

وفكر العمدة فى الذهاب الى بيت الدكتور بنفسه يســتطلع الأمر .. فربما كانت هناك بعض الظروف الصـــعبة التى يمر بها الدكتور أو أحد من اسرته .. ويحتاج لمن يقف بجواره فى مثل هذه الظروف الصـــعبة .. أو قد يكون مريضا .. أو .. أو ..

وسارعت الحاجة صفية بتأييد وجهة نظر العمدة وعزمه على الســـفر والذهاب بنفسه فورا ودون انتظار .. معللة ذلك بأننا أصبحنا أسرة واحدة .. ولابد أن نكون معهم ..

وبقت نسمة متحفظة .. صامتة فى قلق .. فلقد أخبرت كل صديقاتها فى الزقازيق وفاقوس .. وأخبرتهم جميعا أنها سوف تدعوهن قريبا لحضور عقد قرانها .. ولم تخف مدى تعلقها به واعجابها بشخصيته .. وكم حكت لهن وأفاضت عن مدى حبه لها وتعلقه بها .. وبعد ذلك كله ..

وصـــمتت برهة .. وقطعت بسرعة الطـــريق على فكرة ملعونة مؤلمة أوشكت أن تشق طريقها ، وتصـــل اليها .. واشاحت بوجهها بعيدا عنها هامسة فى شك : كل انسان وله ظروفه الخاصة .. كل ما أعرفه أن محسن قادم .. أن شاء الله قادم .. ولن يخلف وعده ..

وتذكرت اعجابه العميق بها .. هذا الذى لاحظته منه عندما كانا معا فى الاسكندرية .. وكيف كانت عيناه ــ رغم رزانته وحضور أفراد الأسرتين ــ

تمعنان النظر اليها طوال الوقت غير عابىء بمن حوله .. وكأنه كان مخلوب اللب .. وزادت ابتسامتها اكثر وازداد احساسها بالطمأنينة عندما وثب الى خاطرها قوله اليها .. اننى متأكد تماما أن الله يحبنى فعلا .. وعندما سألته بخجل : لماذا ؟ رد برقة وعذوبة : لأنك ستكونين زوجتى يا نسمة ...

وبينما هم كذلك يتشاورون فى امكانية ذهاب العمدة الى منزل الدكتور محسن لتحرى الأمر والوقوف بجواره ان كان هناك ما يستدعى ذلك .. اذا بهدير محرك سيارة يقترب من (الفيلا) .. ثم يتوقف تماما .. وتطلق آلة التنبيه عدة مرات .. فدبت الحركة والنشاط فى (الفيلا) .. واستبشر الجميع .. وتفاءلوا خيرا .. وهتفت الحاجة صفية فى فرح ونشوة لم تخفهما : لابد أنه الدكتور ياحاج ..

فصاح العمدة بسعادة هو الآخر : اللهم لك الحمد والشكر .. لقد اراحنى من المشوار ..

ورقص قلب نسمة فى صدرها فرحا .. وأخرجت لسانها فى تحدو كيد صبيانى لتلك الظنون التى أوشكت أن تنقض على رأسها وتفكيرها منذ قليل ..

ونهض العمدة من فوره .. وراح يعدل من هندامه بين يدى الحاجة صفية قبل أن يتوجه مسرعا الى البوابة لاستقبال الزائر الغالى الحبيب .. بينما انزلقت صفية ونسمة كل منهما الى غرفتها .. حيث دولاب الملابس .. والمرآة .. و (المكياج) .. بينما أذانهما تتلقفان الأصوات القادمة من الخارج للتعرف على اصحابها .. وهل اتى الدكتور بمفرده أم أتى معه احد من عائلته ؟ .. وبدأت الأصوات تقترب شيئا فشيئا .. حتى اتضحت تماما .. وتبينت الحاجة صفية أن الدكتور لم يات .. وانه لم يات غير أختها زينب وزوجها الأستاذ أحمد .. وأصاخت الحاجة صفية السمع اكثر بعد ان فتحت الباب قليلا حتى لا يحجب عنها اى صوت .. ولكنها لم تتبين معهما أحدا آخر .. ولذلك أرتدت ملابسها العادية بسرعة .. ولم تكمل كل اناقتها .. لهفة منها لمعرفة الأخبار .. ولأن اختها وزوجها ليسا غريبين عنهم .. وخرجت اليهما دون تباطؤ .. بادية عليها كل علامات السعادة والشوق

الحقيقى .. وقبلت أختها فى شوق وترحيب وسلمت على زوجها .. وجلس أربعتهم فى (الانتريه) .. وأحضرت الشغالة الشربات للجميع .. باسمة فرحة هى الأخرى ..

بينما كانت نسمة تواصل حيرتها امام خزانة ملابسها .. اى فستان ترتديه ؟

كانت صفية ، وزوجها العمدة يتفرسان فى وجهى وعيون القادمين .. ويودان ان يقرأ افكارهما وكل الذى فى صدورهما فى لهفة قبل ان ينطقا به ..

ويبدو أن الأستاذ أحمد أحس بذلك .. فلم يشأ ان يتركهما نهبا للظنون والقلق .. ولذلك نحى كوب الشربات الذى فى يده جانبا .. ونهض مشيرا للعمدة .. وطلب منه أن يدخلا معا حجرته .. لأنه يريد أن يتحدث معه .. فاستجاب العمدة ناهضا هو الآخر .. وقد بدا عليه شىء من الارتباك لهذا الطلب المفاجىء .. ودلفا الحجرة معا ..

أحست صفية بغصة على أثر ذلك .. واكفهر وجهها ، وخطفت المفاجأة لون الورد من على وجنتيها .. فهبت واقفة هى الأخرى .. وأسرعت بالجلوس ملاصقة لأختها .. ولم تصبر .. بل سألتها فى توتر : خيرا يا زينب .. ماذا جرى ؟

وفى حجرة المكتب الخاصة بالعمدة .. كانت أول كلمة قالها له الأستاذ أحمد متحرجا ومترددا : بالطبع .. انت تعرف يا عمدة أن الزواج هذا بالذات قسمة ونصيب .

وهنا .. هرب الدم من عروق العمدة .. وتغير لونه .. مأخوذا بهذه البداية التى لا تنم عن خير .. فرد بعد أن ابتلع ريقه الذى صار انشف من الحطب فى فصل الصيف .. وشفتاه توشكان أن تخوناه وترتعشان : بالطبع .. بالطبع يا أحمد .. خيرا .. ماذا حدث ؟ .. خيرا ؟

تمهل أحمد قليلا قبل أن يواصل كلامه ونبرة الحزن تلونه : فى الحقيقة .. أنا ذهبت الى الدكتور محسن بنفسى .. فى نفس اليوم الذى اتصلتم فيه (تليفونيا) .. والحقيقة كانت مفاجأة لم أكن أتوقعها ابدا .. لقد طلب منى أن ابلغكم أنه صرف نظره عن مسألة الزواج .. وأنه يعتبر نفسه ويعتبركم فى حل من الفاتحة .. وعندما حاولت معرفة السبب .. لم يبد أى سبب على

الاطلاق .. ولم يزد عن قوله بأن الزواج قسمة ونصيب ..

وصمت الأستاذ أحمد هنيهة .. وبعد أن تنهد واصل قائلا : وفى الحقيقة أيضا لم أيأس .. ولم أسلم من أول مرة .. وذهبت اليه مرة ثانية .. واعتقد أننى أعطيته مهلة من الوقت وقد يكون أعاد التفكير مرة أخرى .. وقد تكون هناك أى فرصة لمعرفة السبب وراء كل ذلك .. ولكننى عبثا حاولت .. بل تظاهر — فى قلة ذوق — بأنه مشغول واستأذن فى الخروج لارتباطه بموعد سابق .. وطبعا لم أترك تصرفه هذا يمر دون أى تعقيب .. بل اسمعته ما اشفى غليلى .. لأن نسمة هى بمثابة بنتى تماما ..

ولم يفعل العمدة أكثر من تنكيس وجهه فى الأرض وهو يستمع .. كأنه يوارى حزنه بعيدا عن مرأى أحمد .. و

وتمهل أحمد قليلا قبل ان يواسيه قائلا : على أى حال يا عمدة أنا باحمد الله .. لأن ربنا انقذ بنتنا نسمة من وقوعها مع هذا المجنون .. لا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل طبيعيا ..

رفع العمدة وجهه الى أحمد بعيون منكسرة وسأله بصوت جريح : ألم يوضح أى سبب يا أحمد ؟

— أبدا .. أبدا .. والله ياحاج أيوب .. والله العظيم .. أنا باشكر الله من كل قلبى .. لأنه انقذ نسمة فى الوقت المناسب .. وفعلا ربنا كان معها .. ولولا أن نيتها صافية .. وقلبها نظيف ما أنقذها الله من هذه الورطة فى الوقت المناسب .. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ..

وهز العمدة رأسه هزات عمودية من أعلى الى أسفل موافقا على كلام أحمد ومصدقا عليه قائلا : حقا .. الحمد لله .. لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع .. الحمد لله .. هو الخاسر .. بنتى نسمة ألف شاب يتمنى تراب رجليها .. وأنا عن نفسى .. لم اكن موافقا تماما على زواجها هذا الا بعد أن تكمل دراستها الجامعية تماما وتحصل على شهادتها .. الشهادة اليوم تعتبر الآمان الحقيقى للبنت فى هذا الزمن الأغبر .. الشهادة هى سلاح يحمى البنت ضد الظروف .. وأنا لن أعيش لها طول العمر .. انها لم تزل فى السنة الثانية بعد .. أمامها .. ما لا يقل عن سنتين حتى تنهى دراستها ..

- صـــدقت يا عمـــدة .. كلامك مضبوط مائة بالمائة .. فعـــلا تنهى دراستها أولا .. ثم بعد ذلك يأتى الزواج .. الشهادة سلاح يحمى البنت ..

وأمســـك كل منهما عن الكلام .. وأطبق السكون على كل الحجرة .. ما لبث أن قطعه الأستاذ أحمد منبها للعمدة : هيا بنا ياعمدة نجلس معهن .. لقد تأخرنا عليهن ..

وأحس العمدة بظهره قد كسر لأول مرة .. وأن قدميه لم تعودا قادرتين على حمله .. وهجمت عليه أسئلة شتى تريد أن تفترســـه .. ماذا ســـيقول لنسمة ؟ .. ماذا سيقول لأهل الكفر الذين علموا .. بفضـــل اذاعة الحاجة صفية بأن خطيب ابنتها أستاذ فى الجامعة .. فى كلية الزراعة .. وعنده مائة فدان .. ويافرحة الأعداء .. ويا شماتة سعد الأقرع ..

وخرجا من الغرفة واتجها الى حيث تجلس صفية وأختها .. وقد خيم عليهما الوجوم والهم .. فانضما اليهما .. وجلس الجميـــع غرقى فى بحر من الصمت .. وبسطت الكآبة السوداء جناحيها على كل المكان ..

وما هى لحظات .. حتى أقبلت نســـمة هاشـــة باشـــة .. وعيناها الجميلتان تشرقان بوهج الفرحة والسعادة .. وكلها آذان تود سماع الأخبار السعيدة .. وأسنانها البيضاء تتلألأ من بين ابتسامتها العريضة المرحة .. مرحبة باخلاص وشوق وحب بخالتها وزوج خالتها .. وما أن دنت من الجمع واقتربت منهم .. حتى سرى اليها احساس مغاير .. مختلف .. له شـــكل الخوف ويدب دبيب الحذر .. ولكنها تماسكت وتمالكت نفسها .. وســـلمت على خالتها وقبلتها .. وهى تتفرس فيهم جميعا .. وجلســـت معهم دقائق معدودة .. ومن خلال الابتسامات الباهتة المصـــطنعة .. وكلمات الشـــوق التقليدية المعتادة .. ومســـحة الحزن التى كســـت وجهى أبيها وامهـــا .. استطاعت أن تحرك أشـــياء كثيرة .. أقلها أن الزواج لن يتم فى موعده .. وأوشكت أن تسأل عن الدكتور محسن وعما جرى .. ولكن حياءها العذرى الريفى .. وخوفها وفزعها من أن تسمع خبرا يقتلها .. جعلها تمسك عن طرح أى سؤال .. ولكنها لم تستطع الاستمرار فى مجلس الكآبة الغامض هذا .. فاستأذنت من فورها .. وقفلت راجعة الى حجرتها .. دخلتها .. وأوصدت خلفها الباب ..

((الفصـــل الثانـــى والعشرون))

دلف العمدة الى داخل (الفيلا) عائدا من المسجد بعد صـــلاة العشاء ، بينما كان يعتصر من شدة الضيق والكآبة لتلك الأحـــوال التى تغيرت وتبدلت .. وهذه المصـــائب والمحن التى طفقت تنهال على رأســه مرة واحـــدة .. وبالجملة .. ففى أول الأمر ينتصر عليه سعد الأقرع .. ويكسب التحدى .. ويبنى مصنع الطوب الأحمر الذى سيخرب على الكفر وأهله حياتهم .. ولم يقلع الأقرع عن التغمز والكيد .. ويقيم ليلة لوجه الله بالذكر و (الميكرفون) ويذبح الذبائح ويصرخ على الجميع من خلال (الميكرفون) بأن الله نصر الحق على الباطل .. ولا أســـتطيع أن أفعل أى شىء تجاهه .. لأنه اخذ على تعهد أمام وكيل النيابة بعدم التعرض له .. مدعيا بأننى واقاربى ســـنتحرش به ونعتـــدى عليه ولنفق له التهم .. ثم يرفع دعـــوة فى المحكمة يطالبنى فيها بالتعويض .. والله أعلم بماذا سيكون الحكم فيها .. ثم يأتى موضوع فسخ خطوبة نسمة .. من جانب الدكتور الأهبل هذا .. ودونما ســـبب يذكر .. ودونما مقدمات ..وأمر من هذا وذاك .. تلك الوجوه المتجهمة ، الناقمة التى تواجهنى فى كل كان .. فى الطريق .. فى المسجد .. أينما ذهبت أو حللت تبصق فى وجهى الجباه المقطبة والكلمات المقتضبة المرة كالعلقم ..

واجتاز المدخل الى الصالة .. فوجد الحاجة صفية قابعة بمفردها .. وسحابة الحزن لم تزل تظلل ملامح وجهها المهموم منذ أن سمعت حكاية فسخ الخطوبة من أختها زينب فى الأســـبوع الماضى .. ولم تفلح الأيام الســـبعة الماضية التى مرت عليها فى انتزاع جذور الأسى والحيرة من أعماقها ..

ولم ينتبه العمدة الى أن باب حجرة نســـمة ليس موصـــدا تماما ولكنه موارب بعض الشىء .. وبدر منه ســـؤال للحاجة ــ بعد أن ألقى التحية ــ كأنه يطمئن : أين نسمة ياحاجة ؟ .. لماذا لا تجلس معك ؟

فأجابت صفية بنبرة مفعمة بالهم والأسى : ناعسة .. فى حجرتها ..

الحمد لله بدأت تعبر المفاجأة والصدمة بسلام .. حسبى الله ونعم الوكيل فى هذا الدكتور المجنون .. والله ياحاج .. لا أخفى عليك .. رغم مرور الأسبوع على معرفتى الخبر هذا .. وانا لم أستطع ان أستوعب الموضـــوع .. ولم أتخيل انه ممكن أن يحصل أو حصل بالفعل .. ومن غير ســـبب ؟! .. شىء غريب ياحاج .. هل هذا معقول ؟

ـــ الحمد لله ياحاجة .. ربنا وقف معنا ومع نســـمة .. وأظهره على حقيقته لنا فى الوقت المناسب وقبل أن تقع الفأس فى الرأس .. كما يقـــول المثل .. وهذا من لطف الله بنا .. وقبل أن يتم عقد قران أو زواج أو أولاد .. لكن الحمد لله .. المشكلة الآن سهلة وبسيطة .. أو بمعنى أصـــح لا توجد مشكلة على الاطلاق .. هو مجرد أمل لم يتحقق .. ولكن فى مثل هذه الأوقات ينفع الايمان صاحبه .. والا ما فائدة أن يكون الانسان مؤمنا .. يؤمن بالقدر خيره وشره .. وما اختاره الله للعبد خير مما اختاره العبد لنفسه .. وجائز جدا .. بل أكيد هذا الزواج لم يكن فى صالح بنتنا نســـمة .. وأنت تعرفين مدى صفاء نيتها وسلامة طويتها .. ولذا فان الله يعطيها الخير دائما .

ـــ صدقت ياعمدة .. الحمد لله .. ربنا يعوضها خيرا عنه .

ـــ لماذا ياحاجة .. لم أعد أرى ســـعاد بنت محمد أبو حســـين ؟ .. صديقة نســـمة .. لم تعد تأتى لزيارتها .. ؟ .. حاولى ياحاجة تخـــرجى نسمة من عزلتها هذه .. لابد أن تخرج عن صـــمتها هذا .. خلى نســـمة تذهب اليها لزيارتها .. أو ترسل اليها .. لا يجب أن نتركها هكذا .. هذا خطر على البنت .. لابد لها من فتاة من ســـنها .. تكلمها تفضـــفض اليها بمكنونات نفســـها هناك أشـــياء ياحاجة تحرج البنت تكلم فيها أهلهـــا .. لا ينبغى أن نترك سمة بمفردها فى مثل هذه الظروف .. وحاولى أن تفهميها أن ما جرى لمصلحتها .. ولأن الله يحب لها الخير .. وأنقذها من زواج محكوم عليه بالفشـــل قبل أن تتورط فيه .. والحمـــد لله أنها مازالت على البر ولم يجرفها التيار ويغرقها ..

كانت نسمة تستمع الى هذا الحوار الذى يدور بين أبيها وأمها من خلال

الباب المنفرج قليلا .. بينما كانت مستلقية على فراشها محاولة تهيئة نفسها للنعاس والنوم الذى هرب منها فى الأيام الماضية .. لدرجة أنها تخيلت نفسها مثل القنفـــد الذى لا يزور عينيه النوم الا نادرا جدا .. واذا كان القنفذ يفعل ذلك بطريقة طبيعية وعادية .. ودون الاحســـاس من وراء ذلك بالاجهاد أو الهدة والتعب .. الا أن نسمة قد هدت فعلا وأصابها السهر والأرق بالضعف والاجهاد .. وأوشكت حبال التفكير المفتولة بقســـوة من الحيرة والدهشة أن تشنقها وتكتم أنفاسها على مقصلة لماذا ؟ .. وكيف ؟ .. لماذا .. وكيف ؟ .. ولماذا جعلها تحس بأنه متيمبحبها وخاصة عندما كانا معا فى الاسكندرية ؟.. وكيف ســـــتوضح لصـــديقاتها ــ التى مدحته لهن من قبـــل فى شـــخصه وشخصيته ــ كيف ستوضح لهن بأنه انسان غير طبيعى وأرعن ؟ .. لماذا فكر فى خطبتها وتسرع فى اتخاذ القرار اذا لم يكن قد درس القرار والفكرة جيدا ؟.. وكيف ستكمل دراستها وهو مدرس بنفس الكليـــة ؟ .. وفكرت فى أن تنتقل نفسها للدراسة فى كلية زراعة أخـــرى .. فى أبعد كلية زراعة بحيث لا تقع عيناها عليه مرة ثانية .. فهى لم تعد تطيق رؤيته أو سماع اســـمه بعد هذا الموقف الجبان والصـــبيانى .. فكرت فى أن تتوقف عن الدراســـة وتبقى فى البيت .. ولكنها على الفور رفضت الفكرة من أساســـها .. ان الامتناع عن الدراسة ليس هو الحل للمشكلة .. بل هو البداية لمشـــاكل كثيرة .. ولن تفعل مثل أختيها الكبريين .. تكتفى بالثانوية العامة .. وتتزوج .. الشهادة بالنسبة لها تعنى أشياء كثيرة ، أهمها جميعا الاستقلال والاعتماد على النفس .. ان ثروة أبيها .. مهما كثرت ، وهى قليلة ــ لن تفيـــدها بقدر ما تفيدها الشـــهادة .. البكلوريوس هو الذى يجعلهـــا تحس بالأمان والطمأنينـــة مع المستقبل .. المال يأتى ويذهب .. وليس له صديق دائم وليس له عدو دائم .. ولذا فمن الخطأ الاعتماد عليه فى مواجهة المستقبلومصارعة الزمن .. ولكن قدرات الانسان الشخصية والخاصة جدا وأهمها العلم والشهادة الدراســـية هى التى تمثل درعا قويا فى مواجهة مشاكل ومصائب الزمان وليس لاعتماد على المال أو زوج غنى قد يترك زوجته فى أية لحظة كما فعل هذا الدكتور وبدون ابداء الأسباب .. ولذلك فهى لن تفكر فى ترك الدراسة ابدا ..

وصرخت لنفسها موبخة ومستنكرة : هل يستحق هذا المجنون كل ذلك الحزن والتفكـــير منى ؟!! .. ثم هتفت فى عزم واصرار : لابد أن أتخلص من ذلك تماما .. يكفينى ما أخذ التفكير والقلق منى .. لابد أن أنتزع نفسى قصرا من تلك الدوامة التى أبتلعت كل حياتى لمدة اسبوع كامل .

هبت من رقادها فى تكاسل .. ألقت بساقيها على أرضية الحجرة .. وجلست على حافة السرير .. واطرقت برأســها الى اسفل مرتكزة بذراعيها على حافة السرير الذى أمتلأ بالضيق والضجر لطول رقادها عليه مفكرة مهمومة شاردة .. وراح يوخزها وكأنه يدفعها دفعا للنهوض والرحيل عنه .. ولذلك فقد فكرت فى أن تنهض لتجلس مع أبويها فى (الصالة) .. وتشاركهما الحديث .. وتنأى بهما وبنفســها عن هذا الموضـــوع الذى لوث الفيلا بدخان الحزن وبدون طائل او فائدة ترجى .. وقبل أن تنهض أسترقت الســمع .. لتتأكد أولا أن أبويها لا يتحدثان فى أمر خاص جدا بهما .. وحتى لا تســبب لهما حرجا .. فسمعت اباها يتحسر بصوت مســموع : آه ياحاجة .. كان أيام الراحة قد ولت وذهبت .. انى أشعر بضيق شديد ياحاجة .. لســت أدرى بالضبط .. أى مصيبة أواجه ؟.. ولا أى مصيبة اتجنب ؟.. سعد الأقرع من جهة .. والدكتور الأبله من جهة أخرى .. والناس .. الناس اســلوبهم فى التعامل معى قد تغير .. لم يعودوا كما كانوا من قبل .. كل واحد منهم صار يتخاطب معى بدون حب .. بدأت أحس بأن الناس اصبحت تكرهنى .. بل وتنزعج لمجرد رؤيتى قادما من بعيد !!.. كما لو كنت قد أسأت اليهم .. كما لو كنت قاتلا أباهم .. آه لو أعرف تفسيرا لكل ذلك ..

قاطعته الحاجة صفية بصوتها العذب الحانى وكأنها تواسيه : لا تفكر فى مثل هذه الأشياء يا عمدة .. كل تلك الأحاسيس ماهى الا أحاسيس كاذبة .. تأكد أن كل الناس فى الكفــر تكن لك كل حب وكل احتــرام .. ولكن لأن تلك المشاكل قد هجمت عليك مرة واحدة .. فى مثل هذه الظروف يعتقد الانسان ـــ خطأ ـــ أن معاملة الناس قد تغيرت معه ولكن الحقيقة غير ذلك تماما .. ولماذا تكرهك الناس لا قدر الله ؟.. أنت مازلت تقدم الخير للجميع .. وتهب لنجدة

المحتاج .. ولا أعتقد أنه يوجد أى انسان فى الكفر يتعاطف مع ســـعد الأقرع .. بل على العكس من ذلك تماما .. كل الناس غاضبة لأن وكيل النيابة صرح له باستكمال البناء .. لأنهم جميعا يقدرون مدى الضرر الذى سيجلبه عليهم هذا المصـــنع .. وســـتثبت لهم الأيام ذلك .. ولكن على أية حال دع الأمر كله لله ..

وسادت فترة من الســـكون .. لم ينبس العمدة فيها ببنت شفة .. بل أطرق مفكـــرا للحظات .. ثم رفع رأســـه قائلا ، كأنه عثر على ســـبب تلك المشاكل والغم الذى يسبحون فيه : والله كل ما أخشاه ياحاجة .. أن تكون كل تلك المصائب ذنب الأستاذ جمال وأمه ..

وصرخت الحاجة بصوت محتج وكأنها تدافع عن نفســـها : وماذا فعلنا نحن لجمال وأمه .. هل طلبوا منا شيئا وقلنا لهما لا ؟

فرد العمدة معاتبا : يا صـــفية .. أنت لم يكن لك الميل والهوى فى أن يتزوج جمال من نسمة ..

وانتفضت نسمة منتبهة للحديث .. وبدأت تركز وتســـترق السمع .. وأدركت أن مكانها هذا لا يســـعفها .. فهبت واقفة فى هدوء .. وتســـللت لخطوتين .. واقتربت من باب حجرتها الموارب .. ودارت نفسها خلفه .. حتى لا يلحظ وجودها أحد ..

وواصل الحاج أيوب حديثه النادم : عندما لاحظت أن جمـــال مهتم بنا جدا .. وخاصة فى ليلة نجاحه .. ولقد قلت أنت أيضا بأن أمه قد ألحت لك أكثر من مرة وخاصة فى ليلة نجاح جمال برغبتهما فى أن يتزوج جمال نسمة .. وعندما أدركت أنهما على وشك أن يتكلما معنا فى هذا الموضوع .. جهزت لهذا الموقف .. وادعيت بأننا قرأنا الفاتحة مع الدكتور محســـن .. رغم أن ذلك لم يكن قد تم بعد .. ولكنه كان مجـــرد تعارف بســـيط .. ولم نكن قد التزمنا مع محسن هذا بأى شىء .. والولد المسكين جمال يبدو أنه كان متعلقا بنسمة لدرجة كبيرة جدا .. لأن المسكين مرض فى نفس اليوم الذى جاءت فيه أمه اليك .. وأفضيت اليها بحكاية تمام الخطبة وقراءة الفاتحة .. والحمد

لله .. ربنا ستر .. كان الولد سـيضيع منا .. كانت صـدمة كبيرة له ..
وعندما شفى من الصدمة .. وأدرك أن الخبر صحيح .. لم يستطع التحمل
.. ورحل عنا وعن الكفر كله دون ان يسلم على أحد .. وكأنه شعر بأننا كنا
نضحك عليه ونخدعه وأننا ظلمناه .. أنا أكثر واحد فى العالم يفهم جمال ..
جمال انسان حساس جدا .. ورقيق و ..

وقاطعته الحاجة صفية بحدة وانفعال شديد وهى تشيح بكلتا يديها فى وجه العمدة : ماذا جرى يا عمدة ؟ .. ومن جمـال هـذا الذى تريد ان تزوجه لابنتك ؟ هل لديه القدرة على توفير المسكن المناسب لها ؟ .. أو يجعلها تعيش مثل عيشتها فى بيتنا .. ؟

— سيعمل فى النيابة .. وراتبه سـيكون كبيرا .. ومكانته بين الناس ومنصبه ممتاز .. و

وأسرعت الحاجة ساخرة : والله لو صـار مستشارا .. فى نهاية الأمر سيكون موظفا ليس له أى دخل غير راتبه فقط .. والمرتب لا يكفى صـاحبه أكثر من نصف الشـهر .. وبعدها يمد يده ليتسـلف من الناس .. وظروف جمال المادية أنت تعلمها اكثر منى .. ليس عنده أى دخل آخر .. وأنا لا أعتقد أنه لايملك حتى فلوس المهر والشبكة .. وأنت تعلم فى قرارة نفسك بأن جمالا ليس هو الرجل المناسب لنسـمة ماديا .. ولذلك وافقتنى على رأيى عنـدما عرضت عليك الفكرة وكيف سـنتخلص من احـراج جمال وأمه ولم تعترض ليلتها .. ولم تعقب بأى شئ .. وتأتى الآن وتريد أن تحملنى المسئولية ..
قال العمدة وهو يتحسر ويندم كمن ضاعت منه فرصته الذهبية : يا حاجة .. جمال كان طيبا وشـابا مهذبا .. كان رجلا يعتمد عليه .. وأنا بدأت اشـعر بالكبر فى السن .. ولم اعد أحتمل .. أصبحت فى حاجة الى شاب مثل جمال كزوج لابنتى .. وابنى .. يقف بجوارى .. لا يشعر الانسان بقيمة الأولاد الا عندما يكبر فى السن .. ويشعر بعجزه أمام تحقيق بعض الأمور .. يحتاج الرجل منا الى من يعينه ويساعده باخلاص وحب ودونما هدف خاص أو طمع .. كان نفسى أطمئن على بنتى نسمة قبل أن أموت و ..

واسرعت الحاجة صفية مقاطعة للعمدة فى خوف وفزع وعتاب : بعد الشر عنك يا عمدة .. ماذا جرى يا عمدة .. لا تردد مثل هذا الكلام .. ربنا يطيل لنا فى عمرك وانزعجت نسمة .. ووجف قلبها ودعت لأبيها فى سريرتها : بعد عنك الشر يا بابا يا حبيبى .. وأطال الله لنا فى عمرك ..

وسادت فترة صمت اخرى .. بعد أن ظللت على المكان كله غمامة من الغم والأسى .. قطعها العمدة بقيامه من مكانه متثاقلا .. قاصدا حجرة نومه .. ليغير ملابسه .. ويرتدى جلباب البيت الذي يتيح له فرصة أكبر من الراحة والحرية فى الحركة .. سائلا : طعام العشاء جاهز يا صفية ؟

ــ جاهز يا عمدة ..

ــ شوفى .. ان كانت نسمة صاحية .. خليها تاتى لتناول الطعام معنا ..

ــ ان شاء الله يا عمدة ..

وبخفة وسرعة .. عادت نسمة الى فراشها .. وتمددت فوقه بهدوء .. وتظاهرت بالنعاس .. عندما سمعت أقدام أمها تقترب من باب حجرتها منادية عليها لتوقظها .

ولم تستطع نسمة أن تستمر فى تناعسها هذا عند أول نداء لأمها .. .. فلقد احست أنها أصبحت محورا للهم والحزن فى هذا البيت .. وأنها تجلب عليهم جميعا أسباب الألم والنكد .. ولذلك قررت فى لحظة أن تواجه نفسها .. وتواجه مشاكلهم .. كلها .. وأدركت أنها لم تعد الطفلة المدللة .. تحمل من حولها بهمومها ومشاكلها وتنام هى هاربة فى سريرها .. لذا .. هبت من رقادها المصطنع هذا .. وجعلت تلملم شعرها الناعم الأسود الجميل داخل (اشاربها) الأبيض .. كما حاولت أيضا لملمة كل مظاهر ومشاعر الهم والقلق من فوق وجهها المتعب .. حتى تبدو أمام أبويها سعيدة راضية كخطوة أولى للتفريج عن قلبيهما .. وحتى تتمكن من ادخال الراحة والسعادة الى هذه الفيلا مرة ثانية .. وحتى تحول دون سماع آهة ألم او

حزن من أبيها مرة أخرى .. وخاصة لو كانت تلك الآهة بسببها هى .

جلست نسمة ثالثة لأمها وابيها .. الى مائدة العشاء .. وبالرغم من أنها قد قررت أن ترسم الابتسامة على شفتيها والسعادة على محياها .. وتسرى عن والديها ببعض الحكايات الخفيفة الظريفة المرحة .. حتى تدعو البسمة الى شفاههما .. وتنأى بقلبيهما بعيدا عن كل المنغصات .. وعن ذلك الجو المشحون بالأسى الملون بالهم والامتعاض .. الا أن ذلك الحوار الذى اختلسته من بين شفاه أبيها وأمها منذ دقائق .. قد جذبها بعنف وبلا رحمة الى دوامة جديدة .. غير تلك الدوامة التى كانت تبتلعها من قبل .. انها المرة الأولى التى تسمع فيها عن حكاية جمال هذه .. وهل كان يحبها الى تلك الدرجة .. الى درجة أن يمرض ويشرف على الموت .. ولكننى لم الحظ منه شيئا من قبل ينم على هذا الحب المدعى .. فى المرات القليلة التى تقابلت معه لم أر منه غير كلمات سريعة .. مقتضبة .. فى خجل .. كأنه يهرب من أمامى .. لم يلمح لى بأى شىء يدل حتى على مجرد اعجابه بى .. حتى أمه .. كانت تجاملنى بكلمات كثيرة .. وكنت اجاملها أنا ايضا بكلمات كثيرة .. لكن موضوع الحب هذا جديد على سمعى وعلى تفكيرى .. فلم يخطر فى بالى من قبل أن احب جمال أو أتزوجه .. كنت فقط اقدره كشاب مهذب .. ابن حلال .. بار بأمه الفخورة به .. مكافح .. طموح .. ذكى .. متفوق .. يحب الخير للجميع ــ كما كنت أسمع من أبى وأمى وأهل الكفر جميعهم .. لكن أحيانا كثيرة .. كنت أشعر تجاهه بالرثاء له والشفقة عليه .. لأننى أحسست أكثر من مرة أن مظهره وطموحه العظيم لا يتحملهما هذا الكفر الصغير المحدود .. كنت أشعر تجاهه .. ومن خلال كلام أبى عنه .. وكذلك من خلال أمه المبهورة به .. والتى كانت تردد بأنه يريد أن يكون مذيعا .. ومرة أخرى يريد أن يكون محاميا وأخيرا قرر ان يكون وكيلا للنيابة .. كل هذا الكلام كان يوحى لى بأن جمال هذا له مستقبل ممتاز .. ولكن هذا البيت الطينى الريفى .. كأى بيت عادى لأحد الفلاحين البسطاء .. مثل هذا البيت لا يتسع لكل تلك الآمال والطموحات .. ولتلك الأحلام الكبيرة .. كنت شعر بأنه يشبه لوحة ذهبية .. صنعت من الذهب

الخالص .. ولكن لسوء الحظ وضـــعت داخل اطار خشبى قديم .. كان من الأفضل له ان يعيش وامه فى مدينة كبيرة واســـعة .. وفى شقة نظيفة .. مملوءة بالأثاث الجيد .. أحيانا كنت أشـــعر ناحيته باللوم .. واســـأل نفسى : لماذا يقبل بتلك الحياة البسيطة دون تمرد ؟!

ولكن بالرغم من ذلك كله .. لم اشـــعر ولو لمرة واحدة انه يحبنى او يتمنانى زوجة له .. وكذلك أنا .. لم يخطر ببالى ابدا أن جمالا يمكن أن يكون زوجا لى وابا لأولادى .. وفجاة .. ودون سابق تمهيد .. يســـقط الستار عن هذا البركان المتفجر بالحب .. يجرف أمامه كل شىء .. ويكتسح امامه شبابه وصحته .. بل يحمله هو وأمه بعيدا عن الكفر .. هذا الكفر الذى عاشا فيه ، ومع اهله فترة طويلة حتى أصبحا من أهله هما ايضا ..

ولامت أمها وأباها .. لماذا خبأ عنها هذا الموضوع .. لم تعرف به الا الليلة فقط .. ورفعت عينيها الســـوداوين الى أبيهـــا معاتبة على ذلك .. فلاحظت صمته وتراخى تعبيرات وجهه وتداعيها كأنها اغصان شجرة غضة حرمت من المياه .. وشعرت بالشفقة تجاهه .. وســـيطر عليها أحســـاس بالذنب .. انها السبب فى كل هذا .. لابد أن تصلح ما أفسدته .. وعن لها خاطر سريع ماذا لو سردت عليهما تلك القصة المضحكة التى وقعت لسعاد صديقتها منذ شهر تقريبا .. ولكن قبل أن تنطق بكلمة واحدة .. ســـمعت أباها يقول وهو ينهض من على المائدة : الحمد لله رب العالمين .. منهيا بذلك طعام عشائه ..

فصاحت الحاجة فى رجاء وتوســـل : اكمل طعامك ياحاج .. أنت لم تأكل شيئا .. ونظرت الى صـــحنه واردفت قائلة : أن طعامك كما هو .. لم تأكل منه شيئا يا عمدة !

لكنه لم ينتظرها حتى تكمل كلامهـــا .. بل رد عليهـــا وهو يتجه الى حوض الغسيل : الحمد لله .. الحمد لله .. لقد اكلت على قدر شـــهيتى .. حتى الطعام أصبح طعمه مرا فصاحت نسمة فى اســـتعطاف رقيق مشـــوب بالبكاء — بعد أن احست أن مشكلتها هى الســـبب — والنبى يا بابا تكمل طعام حضرتك . لو سمحت .. من أجل خاطرى ..

فرد أبوها عليها بحنان شديد : وحياتك يا بنتى .. لقد شـــبعت .. لقد أكلت على قدر طاقتى .. ولا أستطيع الزيادة أبدا ..

وزاد وجه الحاجة صفية امتقاعا وقنوطا وتنهدت فى توتر وهى تردد : ربنا يستر .. ربنا يستر وتمر هذه الأيام على خير ..

فتساءلت نسمة وكأنها تجهــل : ماذا هناك يا أمى ؟ أهناك ما يحزن بابا — وينكد عليه ؟ ردت الحاجة صفية فى ســـأم وأسى : يا نسمة يابنتى قولى أهناك شىء لا يحزن بابا وينكد عليـــه ؟ .. الناس .. الناس فى هذه الأيام .. صاروا مختلفين عنهم بالأمس .. مختلفين عن الناس فى الماضى .. الناس فى هذه الأيام أصبحوا قساة .. ســـفلة .. غدارين .. ناكرى الجميل .. كل واحد منهم نسى أصـــله .. اليوم .. العبد يريد أن يحكم سيده .. أو ينتقم منه .. الصـــغير اليوم عايز يركب الكبير .. وتلاشى من عند الناس كل الأدب والحياء والخجل .. و ..

وقاطعتها نسمة فى عجلة : ماذا جرى يا أمى ؟

— ماذا أقول .. وماذا أحكى لك يا نســـمة ؟ .. الكلام كثير والهم كثير .. ولكن الله كبير وموجود .. وربنا يستر مع بابا فى هذه الأيام ..

ترددت نسمة للحظات قبل أن تقول فى أســـف واعتذار : أخشى يا أمى أن يكون .. موضوعى .. أقصد .. موضوع فسخ خطبتى هو السبب فى هذا كله .. أخشى أن أكون أنا السبب فى كل هذا الحزن والهم الذى يسيطر على البيت ..

وتمهلت هنية .. صمتت فيها .. وكأنها تستجمع كل قواها وشجاعتها لتصدر قرارا تاريخيا وهاما : أمى .. أنا لم أعد اهتم بموضـــوع فســـخ الخطوبة ذلك .. لقد نسيته تماما .. أصـــارحك الحقيقة .. أنا لم أتعلق بالدكتور محسن هذا أبدا .. ولكن سبب حزنى وغضبى فى الأيام السالفة .. هو تلك الحيرة التى وضعنى فيها أمام الناس .. ولكن فى الحقيقة .. فى فترة عزلتى ووحدتى فى حجرتى استطعت أن أضع النقاط على الحروف .. وأحلل كل مشاعرى .. وأحدد أين الخطأ بالضـــبط .. والحمد لله .. لقد

هدانى الله الى السبيل السليم لمواجهة تلك الحيرة .. واستطعت أن انتصر على كل المخاوف التى كانت تهاجمنى .. وتخلصت منها تماما .. ولم تعد تمثل لى أية مشكلة .. وسأستأنف دراستى كالمعتاد فى كلية الزراعة بالزقازيق .. بعد اسبوعين .. واذا قابلنى فى طريقى .. أو حتى فى المحاضرات .. فسأتجاهله تماما .. كأننى لا أعرفه .. وهكذا كما ترين قد رتبت كل شىء .. ونسيت الموضوع نهائيا .. فاذا كنت أنا صاحبة الموضوع الرئيسية .. قد نسيت الموضوع .. فلماذا يؤثر عليكما أنت وبابا الى هذا الحد .. أنا كل أملى الآن أن تنسى أنت وبابا هذا الموضوع نهائيا حتى لا تشعرانى بالذنب .. ماما .. لو جرى لبابا أى مكروه لا قدر الله — لن أسامح نفسى طيلة عمرى لقد بدات الحظ عليه أنه على غير عادته .. لم يعد يأكل كما كان .. سارح دائما .. لم يعد يضحك أو حتى يبتسم مثل ذى قبل .. مهموم .. زهقان .. بالله يا أمى لا تجعلانى اشعر بالذنب والجرم أكثر من ذلك ..

قاطعتها أمها وهى تنهى طعامها ايضا : يا نسمة يا حبيبتى .. الموضوع لس هو موضوع خطبتك وحده .. موضوع الخطبة هذا واحد من الموضوعات .. ولكن هناك الكثير والكثير .. سعد الأقرع هذا مثلا .. يقف فى مواجهة بابا العمدة الآن .. يجاهره العداء .. بلا خجل أو حياء .. سعد الأقرع الذى كان يعمل عندنا علافا للماشية .. لم يكن من قبل يجد لقمة العيش ليأكلها .. كان اذا رأى والدك العمدة قادما من بعيد أقبل عليه مهرولا ..ويصمم على ان يقبل يده حبا له واعترافا بفضله ..ويطلب منه فى توسل ومسكنة حمل قش من ارز أو قطن .. سعد الأقرع هذا كان أبوك يتصدق عليه هو وبناته .. الآن يقف لبابا العمدة وقفة الند للند .. يكيد له ويغيظه ويسبب له المشاكل .. وها هو مستمر فى بناء مصنع الطوب الأحمر الذى سيخرب اراضى الكفر اكثر من خرابها بسبب هجرة الفلاحين منها للعمل فى الدول العربية .. سيقوم بتجريفها — عديم الضمير — ويتركها بركا من المياه الراكدة .. وسيتوالد على سطحها البعوض وما يترتب على ذلك من الأمراض والملاريا .. وعندما تعاون اهل الكفر مع ابيك وكتبوا شكاوى

للمسئولين لمنع هذا الخطر المتوقع .. استطاع سعد الأقرع أن يتوصل الى المسئولين ويرشوهم .. وبأساليبه الملتوية أستطاع ان يحفظوا كل الشكاوى التى قدمت .. وتم السماح له بتكملة المصنع وبنائه .. وربنا يستر من الأضرار التى سيجلبها على الكفر .. ولم يكتف بذلك .. بل ترك كل اهل الكفر .. وأدعى أن أباك للعمدة يريد ان يحاربه فى رزقه ورزق بناته ــ كما يدعى ويشيع ويشنع علينا فى كل مكان على أمل أن يستدر عطف الناس وتعاطفهم معه ــ ومن ثم رفع دعوى على أبيك فى المحكمة .. وتحددت لها جلسة بعد اسبوعين .. يطالب اباك بتعويض عن الأضرار التى اصابته من جراء تلك الشكاوى الكيدية .. وبالطبع بدون توقيع وبخط غير خطه .. مرة من مخلص أمين .. ومرة اخرى من مواطن صالح .. وهكذا من وقت الى آخر يذهب بابا وبعض من أقاربه الى مركز الشرطة لسماع أقوالهم فى تلك الشكاوى المجهولة .. وبتهم مختلفة .. مرة يقول أن العمدة وأقاربه بالاشتراك مع كاتب الجمعية الزراعية والمهندس الزراعى يستولون على السماد والكيماوى المرسل للفلاحين بدون وجه حق ليبيعوه فى السوق السوداء .. ومرة أخرى يزعم بأن العمدة يستغل سلطته ويفرض على الأهالى اتاوة .. ويأخذها منهم تحت التهديد .. من مختلف أنواع التهديد .. ابتداء من حرق محاصيلهم الى تعطيل مصالحهم التى تتم عن طريقة كعمدة .. وهكذا مستمر فى تلفيق التهم لأبيك .. لا يتوقف ولا يكل .. وابوك لا يريد أن يتهم الأقرع بالبلاغ الكاذب .. لأنه ليس لديه الدليل القوى على اسناد تلك الشكاوى له لأنه كما قلت لك من قبل ان الخط ليس خطه .. بالرغم من أن الجميع متأكدون أن سعدا هو الشخص الوحيد وراء كل هذه المصائب ..

كل هذا يا نسمة يحدث لأبيك العمدة .. أبيك العمدة الذى لم يتوان فى يوم من الأيام عن تقديم المساعدة والخدمة للصغير قبل الكبير فى الكفر .. لم يتأخر عن بذل روحه عن طيب خاطر لكل من دق على بابه .. وأولهم سعد الأقرع هذا .. وبعد أن كانت الكلمة كلمته فى الكفر .. لا يخطو أحد خطوة دون أن يستشيره ويأخذ رايه .. ولا تحل اى مشكلة فى الكفر من دون

ان يكون رأى ابيك ووزنه هو العامل المؤثر الأول فى الحل للمشــكلة .. كان يقع فى الكفر اكبر المشاكل والمنازعات .. والشجار وتسيل الدماء بين الناس .. وبكلمة واحدة من ابيك تحل كل الموضوعات فى الدوار .. دون أن يفكر احد منهم فى اللجوء الى قسم الشرطة .. بل على العكس .. كان مجرد ذكر مركز الشرطة شيئا مرعبا .. وكان ابوك يهدد به الطرف المعاند المشاكس .. لكى يجبره على قبول الحل والتصـــالح مع الطرف الآخــر والا حــول الموضوع الى المركز .. وكان مأمور المركز يقدر أباك ويحترمه .. لأنه يعتبر من اكفأ وأنزه العمــد فى المركز كله .. فكما تعلمين ان أباك ينفق من جيبه ومن ماله على الناس .. والحمد لله لم يمد يده أبدا للحرام .. ولم يطمع فى مال احد .. ولم يخطــر فى باله قط أن يتقاضى اى مقابل على الخــدمة التى يؤديها ــ كما يفعل بعض العمد ــ لكنه كان دائما يقول أننى اشعر بسعادة كبيرة اذا حلت مشكلة على يديه .. والرسول عليه الصــلاة والسلام يقول « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيــا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة .. ومن ستر مسلما فى الدنيا ستره الله فى الدنيا والآخــرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »

وبعد ذلك .. ينقلب الحال .. اليوم .. العيال الذين ســافروا الى الدول العربية فى مشرقها ومغربها .. بعد سنة أو سنتين يرجعون ومعهم كم الف جنيه .. وأول شىء يفكر فيه .. هو ان يضــع رأسه برأس ابيك .. وكان ذلك نذر عليهم ويوفونه .. وهكذا الناس فى الكفر اذا كثرت فلوسهم قل احترامهم لكبارهم .. وصار أقل نزاع يسارعون به الى مركز الشرطة .. أو النيابة .. وكأنهم يترفعون بذلك عن أبيك .. فهو قد كان مناســبا لهم عنــدما كانوا فقراء .. ولكن الآن ــ وبعد ان زادت الأموال معهم ــ ضربوا به وبهيبتــه عرض الحائط .. واذا نهروهم فى المركز قائلين لهــم بضرورة حل المشكلة عن طريق العمدة يصرحون ببســاطة .. لكى يمرروا شكواهم ان عمدة الكفر منحاز للخصــم أو ان العمــدة لم يعد يحل أو يربط .. وبالتالى يسيئون الى أبيك سواء بقصد أو بدون قصــد .. ويوما بعد

يوم .. أصبح المركز يضج بشكاوى أهل الكفر .. وصار المأمور يلمح لأبيك بكلمات .. معناها انه لم يعد كما كان من قبل .. وأنه لم يعد قادرا على حل مشاكل الناس فى الكفر .. وبصراحة أنه لم يعد كفئا كما كان من قبل .. وأبوك حاول أن يفهمه .. ويوضح له بأن العيب ليس فيه .. ولكن العيب فى الناس الذين تغيروا بعد أن كثرت فلوسهم .. تمردوا على كل شىء .. حتى على العمدة .. العمدة هو العمدة .. ولكن الناس بعد أن زادت فلوسهم بصورة لم يحلموا بها من قبل ضلوا وطغوا واستغنوا حتى عن أقرب الناس اليهم .. حتى عن الناس الذين يحبـون لهم الخير وصـدق العظيم اذ قال « كلا ان الانســان ليطغى أن رآه اسـتغنى » ويحاول جاهدا فى كل مرة أن يبرر للمأمور .. ولكن المأمور لا يريد أن يسمع المبررات .. ولكن ينظر الى أكداس الشكاوى الواردة اليه من الكفر ثم يردد مرة أخرى فى لوم وتأنيب : العمـدة الكفء .. هو الذى يحل مشـاكل أهل بلده دون أن يعلم بها مركز الشرطة .. أو النيابة .. ودعوهم للمشاكل الكبيرة ..

ويظـل بابا هكذا حائرا بين لوم المأمور وجحـود الناس فى الكفر من ناحية أخرى .. وماذا يفعل هو .. هل يذهب ويضرب عليهم أبوابهم .. ويرجوهم ان يأتوا اليه فى الدوار ليحل لهم مشاكلهم ؟.. كانت المشاكل من قبل تأتى اليه فى الدوار يحملها أصـحابها بأنفسهم .. راضـين الحكم الصادر من العمـدة مقدما .. وقبل أن يصـدره .. لأنهم يثقون فى نزاهته وعدالته .. أو لأنهم كانوا فقراء .. ويبحثون عن لقمة العيش بصعوبة .. وليس لديهم وقت للمشاغبة والجرى فى المحاكم .. ويتمنون حل مشكلتهم .. حتى ولو على حسابهم .. ولو يتنازلون من جانبهم .. وكانوا دائما يرددون المثل القائل « يا بخت من يبيت مغلوبا .. ولا يبيت غالبا » .. لكن اليوم يا نسمة يا بنتى .. وبعد أن ادفأتهم الأموال الكثيرة الواردة اليهم من الخارج أو التى اقتنصوها وسلبوها من عملهم فى المهن الحرة وخاصة المعمار الذى ازدهر على أكتاف الأموال الورادة من الخارج .. اليوم تغير المثل .. وأصبحوا يرددون « ان كان عدوك نمله .. ما تنام له » .. وهكذا يا نسمة .. كل هذه التغيرات التى اجتاحت نفسيات الناس الضعيفة .. وما ترتب

عليها من تغير مشاعرهم واحترامهم وتقديرهم للعمدة .. بالاضـــافة لأعمال سعد الأقرع .. وايضا موضوعك .. كل ذلك يغرق اباك فى هذا البحر من الهموم والسأم .. والقلق .. لدرجة أنه صارحنى منذ أيام .. وفى لحظة يأس من صلاح الحال .. بأنه يريد أن يترك العمدية .. وبالطبع أنا رفضت ولم أؤيده . قائلة له فى استفزاز : هل يريد أن يصـــبح ســـعد الأقرع عمدة عليك وعلى الكفر ؟ .. فانزعج وصرخ : الموت أهون على من أن يأتى مثل هذا اليـــوم ..

وكانت نسمة تستمع الى أمها وقد بدا عليها التأثر البالغ والانزعاج الى حد أن اغرورقت عيناها الجميلتان بالدموع وهمست فى صدق : لا يجب أن نترك بابا وحده هكذا .. فى مثل هذه الظروف الصـــعبة يا ماما .. انه يوشك أن يمر بحالة من الاكتئاب .. يجب أن نقف بجواره لا نتركه لحظة واحدة .. ان أصـــعب شيء على النفس البشرية هو مقابلة الخير والمعروف والأيادى البيضاء منها بالجحـــود والنكران من الآخرين .. ولكن هـــذه هى متغيرات الحياة دائما ونفوس الناس الضـــعيفة التى جبلت على التنكر .. والحقد .. وبأى وسيلة لابد أن نشارك بابا ظروفه الصـــعبة ونسرى عنه ونهون من شأنها ..

فردت الحاجة صفية وهى ترنو الى حماس نسمة واصرارها على تحمل المسئولية معهم مما جعلها تشـــعر بالغبطة : حقا يا حبيبتى .. هذا ما يجب ان نفعله .. لا يجب أن نترك بابا وحيدا ولو للحظة .. وخاصـــة فى مثل هذه الظروف ..

« الفصـــل الثالث والعشرون »

انزاح عن الكفـــر الســـلام الاجتماعى .. صـــارت الحرب الباردة والســـاخنة احيانا هى العزف الأحمر .. الذى تنعق به البوم كل مساء .. فوق غصون جافة .. لأشجار خشبية رمادية .. كأنها هياكل من تراب جاف .. بعد أن هجرها أصحابها .. مســـافريى الى الخارج وموكلين أمر العناية بها الى نسائهم وأطفالهم .. بينما كان الحزن .. الشجن يتصاعد ليليا .. مع نقيق ذكور الضفادع التى استعمرت تلك المساحات الشاســـعة من البرك والمستنقعات التى راحت تفتح فمها فى شراهة ونهم وقســـوة لتبتلع اللون الأخضر الذى كان يحتضن هذا الكفر فى يوم من الأيام .. بعد أن جرفها سعد الأقرع واغتصب تربتها الصالحة للزراعة .. مستخدما اياها فى صـــناعة الطوب الأحمر من وابوره الذى بدأ فى العمل رغم أنف الجميع وعلى رأســـهم عمدة الكفر نفسه منذ أكثر من عامين .. تاركا مكانها منخفضات وحفرا .. صارت مرتعا للمياه الجوفية .. ترشـــح فيها وتتجمع .. وترتفع فى هدوء .. وصمت .. وتتواكب فوق سطحها المزبد الآسن جيوش جرارة معادية من البعوض .. وصـــار كل بيت فى الكفر يحتفظ بأقراص « الكنين » تحســـبا لمرض الملاريا الذى اقتحم عليهم حياتهم وصحتهم ..

واشعل الحاج سعد جذوه حب الثراء السريع فى نفوس الفلاحين .. حتى يســـتدرجهم واحدا بعد الآخر لبيع تراب أرضـــه له .. فبرر لهم أن الأرض الزراعية لم تعد تأتى بالخير كما كانت من قبل .. فلا يوجد عمال لفلاحتها . بعد أن هرب العمـــال الزراعيون الى الأقطار العربيـــة .. والى أعمال المعمار والبناء .. وخاصة أعمال الأسمنت المسلح .. وان ظل منهم بعض الأوفياء .. أو عديمى الطمـــوح .. فانه يغالى فى أجره .. ويطالب باضعاف الأجور المعروفة .. مستغلا بذلك حاجة الناس اليه .. وبذلك لم يعد يغطى ثمن المحصول والناتج من الأرض .. القســـم الأكبر من تكاليف

الزراعة والعمل الزراعى .. فى نفس الوقت الذى تستولى فيه الحكومة على المحاصيل بأسعار تحددها هى .. ولا يبقى للفلاح الا القليل القليل .. بعد أن يسدد للجمعية الزراعية حقها من .. سلف زراعية مؤجلة بالفوائد .. ثمن البذور المنتقاة .. ثمن المبيدات الحشرية المستوردة من الخارج والتى كونت ما يشبه الألفة بينها وبين الحشرات الزراعيـــة المصرية .. فلم تعد تتأثر بها .. واذا قلنا للمسئولين لا نريد تلك المبيـــدات .. يتهموننا بأننا نريد أن نخرب اقتصاد البلد .. ورغما عن أنوفنا .. نأخذها .. وندفع ؟؟ بالاضافة للسماد وغيره من المستجدات مرة يقولون هذا جبس زراعى ضرورى لتحسين التربة .. ومرة أخـــرى يقولون هذا مبلغ مطلـــوب على كل فدان مساعدة لصندوق المحافظة .. ومرة ثالثة يقولون هذا المبلغ مخصـــوم من المحصول مساهمة فى بناء جامعة الزقازيق .. وهكذا .. حتى أصبحنا نخاف من اليوم الذى نبيع فيه محاصيلنا .. بدلا من أن نفرح ونستبشر خيرا كما كان من قبل .. لأننا نعرف مقدما أن الثمن سيوزع كله على ديون الحكومة فى الجمعية التعاونية الزراعية وكذلك على الدائنين الآخرين من الأهالى الذين يتلمظون ليوم بيع المحصول ليستوفوا حقوقهم .. ويظل الفلاح منا مرتجفا قلبه خائفا من ألا يكفى ثمن المحصول لسداد كل الديون ..

وبعد تلك الكلمات الناقمة على الأرض الزراعيـــة وما أصـــابها ، وما أصاب اصحابها يصرخ الحاج سعد فى وجوه مستمعيه طالبا التأييد : أليس كلامى هذا صحيحا ؟ فيهز الفلاحون رؤوسهم فى مرارة ويأس : قائلين : كل كلامك .. صحيح ياحاج .. لكن ماذا نفعل هذا أمر الله .. ونحن صابرون لحكم الله .. وبشر الصابرين ..

فيقاطعهم صارخا فى وجوههم : الا الصابرين على الذل وعيشة العار تلك التى تعيشونها ويشعر البعض منهم بامتعاض وينســـحب لا يلوى على شىء .. بينما يشتعل بعضـــهم نقمة على الزراعة وما تدهورت اليه وعلى عيشة العار هذه الذى يحياها كما يقول الحاج سعد .. فيسارع ببيع تراب أرضه للحاج سعد بعد أن اغراهم بأثمان مضـــاعفة عن الأســـعار المألوفة والمعتادة لمثيلاتها ..

وانطلق كل واحـــد منهم يفكر فيما يفعله بثمن الأرض تلك التى باع ترابها للحاج سعد .. وأخذت الحيرة تلف عقولهم .. بعضهم يفكر فى شراء جرار زراعى بالتقســـيط .. لأن ثمن الأرض لن يكفى لشرائه بالكامل .. ويعمل عليه بنفسه .. والبعض الآخر يفكر فى شراء سيارة .. سيارة نصف نقل .. مثل سيارة الحاج ســـعد .. ويجعلها ســـيارة أجرة .. ينقل فيها الناس بين مدينة فاقوس وبين الكفر والقـــرى المجاورة .. والبعض الآخر يقول ان هذا كله ليس مضمونا .. لأن شراء الجرار أو السيارة بالتقسيط سيجعلهم يشعرو نبالهم الدائم .. لأنه سيكون مضـــطرا لســـداد الديون والأقساط من ايراد السيارة أو الجرار .. فاذا تصـــادف وتعطل الجرار أو السيارة .. فمن اين سيسدد الأقســـاط ؟ .. ويصرخ فى نفســـه متأففا .. معنا الفلـــوس ما فى راحة .. ما معنا الفلوس ما فى راحة .. وبعد اعمـــال الفكـــر .. وبعد طحن راســـه وعصرها بين رحى التوقعات والحســـابات والاحتمالات .. وما كان وما سيكون والمكسب والخســـارة .. يهديه تفكيره الى أن أفضل الطرق والوسائل لاستغلال هذه المبالغ هو .. الحصول على عقد عمل فى الخارج .. نعم .. هذا هو أضمن شىء .. هناك بعض الناس فى القاهرة والزقازيق يبيعون تلك العقود .. آه لو امكن التعرف على واحد من هؤلاء وشراء عقد عمل منه .. يكون الله بذلك قد رضى عنه .. وتكـــون طاقة القدر قد فتحت له .. وسيقول وداعا للفقر الى الأبد .. ولا يبعد أن يصبح فى يوم من الأيام مثل سعد .. الحاج ســـعد .. ان الله الذى أعطاه قادر على أن يعطينا ..

وهكذا أصبح سعد الأقرع هو المثل الأعلى لكل الفلاحين المطحونين .. كل واحد منهم لم يبق له من أمل أو هدف الا الحصول على المال .. وبأقصى سرعة .. فأيام العمر معدودة وكل الناس ربنا أكرمها ورضى عنها عدانا .. وشرع يتملكهم القلق والتوتر .. وسقطوا فى الهوة السحيقة من الآمال المادية التى حفرها لهم الحاج سعد .. وانعكس ذلك كله على طباعهم وسلوكهم .. وعلى تعاملهم مع الآخرين .. سواء مع أسرهم أو جيرانهم أو أصحابهم

.. فلم يعد الهدوء هو طبعهم كما كان .. ولم يعد التسامح كما كان من قبل يسود اخلاقهم ويسيطر على تعاملهم على من حولهم .. ولكن أعصـــابهم المشدودة كاوتار الأقواس المشدودة تأهبا لانطلاق ســهم .. كانت تجعلهم يثورون على أتفــه الأســباب .. وتنشــب النزاعات والمنازعات حتى بين الأصدقاء .. وصار النوم شــيئا بعيد المنال عن أعين الفلاحين الذين طالما ناموا ملء أجفانهم وعيونهم .. تلك التى اصبحت مركزة فى حقد وأمل على سعد .. الأقرع .. الحاج ســعد ابو رزق .. وعلى هذا الســعد والهناء والثراء الفاحش الذى ينعم ويسبح فيه .. وكيف يحققون مثله ؟ .. وكيف يصلون اليه ؟ .. وهل هو حظ مثل حظ قارون ؟.. أم هو شطارة ؟.. أم هو حسن التفكير والرأى والعقل الذكى ؟..

ولم يضيع الحاج سعد الفرصــة كعادته .. فلم يتركهم نهبا للحيرة والقلق والتفكير .. بل وجدها الفرصــة المواتية لجذبهم نحــوه .. و .. ابعادهم عن العمدة لأن أمله فى الحصول على منصــب العمدة قد بدأ يمد جذوره داخل نفســه .. ولذلك بدأ فى التخطيط ليجعل من نفسه ليلة القدر لكل هؤلاء الطامحين .. وراح يساعد كل واحد منهم الى ما يريد .. وفى كل حالة هو الرابح دائما .. ففضلا عن انضــمامهم اليه وبعدهم عن العمــدة .. الا انه لم يغفل مكسبه المادى كالعادة .. فها هو يتقدم الذين قرروا شراء السيارات او الجرارات ضــامنا لهم عند شركات البيع بعد أن تم البيع عن طريقه وأخذ الضمانات الكافية بحيث يسحب الجرار أو السيارة اذا عجز عن دفع الأقساط .. فى نفس الوقت الذى ربح منه مالايقل عن ألف جنيه من كل واحد دون أن يشعره بذلك موهما اياه بأن هذا الفرق فى الســعر هو بمثابة عمولة للبنك على أقساط ..

واستطاع أيضا التعرف الى أحد هؤلاء الســماسرة الذين يتاجرون فى العقود وتأشــيرات .. وجعل من نفســه وكيلا عنه .. ويأخذ العقــد منه بخمسمائة جنيه .. ويبيعه للفلاحين بألف جنيه .. وشــجعهم على ذلك زاعما .. ومؤكدا لهم بأنهم خلال فترة وجيزة من الغربة والبعد عن الأهل

والوطن .. ســيرجعون محملين بالأموال ويحقق كل منهم كل آماله وآمال عائلته .. وفى نفس الوقت يستمر فى اغراء واغواء المتنعين عن بيع أرضهم وصار بيع الأرض والسفر الى الخارج وباء انتشر بين سكان الكفر .. ولم يرفض الانسياق وراء سعد الا من يخاف المجهول والمغامرة .. أو من يحبون ارضــهم .

وفى أثناء ذلك كله لم يتراجع الحاج سعد عن الاستمرار عن الكيد للعمدة وأقاربه .. وخاصــة أولئك الذين يشــتركون فى مجلس ادارة الجمعيــة الزراعية .. وكثرت شــكاويه .. وراحت تنهال على كل المســئولين .. مستغيثا بهم مســتجيرة بعدالتهم .. حتى وصــلت الى رئيس الجمهورية نفسه .. والى كل اقسام وزارة الداخلية .. من مباحث عامة ، وجنائية ، ومكافحة المخدرات .. والتزييف والتزوير .. وأصبحت الشكاوى الموقعة من المخلص الأمين والمواطن الصالح .. تكاد تكون يومية أمام المســئولين .. البعض منها من ســعد ضد العمــدة وأقاربه .. والبعض الآخر من أقارب العمدة الذين رفضوا الانصياع لأوامر العمدة ورجائه بعدم الرد على ســعد الأقرع بمثل أسلوبه الخسيس .. لأنه لايحبذ التصرف الجبان .. ورفض أن يشترك معهم فى ذلك ..

وشرعت الوجوه الغريبة تجوس خلال شــوارع الكفر .. وفى دروبه الضيقة .. يتســمعون كلمة من هنا .. وكلمة من هناك .. وأحيانا كثيرة يلتصقون بجانب بقال الكفر الوحيد .. فرج الأعرج .. متظاهرين بشربهم « للكازوزة » بينما هم يســترقون الســمع لبعض الواقفين من أهل الكفر وخاصة النساء اللاتى برعن فى فن الثرثرة ونقل الكلام والأخبار أولا بأول .. ولكن الكفر مازال محدودا .. والغرباء لم يسكنوا فيه من قبل .. غير الأســتاذ جمال وهرب منه منذ ما يقرب من عامين ولا أحد يعرف عنه أى خبر .. لذا فان هؤلاء الغرباء كانوا معروفين بالنسبة للجميع .. أنهم من رجال المباحث والمخبرين .. لقد تسللوا الى الكفر ليجمعوا المعلومات .. والتحرى عن مدى صحة تلك الشكاوى المجهولة التى استجارت بالمسئولين .. من هذا العمدة الذى يجمع الآتاوات من الناس بالقــوة .. وكذلك أعوانه وزبانيته

هؤلاء الذين يحكمــون الكفر بالعنف والارهاب والتهــديد وكان الكفر مازال يعيش فى عهد الاقطــاع الــذى حررته منه الثــورة المباركة .. وهم الذين يســيطرون على كل شىء فى الكفر .. حتى الجمعية التعاونية الزراعيـــة .. ويحولون دون حصول الفلاحين الغلابة أصحاب المصلحة الحقيقية فى الجمعية من الحصول على حقهم منها .. وكمثال على ذلك دفعة ماكينات الحياكة التى ارسلها بنك التســليف الزراعى للجمعية لكى توزع على الفلاحات المعدمات لتعتمد عليها فى تحصيل رزقها .. على أن يسدد ثمنها على أقســاط طويلة الأجل وميسرة .. هذه الماكينات .. استولى عليها اعضاء الجمعية اللصوص .. وباعوها فى السوق السوداء .. لكى يستفيدوا بفارق السعر لأنفســهم .. والأمثلة كثيرة وكثيرة .. كما أن هؤلاء .. وعلى رأســهم العمــدة الفاسق .. يطعنون فى نظام الحكم وفخامة رئس دولتنا المفدى .. ويتجاهل هذا العمدة الشيوعى قانون الأحكام العرفية الســارى فى الدولة للحفاظ على امن الدولة الحبيبة من اعداء الثورة .. ويجتمع مع أتباعه من الشيوعيين .. وتفوح من هذه الاجتماعات رائحة المؤامرة لقلب نظام الحكم الذى نؤيده جميعا .. ولذلك فان جميع الناس فى كفر مفتاح يستجيرون بعدالتكم لانقاذنا من هذا الشر الذى يحيط بنا رغما عنا ..

واذا كان سعد قد اتفق مع أحد كتبة المحامين فى فاقوس ليكتب له تلك الشكاوى الكيدية الملتهبة المســمومة .. فان ســعدا نفسه لم يســلم من الشكاوى الكيدية .. متهمة له بأنه يتاجر فى المخدرات .. والدليل على ذلك هو تلك الثروة الهائلة التى حققها فى وقت قصير جدا فى عمر الزمن .. لايمكن أن تكون من فلوس بنته التى عملت كممرضــة لمدة أربع ســنوات فقط فى السعودية .. بالاضافة الى أنه يجمع الشــباب حوله فى بيته لكى يفرجهم على الأفلام الفاضحة على (الفيديو) .. مستغلين بذلك تجمع الشباب حول سعد كرد فعل على العمدة الذى طرد أستاذهم ومعلمهم الأستاذ جمــال كما اشاع ســعد بذلك من قبل .. كما أتهموه ايضــا بأنه يتاجر فى الســوق السوداء بالأسمنت والجبس المدعم الذى يحصل عليه بحجة مصنع الأسمنت والبلاط الوهمى و و ..

وأكثر من مرة هاجمت المباحث منزل ســـعد .. ولكنها فى كل مرة لم تكن تعثر على شىء عنده يدينه .. وكان يخرج منها فى كل مرة مرفوع الرأس .. ويقيم ليلة مدعيا بأنها لوجه الله .. بينما هى فى الحقيقة للكيد فى عباد الله وعلى رأسهم العمـــدة .. وفى كل مرة ينتصر على العمـــدة كانت تنفتح شهيته على العمل لتحقيق مزيد من النجاح يغيظ العمدة وأعوانه .. وفكر أخيرا فى انشاء مؤسسة مقاولات للبناء .. ويكون مركزها مدينة فاقوس بعد أن أحس بأن كفر مفتاح هذا لم يعد يتســـع لطموحاته .. فهو يملك كل المواد الخام اللازمة للبناء والتشييد .. الطوب الأحمر .. والأســـمنت .. والجبس .. وكذلك فان عمـــال المعمار بدءوا يتزايدون فى الكفر والقـــرى المجـــاورة .. ومعظمهم من الفلاحين الذين هجروا الأرض الزراعية .. وتدربوا سريعا على صب الخرسانات المسلحة .

وحتى لا يضيع وقتا .. فكر فى فكرة لم تخطر على بال أحد فى الكفر من قبل .. لماذا لا يضرب عصفورين بحجر واحد ؟ .. الكفر والقرى المجاورة فى حاجة ماسة الى مدرسة اعدادية .. لماذا لا يقوم هو ببناء تلك المدرسة ؟ .. مدرســـة اعدادية كبيرة مشـــتركة .. يؤجرها لوزارة التربية والتعليم بايجار شهرى كبير .. ويســـميها باســـمه هو .. وطار فرحا للفكرة التى ومضت فى ذهنه فجاة وبطريق الحدس .. وهتف فى سعادة منقطعة النظير : نعم .. (مدرسة سعد الاعدادية المشتركة) .. تكون خدمة لأهل الكفر .. وتوفر المشقة على اولاد الكفر فى الانتقال الى المدرسة الاعدادية التى يدرسون فيها الآن والتى تبعد حوالى أربعة كيلومترات .. وفى نفس الوقت ستكون هذه المدرســـة التجربة الأولى التى اتدرب فيها على كل أعمـــال المقـــاولات والمعمار .. حتى أكتسب الخبرة اللازمة للانطلاق فى هذا المجال على أساس قوى وسليم .. وابتسم لنفسه ابتسامة أعرض من اى ابتسامة سابقة وهو يهنىء نفسه على الفكرة هاتفا : ان هذه المدرسة ستكون أكبر ضربة للعمدة واتباعـــه .. صـــبرا على يا ايـــوب .. أنا وراك والزمن طـــويل .. ويا ويلك من سعد ..

« الفصـــل الرابـــع والعشرون »

منذ ان وصل جمال صفى الدين وأمه الى المنصورة .. منذ ثلاث سنوات تقريبا .. لم يضـــيع وقته ســـدى .. لأنه يعتقـــد الى حد اليقين انه .. وبســـذاجته .. قد اضـــاع فى كفر مفتاح ســـنوات طويلة من عمره عبثا وبلا فائـــدة .. وينبغى عليـــه الآن أن يعوض تلك الأيام التى زرعها خيالا وأوهاما .. فلم يجن منها غير الخيال والأوهام وها هو يواجـــه الحيـــاة من جديد .. ومن الصفر ـــ كما يقولون ـــ ..

ولكن والحق يقال .. انه أجاد الاســـتفادة مما قدمته له الظروف .. ومما هياه له الله من فرص طيبة ومتاحة .. منذ أن وصل الى المنصورة .. موطن أمه الحقيقى .. والتى نســـيته منذ أن تزوجت أباه .. وفقدت أباها وأمها .. بعد ذلك صار بلد زوجهـــا هو بلدها .. ومن بعده .. صار بلد وحيدها جمال .. هو بلدها .. وهو كفر مفتاح .. الذى التصق به جمال من قبل بقدر التصـــاق قلبه بفتاة أحلامه نســـمة ... فام جمال من هذا الصنف من النساء الذى يشعر بانتمائه للأشـــخاص الذين يحبهم أكثر من انتمائه للمكان .. فأى مكان تعيش فيه مع من تحب هو الوطن الذى تحبه ..

فمنذ أن تقابل جمال مع قريب أمه الأستاذ مصطفى ســـعيد فاضـــل المحامى .. وتعرف به .. وعرف أنه محام ناجح ومشـــهور .. ليس على مستوى المنصورة فقط .. بل على مســـتوى الوجه البحرى كله .. ومكتبه الكبير فى المنصورة هو قبلة لعدد كبير من الموكلين .. من أفراد وشركات .. الذين يثقون فى الأستاذ ثقة كبيرة ناتجة عن التجربة الطويلة معه .. فنادرا ماخاب أملهم فيه .. ونادرا ما خسر قضية لهم .. وكانت مقابلة مصطفى فاضـــل تفـــوق كل التوقعـــات التى توقعهـــا وخمنها جمـــال قبل أن يراه .. فلم يكن جمـــال يطمـــع الا فى أن يتذكر امـــه فقط .. قريبته .. ابنة عمته .. واذا بالأستاذ مصطفى يهب واقفا له فرحا وغبطة من خلف

مكتبه اللامع مرحبا ومعانقا له .. كما لو كان يعانق أخاه الأصغر الذى عاد من سـفر قديم جدا .. رغم أن تلك كانت المرة الأولى التى تقـع فيها عينا الأستاذ مصطفى فاضل على جمال .. ولم يترك مصطفى جمالا مندهشـا لتلك المقابلة المليئـة بالبهجة والترحاب .. فوضـح له أن أمه .. الحاجة أم جمال .. ليست ابنة عمته وفقط .. ولكن أباها .. زوج عمته .. رغم أنه لا يعتبر من العائلة .. وليس ملزما تجاهـه بأى شىء من النفقات .. الا أنه .. ومازال يذكر ولا ينسى .. أنه تولى رعايته ماديا والانفاق عليـه طوال سنوات دراسته فى كلية الحقوق فى الاسكندرية .. بعد أن مات أبوه وهو لم يزل بعد فى السنة الأولى فى كلية الحقوق .. ولولا وقفة زوج عمته الطيب الخير معه .. لما استطاع ان يصل الى ماهو فيه الآن .. ولما استطاع أن يكمل تعليمه ويحقق كل هذا النجاح الذى كلل الله به كفاحه .. وأسـف كثيرا لأن العمر لم يمهل زوج عمته ليرد له جزءا من الجميل .. وعندما أسس مكتبه هذا بعد عناء وبدأ فى النظر حوله ليرد الجميل لمن وقف بجواره فى وقت المحنة .. كانت ام جمال قد تزوجت فى الزقازيق .. وزارها مرة أو مرتين هناك وكان جمال صغيرا بعد .. ومن ثم جرفته دوامة الحيـاة والعمل منذ فترة .. وعتب على السيدة أم جمال كثيرا جدا لأنها لم تحاول الاتصـال به .. ولم تجعل جمالا يتصل به .. وعرفهم بأنه عرج عليهم فى الزقازيق منذ فترة طويلة .. ولكنهم كانوا قد رحلوا عن مسـكنهم قال له الجـيران أنهم انتقلوا الى قرية تابعـة لمركز فاقوس حيث يعمل جمال هناك مدرسـا .. وازداد اعجاب الأستاذ فاضل بجمال عندما علم بقصـة كفاحه .. وازداد ايمانا به عندما علم أنه رفض العمل فى النيابة العامة حبا فى المحاماة ووعده خيرا وبأنه تحت أمره فى أى رغبـة يود تحقيقها .. وعرض عليه المساعدة المادية .. ولكن جمال رفض شاكرا .. بان المال لا يمثل له مشكلة .. ولكن المشكلة الحقيقية الآن هو فى الحصول على شقة معه .. هنا فى المنصورة .. تصلح الآن كسـكن لى أنا وأمى .. وتصلح فى المسـتقبل لأن تكون مكتب محـام ..

وفى خلال أيام .. كان الأستاذ مصطفى فاضـل قد استأجر الشـقة

المطلوبة لجمال وبنفس المواصفات .. وبعد ذلك ساعده ايضا فى الحصول على استقالته من وزارة التربية والتعليم .. بعد أن امتنعوا ووقفوا فى وجه مستقبله .. وبكل قوة .. رافضين قبول الاستقالة التى تقدم بها لهم جمال للعمل فى المحاماة .. وذلك لأنه مدرس .. ولكأنه هو المدرس الوحيد الذى بدونه ستتوقف العملية التعليمية كلها فى الوزارة ..

ولكن الأستاذ مصطفى فاضل استغل معرفته بصديق له وهو فى نفس الوقت قريب وصديق حميم للسيد نائب الوزير .. واستطاع عن طريقه الحصول على قبول الاستقالة .. وكم شكره جمال يومها وهو ممسك بين يديه قرار قبول الاستقالة .. غير مصدق .. الف شكر يا أستاذ .. لقد أنقذت حياتى .. كنت على وشك ان ايأس .. لا أصدق أننى تحررت من كشف مرتبات الحكومة .. لا أصدق أننى بدأت أضع قدمى على الطريق الصحيح .. وفى تواضع كبير ونكران للذات .. رد عليه الأستاذ فاضل قائلا .. دعك مما فات .. جهز نفسك لمعركة البقاء .. أنت مقبل على حياة جديدة تماما .. حياة لا تعرف خمول الوظيفة .. ان العمل الحر تختلف فلسفته عن العمل فى الحكومة .. ان الذى يعمل فى العمل الحر يجب أن يضع نصب عينيه صرخة « هاملت » (اما أن اكون .. أو لا اكون ..) .. وهاهى الفرصة قد عادت اليك مرة ثانية .. بعد أن دفنتك التربية والتعليم بين جدران صفوفها وتلاميذها لسنوات طويلة .. عادت الفرصة اليك لتستغل طاقتك بكاملها وذكاءك بكامله .. ضامنا فى كل الأحوال ان كل جهد ستبذله ستعود فى النهاية فائدته اليك وحدك .. وهذا أجمل مافى العمل الحر بعكس مافى الحكومة .. فان فائدة جهدك يزهو بها رئيسك أمام رؤسائه .. قبل ان تصلك أنت .. وأومأ جمال للأستاذ فاضل برأسه مصدقا على صحة كل كلامه قائلا فى عزم وتصميم : حقا .. لقد جاءت الفرصة .. وان شاء الله لن ضيعها أبدا .. وسأكون باذن الله عند حسن ظنك .. وسترى منى ما يطمئنك ويسعد حضرتك ..

وكان لدى الأستاذ مصطفى فاضل .. فى مكتبه .. والذى بدأ جمال على الفور التدريب فيه ــ مكتبة قانونية عامرة بمؤلفات أساتذة وعلماء

القانون فى مصر أتاحت الفرصة لجمال أن يستوعب الكثير.. وأن يتعرف على نواحى كانت مجهولة بالنسبة له .. وخاصة تلك التى تتناول المجال العملى .. من اجراءات أمام المحاكم .. وطرق رفع الدعاوى المختلفة .. واكتشف جمال أن ماتم دراســـته فى الكلية ما هو الا أجزاء بســـيطة جدا .. لا يمكن الاعتماد عليها فى الحيـــاة العملية .. فهو مثلا لم يدرس طرق رفـــع الدعاوى بالتفصيل المناسب والســـير فى اجراءات الدعاوى أمام المحاكم .. وأحيانا كانت تلك الموضوعات يشطبها الدكتور ويقول لا تركزوا عليها لأنها لن تأتى فى امتحان آخر العام .. وبالتالى يسارع البعض بانتزاعها من المجلد انتزاعا .. وبعد اطلاع جمـــال على تلك الكتب التى قام بتأليفها بعض العاملين فى مجال القانون سواء محامين أم رجال قضاء .. أم أســـاتذة فى القانون .. أيقن تماما أنه ليس هناك أى صعوبة تذكر فى رفع الدعوى وتسجيلها فى قلم كتاب المحكمة .. وأن هذا العمل الذى كان يتصـــور من قبل أنه شىء صعب .. لأنه لم يســـبق التعرف اليه .. يمكن أن يؤديه أى كاتب محام .. ولكن الفارق الحقيقى والجوهرى بين محام وآخر هو كتابة المذكرات فى القضايا .. وكذلك المرافعة الشفهية أمام القاضى أو هيئة المحكمة .. ولذلك لم يقتصد أى جهد .. بل انطلق فى وسط هذا الخضم الهائل من الحركة .. والعمل .. يطلع على القضايا القيمة المهمة والتى نصحه الأستاذ مصـــطفى بضرورة الاطلاع على مذكراتها .. وكذلك كان يداوم على حضـــور جلسات المحاكم .. وخاصة .. المحاكم الجنائية .. ليســـتمتع بمشاهـــدة مختلف المحامين وهم ينبرون مدافعين عن موكليهم بحمية وحماس منقطع النظير .. حماس واخلاص من يدافع عن نفسه هو أو عن ابنه .. وأصبح يتنبأ بالبراءة من عدمها من خلال مرافعة المحامى أمام المحكمة وقبل أن يصـــدر القاضى الحكم .. وزاد حســـه القانونى .. وتزايد اعجابه ، وحبه للمهنة .. وتأكد من صدق كلمات أشرف « مهنة المحاماة من أشرف المهن وأفضلها .. قد ينحرف بعض المنتسبين اليها .. ولكن العيب لا يجب أن يلحق بالمهنة نفســـها .. بل لا يلحق الا بالشخص المنحرف نفسه » .. وزاد من اصراره على تحقيق هدفه وتفوقه فى عالم المحاماة بأسلوب نظيف شريف .. وهمس لنفسه : اذا

كان الله قد كتب لكل انسان عمره ورزقه من قبل ان يولد .. فلماذا يسـعى الانسان للحصول على الرزق المكتوب له سلفا بالحلال .. يسـعى لأخذه بالحـرام ؟ .. مادام الرزق آت آت لا محـال .. ومقسـوم للفـرد من قبل الله) .. (يكون غباء من الانسان أن يتفنن فى الحيل غير المشروعة .. والتزوير والسرقة والغش لكى يحصـل فيما يعد على شىء حدده الله له .. ولذلك .. عقد جمال العزم والنية نهائيا على عدم اللجوء الى أى طريق غير مشروع لتنمية وزيادة أمواله .. فقط عليه عشق مهنته والتفانى فى العمـل المخلص لها .. والتفوق فى اى مجال يستلزم بذل للجهد .. واستطاع جمال ان يثبت لنفسه صحة ذلك عندما كان يدرس فى كلية الحقوق .. بذل الجهد ونجح بتفوق .. واستطاع ان يثبت لنفسه صحة ذلك أيضا فى المحاماة .. عندما عهد اليه الأستاذ مصطفى فاضل ذات مرة .. بكتابة مذكرة فى قضية مدنية .. كانت حول نزاع على ملكية مائة وعشرين فدانا .. أرض زراعية .. ويومها اعتبر جمـال تلك القضـية هى التحدى والاختبار الحقيقى .. ونقطة الانطلاق فى عالم المحاماة .. ومن اعتاد على النجاح يكون من الصعب عليه أن يفشل .. لقد كان معلما ناجحا محبوبا .. وكان طالبا فى الجامعة متفوقا .. ولن يرضى بغير التفوق بديلا فى مجاله الجديد هذا .. وتذكر كلام الأستاذ فاضل عن فلسفة العمل الحر .. موضع نصب عينيه وهو ينكب على كتابة مذكرة تلك القضية .. صرخة هاملت .. وسهر ليلتها .. ليلة كاملة .. حتى أشرق صـباح اليوم التالى عليه .. ولم يشـعر به الا من خلال قبلات أشعة شمسه الحانية لنافذة حجرته .. ولم يكن قد انتهى من الكتابة بعد .. وقد اسـتعان فيها بنصـوص القانون المدنى .. ورأى الفقهاء .. وعرض السوابق القضائية من خلال سرد الأحكام الصادرة لبعض المحاكم على مختلف درجاتها .. بحيث تؤيد وجهة نظره وتحقق دفاعه وتثبت حق موكله فى ملكية الأرض محل النزاع .. وعندما عرضها جمال على الأسـتاذ .. وبعد أن استغرق فى قراءتها بامعان شديد .. لم يستطع الا ان يهنئه .. وشد على يده مبشرا له بمسـتقبل عظيم جدا وقريب فى عمله بالمحاماة .. زاعما له فى فخر بأن من يقرأ هذه المذكرة لن يشك للحظة أن كاتبها له خبرة

فى المحاماة لا تقل عن عشرين سنة .. وليس بضعة شهور .. وبعد شهرين من تلك الواقعة ؟ . تقريبا .. أعطاه الأستاذ فى يده ألف جنيه مرة واحدة .. وسأل جمال لماذا ؟ .. فقال له أن ذلك اتعاب عن المذكرة التى كتبتها عن نزاع الأرض الزراعية .. حيث أنه صدر الحكم لصالح موكلنا .. وتم له الاستيلاء على الأرض ونقل الملكية .. بمقتضى المذكرة التى كتبها جمال وحده .. ولم يضف هو لها أى حرف .. ولاحساس جمال بالفرحة والفخر اراد أن يرفض المبلغ .. ولكنه تذكر ما قاله ونصحه به الحاج سعد .. « عليك ان تترك هذه الطيبة الزائدة .. اذا أردت ان تعمل وتنجح فى المحاماة » .. فقبل المبلغ .. وشكر الأستاذ على ذلك ..

وكان يعد الخطوات التى سيصل بعدها الى أمه .. لكى يفرحها .. مذكرة واحدة بألف جنيه !! .. ألف جنيه لم يستطع أن يدخرها من شغله فى التربية والتعليم لمدة عشر سنوات .. يحصل عليها هو فى مذكرة واحدة لم تكلفه الا سهر ليلة واحدة بين المراجع والقلم والأوراق .. وعرف بعدها .. ان الأستاذ تقاضى عن القضية حوالى عشرة آلاف جنيه أتعابا ..

وفى كل يوم كان جمال يكتشف الجديد والجديد عن عالم المحاماة .. فلقد أيقن بعد فترة من تدريبه المستمر فى مكتب الأستاذ مصطفى فاضل أن المحاماة ليست الماما جيدا وممتازا بالقانون فقط. .وليست لباقة وطلاقة لسان وثقة كبيرة بالنفس فى المرافعة أمام القاضى .. وليست البراعة الكاملة فى كتابة المذكرات فقط .. ولكن هناك عاملا هاما جدا وضروريا .. ألا وهو الصداقات والعلاقات والانتشار الاجتماعى .. فمعظم الموكلين وخاصة الجدد منهم ليست لديهم الجرأة فى الذهاب الى محام ليتولى قضاياهم الا من خلال معرفة أو صديق له .. كما أنه أكتشف الدور الخطير الذى يلعبه موظفو المحاكم والشهر العقارى ومراكز الشرطة فى جلب القضايا لمكتب المحامى مقابل نسبة معينة من الأتعاب .. وفى بادىء الأمر لم يتقبل جمال هذا الوضع واعتبر ان ذلك نوع من التسلط والقرصنة على مهنة ورزق المحامى .. ولم يستطع أن يخفى امتعاضه ورفضه لهذه الطريقة للأستاذ فاضل الذى ابتسم .. وهو يقول : كل محام فى أول حياته بالمحاماة .. لا يستوعب

هذه الطريقة .. ويعتبرها من قبيل الاسفاف بالمهنة والحط من شأنها وشأن المحامى . ولكن سرعان ما يتقبلها عندما يدرك أنها أصبحت عرفا جاريا فى عالم المحاماة .. وأنت يا جمال .. لو نظرت الى الأمر من غير حساسية .. فستجد أنه لا غضاضة فيها .. ألم تدرس فى القانون التجارى عن العمولة .. وأنها تمثل نسبة معينة يتفق عليها بين الطرفين .. وهذا قريب الشبه مما يحدث فى مجالنا هذا .. ولابد أن تتقبل ذلك بنفس راضية .. والا فلن تسعى بطريقة صحيحة تجاه مستقبلك كمحام .. وأنت فى بداية حياتك العملية لابد أن تتعاون مع أمثال هؤلاء .. حتى تكون لك اسما فى السوق على الأقل .. وبعدها .. ان استطعت الاستغناء عنهم فاستغن ..

وانطلق جمال يصنع صداقات .. ويكون ويبنى علاقات اجتماعية .. ومع مختلف الطوائف .. فهو ليس مخيرا .. بل هو مجبر على خلق تلك العلاقات .. حتى يسير فى الاتجاه الصحيح فى النجاح المهنى .. وفى خلال عامين كان قد أصبح معروفا على نطاق مدينة المنصورة وضواحيها .. وكان يسانده فى ذلك باخلاص الأستاذ مصطفى فاضل .. يدفعه الى الأمام ولا يحقد عليه .. بل كان من حسن حظ جمال أن الأستاذ كان يشعر بأن نجاح جمال هو نجاح له شخصيا .. وكأنه بذلك يرد الدين لأم جمال وأبيها الذى وقف جنبه فى أحلك أيام حياته ..

ولذلك رحب بالفكرة التى عرضها عليه جمال .. بعد أن أنهى فترة التدريب عنده فى المكتب .. أن يفتح مكتبا للمحاماة خاصا به .. ومستقلا عن الأستاذ فاضل .. وكان جمال قد كون له رصيدا لا بأس به أثناء فترة التدريب .. لأن الأستاذ كان قد اتفق معه على أنه لا يمانع فى أن يدخل جمال بعض القضايا الخاصة به .. ويسجلها أمام المحكمة باسم مكتب الأستاذ فاضل .. مقابل دفع نسبة للمكتب عنها .. لأن تلك القضايا سيدفع عنها المكتب الضرائب فى نهاية العام لمصلحة الضرائب .. فلا ضرر ولا ضرار .. قالها لجمال وهو يبتسم مازحا .. وفرح جمال بهذا العرض .. وكانت فرصة ذهبية له .. للتدريب وادخار المال اللازم لفتح مكتبه المستقل مستقبلا ..

وفتح جمال مكتبه .. وســارت الحياة معه عادية بطيئة بعض الوقت .. الى أن ساقت اليه الظروف قضية كانت بالنسبة لحياته المهنية الصدفة السعيدة التى تتاح لبعض الناس فى حياتهم لمرة واحدة .. وتغير مســار حياتهم كلها مدى العمر .. هذه القضية هى قضية تعويض .. فلقد عرف جمال بالصدفة أن احد جيرانه فى مسكنه الجديد الذى انتقل اليه هو وأمه .. بعد أن حول السكن السابق الى مكتب محام .. هذا الجار .. ويسكن فى الشقة المواجهة لشقته الجديدة .. يعيش اياما حزينة هو وزوجته التى جللت نفسها بالسواد .. وعندما سأل عن الســبب .. قيل له انهم فقدوا ابنهم الوحيد منذ شهرين فى حادث ســيارة .. حيث أن ســيارة (أتوبيس) قد دهست الطفل الصغير الذى لم يبلغ السادسة من عمره بعد .. فأردته قتيلا .. ومما يزيد المأساة عمقا .. أن أمه بعد انجابه تعرضت لمرض خطير أدى الى استئصال الرحم .. وبالتالى لن تتمكن من الانجاب غيره مرة ثانية .. وعلى الفور تقدم جمال الى جاره متعرفا به ومعزيا له .. وفى خلال حديثه الحزين روى ملابسات الحادث واستنبط جمال كل ما يهمه فى قضية التعويض .. ولكنه أجل الكلام فى هذا الموضوع مع والد الطفل الذى يبدو عليه شــدة الورع والايمان .. حتى يطلع أولا على محاضر تحقيــق النيابة فى الحادث .. وتم الاطــلاع .. وادرك وتأكد أن عنصر الخطأ ثابت فى المحاضر .. سواء استدلالات الشرطة .. أو تحقيقات النيابة .. وكذلك علاقة السببية بين الخطأ من جانب السائق والنتيجة وهى مقتل الطفــل .. ولم يبق على جمال الا أن يثبت حجم الضرر الذى وقع على أسرة الطفل ماديا ومعنويا .. وذلك أمر يمكن اثباته بسهولة من خلال التقارير الطبية عن حالة الأم وعن استحالة الانجاب بالنســبة لها مرة ثانية .. وفى زيارة ثانيــة الى جاره المكلوم .. حاول جمال اقناع والد الطفــل بضرورة رفع قضية تعويض على شركة (الأتوبيس) وسيتولى هو متابعة القضية بعد عمل توكيل له .. دون ان يحملهم أية مصاريف لحين صدور الحكم فى القضية واستلام التعويض .. ولكن والد الطفل رفض ذلك العرض من جانب جمال .. بحجة ان التعويض حرام .. وأن الله هو الذى يعوض الناس عن مصائبهم وليس العبد .. ولم

بياس جمال .. بل قام بزيارة أخرى .. وفند بهدوء كل كلامه .. موضحا أن التعويض ليس حراما .. بل هو حلال .. ومشروع فى الشريعة الاسلامية وهو الدية فى القتل الخطأ التى يتسلمها اهل القتيل .. ووضح له جمال أن ذلك حق له على الشركة ليست على السائق .. وأن الشركة بما لها من اموال كثيرة هى التى ستلتزم بالدفع وليس السائق المسكين على حد تعبير والد الطفل .. وشجعه جمال على أن يوافق على رفع القضية .. ويمكنه التصدق بالمبلغ الذى يحصل عليه على روح الطفل .. أو يساهم به فى بناء مسجد أو مستشفى أو اى صدقة جارية ترسل حسناتها الى روح الطفل فى جنات الخلد .. وأخيرا اقتنع والد الطفل .. وعمل التوكيل لجمال .. ولم يتمهل لحظة واحدة بل سارع ورفع دعوى التعويض المدنية وطالب بضمها الى الدعوى الجنائية .. وبعد شهور قليلة صدر الحكم الجنائى بخطأ السائق وبالحكم بالتعويض الذى تقدم به جمال فى دعواه .. وتم تنفيذ الحكم وتسلم جمال المبلغ المدعى به كتعويض مدنى .. وناول المبلغ كله وقدره سبعون ألف جنيه مصرى الى والد الطفل .. ولأنه جار وحزين لم يستطع جمال .. خجلا .. أن يطلب أتعابا منه .. رغم أنه تذكر نصيحة الحاج سعد بعدم التهاون فى طلب الحق .. اذا اراد النجاح فى المحاماة .. ولكن والد الطفل لم ينتظر جمالا لكى يطلب منه .. بل أعطاه على الفور مبلغ سبعة آلاف جنيه .. ولم يكن سبق لجمال أن تسلم مبلغا كبيرا كهذا .. رغم أنه سمع وعرف أن النسبة التى يأخذها المحامى فى قضايا التعويض أكبر من هذا بكثير .. ولكن جمالا لم يكن قد فقد حياءه بعد .. فتقبلهم جمال شاكرا .. ووضعهم فى حسابه فى البنك وزاد رصيده زيادة كبيرة .. ولكن الأهم من زيادة رصيده هو انفتاح شهيته الى تلك القضايا .. قضايا التعويض .. فهى لا تحتاج الى كثير عناء أو بحث .. مجرد اثبات مدى الضرر وفداحته .. بعد أن يثبت علاقة السببية بين الخطأ الذى وقع والضرر المشار الى فداحته .. ومذكرة معتمدة على ما ورد فى التحقيقات أو الأحكام الصادرة والتى تثبت وقوع الخطأ والضرر .. وما عليه الا أن يضخم هو من فداحة الضرر للقاضى لصالح موكله ..

ولذلك قرر أن يهتم بها أكثر من غيرها .. وعزم على أن يسعى اليها وخلفها فى أى مكان .. لن ينتظر هو فى مكتبه كى تأتى له أمثال هذه القضايا .. وبطريقة مهذبة مرحة راح يتفق مع معارفه وأصدقائه من مختلف الطبقات والوظائف والضواحى .. والبلاد .. أن لهم نسبة مئوية من الأتعاب اذا ساعدوه فى الحصول على قضية من قضـــايا التعويض .. والابلاغ عن أى حادث يتم ويقع .. والذى ساعد جمالا على ذلك أنه اشترى سيارة خاصـــة به .. حتى يكمل مظهره وتساعده فى عمله .. واشتراها سيارة بيضــــاء « بيجو » .. وشعر بالغبطة عندما اشتراها .. لأنه رأى نفسه يقترب من تحقيق آماله .. وأحـــلامه التى هجر الكفر وأهله من أجلها .. الحيـــاة الناعمة المرفهة والثراء .. وهمس لنفســـه مؤكدا فى ســـعادة واصرار .. هكذا .. بالعمل وحده .. لا بالأحلام الوردية الكسولة يســـتطيع الفرد أن يحقق كل ما يصبو اليه من آمال مادية فى هذه الحيـــاة .. وأحس بالنـــدم الشديد على تلك الفترة التى أضاعها من عمره فى الكفر .. وكذلك تلك الفترة التى قضاها فى عمله فى التربية والتعليم .. ينتظر فى شوق كل عام أن يزيد مرتبه ما قيمته جنيه واحد .. علاوة دورية .. وصرخ ساخطا لعنة الله على الكسل والكسالى ..

وكم ساعدته تلك السيارة البيضاء فى عمله كثيرا .. وخاصة قضايا التعويض .. فعندما يفضى اليه أحد معارفه بخبر وقوع حادث وترتب عليه وفاة لأحد بسبب خطأ من جانب الغير .. ويســـتوجب الأمر التعويض .. لا ينتظر جمال أن يكمل صاحبه الموضوع .. بل يصطحبه معه فى السيارة .. ذاهبين على الفور للعزاء فى المتوفى .. وقبل أن ينصرف جمال وصاحبه من سرادق العزاء .. يكون — ومن خلال مظهره الذى يبعث على الثقة .. وكذلك لباقته المهنيـــة التى اكتســـبها من خلال احتكاكه وتعامله فى هـــذا الوسط — اتفق مع أهل المتوفى القتيل على عمل التوكيل له ليتولى قضـــية التعـــويض دون دفـــع أية أتعاب الا بعد الحصـــول لهم على التعـــويض المناسب ..

وبدأ نجم جمال يلمع فى تولى قضايا التعويض التى يتمناها أى محام .. ولم يخف زملاؤه عنه حسدهم له .. ولكنه قد أخذ على نفسه عهدا منذ بدأ العمل فى المحاماة بعدم الاهتمام بالآخرين وعـــدم التركيز على الذات .. ونبذ تلك الأحاسيس الرقيقة تجاه الآخرين وكذلك محاولة الســـيطرة على انفعالاته .. وضـــبط أعصابه فى شـــتى المواقف الى أبعد الحـــدود .. لأن الافراط فى الاحساس هو ضعف فى الشخصية .. ولذلك فلم يكن يغضـــب منهم عندما كانوا يداعبونه .. ويمزحون معه مزاحا ثقيلا .. لازعا يكشف عن سوء طويتهم تجاهه .. وخاصة من الزملاء الجدد الذين يقارنون انفسهم به فيجدون الفارق شاسعا .. فمنهم من يقول ضـــاحكا : ومرحبا بجمال عندما يدخـــل عليهم غرفة المحامين فى المحكمـــة : أهـــلا بمحامى الأرامـــل والثكالى ..

ويرد آخر مصدقا على كلام الأول : صدقت .. ان أجمل ســـيارة فى العالم يتمنى أن يراها جمال دوما .. هى سيارة الاسعاف ودفن الموتى ..

وتضج القاعة بالضحك .. ويضحك جمال معهم ايضا .. ويقاطعهم آخر وهو يغلب ضحكة : ان جمال لا يشترى الجرائد الا لكى يقرأ صـــفحة الوفيات والحـــوادث .. وأحلى خبر عنـــده هو (توفى اثر حادث أليم) .. وتنفجر القاعة بالضحك مرة ثانية .. ويضحك معهم جمال ملء قلبه وصدره .. ثم يقول لهم جميعا وهو يغالب ضحكه مكايدا : موتوا بغيظكم ..

فيزداد غيظهم وحقـــدهم فعـــلا .. ولكنهم يخفونه وراء غـــلاف من القهقهات المنفعلة المتوترة ..

ويحدث نفسه موضحا ومحللا تصرفاتهم تلك بأنهـــا عقدة الاســـقاط تتحكم فيهم .. لو أنهم كانوا قادرين على أن يفعلوا مثلى لما توانوا للحظة .. ولكن .. ولأنهم عاجزون .. فليس لهم الا الحسد واللوم والنقد .

ومع الأيام .. وشـــيئا فشـــيئا .. بدأ يتحول مكتب الأستاذ جمال صفى الدين الى خلية نحل نشطة .. ففى الصباح الباكر يقبل الموكلون الذين لهم قضايا ستعرض فى جلسة اليوم لمعرفة الجديد والتأكد من أن الأســـتاذ سيحضر للمرافعة اليوم .. وفى الفترة المسائية .. يستقبل الموكلين الجدد

أو أصـــحاب القضايا .. ويحدد لتلك الفترة من الساعة الخامســـة وحتى التاسعة مساء .. وينظم كل هذا النشاط وكيله الكفء .. الحاج محمد .. الذى تسلم العمل معه منذ ما يقرب من العام وكان من قبل يعمـــل لمدة عشرين سنة مع محام وتوفاه الله .. فالتقطه الأستاذ مصطفى فاضل بسرعة لكى يعمل فى مكتب جمال ويساعده فى تنظيم العمل ومتابعة القضايا وخاصة بين أروقة المحاكم .. وكذلك يساعده فى جلب القضايا له .. باعتباره فى هذا الحقـــل من فترة بعيدة ويعرف الناس أكثر بكثير من جمـــال .. وله معارفه وطريقته الخاصة فى ادخال القضايا الى المكتب ..وكان أهم تلك القضـــايا التى أتى بها الى المكتب .. قضية المخدرات .. والتى اســـتطاع جمال أن يجعلها تحفظ وهى فى طور التحقيق بعد النيابة .. وذلك لخطأ فى اجراءات القبض على المتهم متلبسا حيث أن رجال الضبطية القضائية تجاهلوا شرطا هاما من الشروط التى يتطلبها القانون .. قانون الاجراءات الجنائية لصحة حالات التلبس .. وأخذ جمال على هذه القضية التى قتلت فى المهد خمســـة آلاف جنيه .. يومها أعطى وكيل المكتب الحاج محمد مبلغ خمسمـــائة جنيه كعمولة له وتشجيعا لجلب قضايا للمكتب ..

وبالرغم من أن حب المال .. وشهوة جمعه وادخاره قد تعصب الأعين فى حالات كثيرة عن الحلال والحرام .. الا أن هذا الأمر لم يحدث مع جمال حتى الآن .. ومما يؤكد صحة ذلك تلك القضـــية التى رفضـــها جمال .. وكانت لموظف اختلس من عهدته مبلغ عشرين ألف جنيـــه .. وعرض على جمال أن يعطيه مبلغ خمسة آلاف جنيه ان هو أخرجه منها (مثل الشعرة من العجين) — على حد تعبير المتهم — وقد اعترف له صراحة بأنه اختلس المبلغ مبررا ذلك بأن الحكومة لا تعطيه المرتب الذى يســـتحقه .. وبعد أن أدرك جمال أن ذلك المتهم شاب مستهتر .. واختلس المبلـــغ لينفقها على ملذاته وشهواته .. ليس عنده ولو دافـــع انسانى واحد يدفعـــه لجريمته تلك .. رفض على الفور العرض رفضا باتا ونهائيا .. .. وتذكر يومها الحاج أيوب مفتاح عمدة كفر مفتاح الذى زعم ذات مرة بأن المحامى كل أمواله حرام .. لأنه يدافع عن اللص وهو يعلم أنه سارق .. وتذكر كلام صـــديقه أشرف

بأن العيب ليس فى المهنة ذاتها .. ولكن العيب فى المحامى نفسه .. وأحس بحنين كبير وطاغ لرؤية أشرف الذى يحمل له الذكريات الطيبـــة الجميلة .. ونوى أن ينتهز الفرصة وينزع نفسه من العمل ذات يوم ويذهب لزيارته فى فاقوس..ولكنه تساءل .. اذ ماكان اشرف مازال فى فاقوس فعلا.. فهو منذ هجر فاقوس الى غير رجعة ينويها .. لم ير أشرف ولم يسمع أى خبر عنه .. وتنى له بينه وبين نفسه أن يكون بخير وحقق كل آماله فى المحاماة ..

ولم يعد جمال كما كان يفرط أو يتسامح فى أتعابه .. ولكن اذا ما وضعت له الظروف فى طريقه موكلا فقيرا جاء الى المحكمة مشكوا فى حقه أو مضطرا للشكوى فانه لا يصمم على أخذ أتعاب منه .. مكتفيا بما يأخذه من الأغنياء الذين زاد عددهم جدا فى الفترة الأخيرة .. وكذلك من قضايا التعويض .. وعلى سبيل المثال تلك المرأة المسكينة التى هجرها زوجها ومعها خمســة أطفال دون أن يعطيها أى نفقة لكى تعيش منها .. ولم تكن قادرة حتى على مجرد الذهاب الى المحكمة لتشتكى وتطالب بحقها وحق أولادها فى النفقة .. وعندما شرح له الحاج محمد ظروفها بالضبط .. لم يتورع عن أن يتولى عنها كل شىء ورفع دعوى النفقة على زوجها وأتى لها بحقها .. ولم يأخذ منها غير الدعوات الكثيرة المخلصة والابتهال الى الله بان يطيل له الله فى عمره .. ويحفظ له زوجته وأطفاله .. رغم انه لم يتزوج بعد .

ومنذ أن اشتغل جمال بمكتبه .. وزاد العمل وحجم القضايا عنده .. لم يعد لديه الوقت الكافى للجلوس الى أمه .. والحديث اليها والاســتمتاع منها كما كان من قبل .. فلقد أبتلع العمل كل وقته .. وابتلع ابنها معه .. وبالرغم من أنها كانت تحس لذلك بالوحشـــة .. والوحدة .. بعد ان كان يملأ عليها الشقة .. الا أنها مع ذلك كانت تشـــعر بالسعادة والأمان ناحية وحيدها .. وهى تحمد الله على ذلك كثيرا .. لأن العمل الكثير هو افضـــل شىء يجعل جمالا ينسى همومه ومشاكله التى يحبسها فى أعماق نفســـه .. ولا يرضى أن يبوح بها لأحد .. حتى ولا أمه .. فهى تعلم ان جمالا لم ينس نسمة .. حبيبته التى تركها فى الكفر منذ ثلاث سنوات .. حتى ولو تظاهر هو بذلك .. ففى أحيان كثيرة تستيقظ هى على صوته وهو يصرخ باسمها فى

احلامه .. وهى لا تريد أن تنبش معه فى تلك القصة مرة ثانية لأنه لا فائدة منها .. ولذلك لم تحاول أن تعترض على انشـــغاله عنها .. بل رأت أن العلاج لذلك هو أن تعمل علاقات مع الآخرين .. سواء من سكان العمارة .. أو بعض أقاربها .. وخاصة زوجة الأستاذ مصطفى فاضل التى كانت تداوم على زيارتها بين حين وآخر ..

ومنذ أيام .. أتيحت لها الفرصة أن تجلس مع ابنها فترة لا بأس بها .. فى فترة العصر وقبل أن يذهب الى المكتب .. وصارحته بأن العمر يجرى .. ويمر سريعا دون أن ينتبه اليه .. وأن أملها فى الحيـــاة هو أن تراه مع زوجة تهتم به .. لأنها لن تعيش له طوال العمر .. وأملها أن ترى له أولادا قبل أن تموت .. وأرعبهـــا أنه أجاب عليها بامتعاض واشـــمئزاز .. كأن فكرة الزواج أصبحت مقززة ومقرفة بالنسبة له .. ورد عليها بأن هذا الكلام لم يحن وقته وأوانه بعد .. فلابد أن يســـتقر فى العمل أولا .. ويقف على أرض صلبه .. حقا هو يمكنه أن يتزوج .. ويفتح بيتا .. ويجعل زوجته وأولاده يعيشون أفخم عيشة . ولكنه يريد أن يوفر مصـــدرا ثابتا .. لأنه محام .. وليس موظف حكومة .. ولذلك فهو يحصل على المال طالما صحته جيدة ويعمل .. ولكن اذا تصادف ــ لا قدر الله ــ وأصبح عاجزا عن العمل لسبب من الأسباب .. فلن يحصل الا على معاش قليل جدا من النقابة .. نقابة المحامين .. لأن مدة عمله بالمحاماة محدودة .. وهذا المعاش لن يكفى بيته ولو عيش حاف .. ولذلك هو يفكر أولا .. وقبل الزواج .. أن يشترى عمارة .. أو يدخل فى مشروع تجارى .. يضمن له دخلا معقولا .. وتوسل الى أمه أن تصبر عليه .. ولا تلح عليه فى ذلك الموضوع مرة ثانية .. حتى يحقق ما يريد .. وأن تدعو له فقط بالتوفيق .. وبعد ذلك .. ســـيبدأ فى البحث عن ابنة الحلال .. وسيجعلها هى التى تقوم باختيارها له .. حتى تكون راضية عنها تماما .. ولكن أمه لم تقتنع بكل هذا الكلام .. وقالت له فى عتاب : أن كلامه هذا مجرد تبرير وهروب من الزواج .. وليس كل من يريد الزواج لابد له من مصـــدر ثابت للدخل .. والا لما تزوج أحد .. وهو الذى دائما يقـــول لها ويكرر أن الأرزاق قد كتبها الله للعبد من قبل أن يولد

.. يأتى الآن ويقول بعكس ما زعم .. فهذا لا يدل الا على الهروب والخوف .. وهى فى نفس الوقت لا تحب أن تحجب عنه خوفهـــا عليه .. لأنه الآن يجرى وراء الفلوس فقط .. ومن يجرى ويركض خلف الفلوس .. فان هناك أشياء كثيرة تسقط وتضيع منه دون أن يشـــعر بها أو يدركها فى غمرة حبه للفلوس .. أولها عمره وشـــبابه .. وكذلك فان حبه للآخـــرين يبـــدأ فى الاضـــمحلال .. لأن حب المال يســـتر عنه كل شيء .. وكل حب آخر .. ويبدى جمال دهشة كبيرة لما تقوله أمه ويؤكد لها بأنه ليس كذلك وليس من هذا الصـــنف من الناس .. ولن يكون كذلك فى يوم من الأيام .. وأنه ان شاء الله ــ وكما وضح لها من قبل ــ سيبدأ فى التفكير فى الزواج بمجرد أن يقف على أرض صلبه .. ويحقق لنفسه مصدرا ثابتا من الدخل ..

وامام ذلك الاصرار والعناد من جمـــال لا تملك أمـــه الا أن تخضـــع وتستكين .. داعية له بالهداية والتوفيق .. ثم تسلم امرها لله .. متعلقة بالصبر والأمل .

والحقيقة أن جمال لم يعد لديه أى وقت للتفكير .. والأخطر من ذلك هو هذا الشعور (النرجسى) الجديد .. الذى بدأ يزحف ويتسرب الى نفسه رويدا رويدا .. وكلما حقق نجاحا جديدا .. او زاد رصـــيده .. أو كسب قضية اعتقد البعض أنها صعبة والأمل فى البراءة فيها ضعيف .. وكلما نظر الى نفسه فى المرآة كل صباح قبل أن يخرج من بيته .. سيطر عليه احساس قوى .. ولكأن الشيطان يهمس له : خسارة كبيرة أن يقدم هذا النجاح وهذا الرصيد من المال فى البنك .. وتلك الوسامة والحيوية والشباب لأى فتاة .. او امرأة اخرى لم تشاركه هذا كفاح الذى خاضه .. ولم تقاسمه هذا العناء الذى لاقاه .. لا توجد أى فتاة فى هذا الكون تستاهل جمال صفى الدين .

« الفصـــل الخامس والعشرون »

فى أحد الأيام .. وبعد ذلك الحوار الساخن بين جمال وأمه عن الزواج .. وعن ذلك العمر الذى يجرى .. اضطر جمال الى الذهاب الى مدينة أبو كبير المجاورة لمركز فاقوس .. وذلك لحضـــور جلســـة فى محكمة أبو كبير .. وهناك شاءت الظروف أن يرى نفسه وجها لوجه مع صديقه أشرف الذى كانت لديه قضية هو الآخر تنظر أمام نفس المحكمة .. وكانت مفاجأة ســـارة لكلا الصديقين .. وفتحت الأحضان .. وتعانق الصديقان عناقا حارا يكشف عن شوق حقيقى .. وعن اخلاص أصيل .. وعاجل جمال أشرف فى مزاح .. احذر أن تكون خصـــما لى فى القضـــية .. ورد أشرف مازحا هو الآخر : مســـتحيل يا أســـتاذ .. قلبـــى لا يطاوعنى .. وانفجـــر الاثنـــان فى الضحك .. و ..

وأعلن عن بدأ الجلسة .. فأخذ أشرف من جمال وعدا قاطعا بأن يذهب معه اليوم لتناول طعام الغـــذاء .. فى منزله بفاقوس .. واضاف أشرف فى عتاب وتأنيب : هل نسيت بيتنا يا أستاذ ؟

فأحس جمال لأول مرة بالتقصير الحقيقى لعدم سؤاله واتصاله بأشرف طوال هذه المدة .. وخاف أن يتهمه أشرف بينه وبين نفسه بقلة الأصل .. فأشرف صاحب ايادى بيضاء كثيرة عليه لا يستطيع أن ينكرها .. ولم يرد جميله بعد .. فسارع جمال وبسرعة بديهه مدعيا أنه كان ينوى زيارته اليوم .. حتى ولو لم يكن قد قابله فى المحكمة .. وأنه كان ينتظر مثل هذه الفرصة ليطمئن عليه ويعرف أخباره .

وبعد الجلسة .. استقل أشرف السيارة مع جمال .. لأنه لم يكن قد اشترى سيار مثل جمال بعد .. ودار بينهما حوار طويل خلال الطريق من أبو كبير الى فاقوس .. واطمأن كل واحد منهما على ظروف الآخر .. وعلم جمـــال أن أشرف لم يتزوج بعد .. وأنه لم يزل يعيش مع أهلـــه فى نفس

الشـــقة التى كان يذهب اليه فيها من قبـــل .. وتكلما ايضـــا عن بعض القضايا التى واجهتهما والمآزق التى تعرض لها كل منهما .. ولكن اتفقا على أن المحاماة الآن تشهد عصرها الذهبى مع هذا الانفتاح وتدفق ثروات الخارج الى داخل مصر .. لأن المحاماة عموما لا تزدهر الا فى المجتمع الراســـمالى الغنى .. وتموت وتقتل فى المجتمع الاشتراكى الفقير ..

ولاحت أمام جمال لوحة كتب عليها (مدينة فاقوس ترحب بكم) وقرأ اللافتة .. واحس بانقباض .. واختناق وهو يعود الى فاقوس مرة ثانية .. واقتحمت عليه الخواطر تصفع رأسه مرة و .. وتداعبهـــا فى رفق مرة أخرى .. وتذكر الناس الذين عرفهم .. وعاش معهم فترة طويلة .. ويحمل لهم الذكريات المرة المؤلمة .. وكذلك الذكريات الجيملة والحلـــوة .. وتذكر الحاج ســـعدا .. لم يره منذ أكثر من عامين .. رآه مرة واحدة مصادفة فى الزقازيق .. وكان مسرعا .. وســـلم عليـــه بسرعة .. ولم يتمهل لمعرفة الأخبار .. وتساءل جمال : ياترى هل حقق الحاج سعد كل أحلامه ؟ .. ياله من رجل طمـــوح !.. وعقلية فذة .. تثبت فعلا أن الذكاء الفطرى قادر على صنع الكثير .. وطرأت عليه فكرة مفاجئة .. لماذا لا يمر بسيارته من قدام مستودع الأسمنت .. فقد يراه .. او يرى أخاه الشـــيخ مرزوق .. واحس بالحنين الجارف اليهمـــا وود رؤيتهما والاطمئنـــان عليهما .. وظلت الأفكار تطوف من حول رأسه .. وشعر بالضيق وهو يتذكر العمدة وزوجته صفية .. وهمس لنفسه : اعتقد أن نسمة تزوجت .. وعندها أولاد الآن .. قد تكون مقيمة مع زوجهـــا الدكتور فى الزقازيق الآن .. وشـــعر بغصـــة وامتعاض .. وعض على شفته السفلى بطريقة عفوية ..

واخيرا دخل الى المدينة .. وسار فى الطريق الذى يمكنه من المرور من أمام مستودع الحاج سعد .. وصـــاح أشرف منبها : هل نسيت الطريق الى بيتنا يا أستاذ جمال ؟

فرد جمال مبتسما لتلك الملاحظـــة قائلا وهو يركز ببصره على الطريق الذى يعج بالســـيارات والناس فى ازدحام عجيب وكأنه يوم الحشر : لا لم

أنس .. فقط وددت ان أمر على احد المعـارف القـدامى .. في الطريق الى منزلك ..

ونظر جمال .. فوجد الحاج سعدا جالسا أمام المستودع .. وقد طرأت بعض التغيرات عليه .. تغير (الديكـور) وكتبت لافتة كبيرة فوق واجهته « مؤسسة الحاج سعد أبو رزق للمقاولات العامة » وابتسم جمال في سريرته لهذا الرجل الطموح .. وهتف : مؤسسة مقاولات عامة مرة واحدة يا حاج سـعد .. وفكر في أن يذهب بأشرف الى بيته أولا .. ويتركه يجهز طعـام الغذاء .. وفي اثناء ذلك يعود هو ويجلس بعضا من الوقت مع الحاج سـعد .. فهو رجل شهم .. وقف معه وقفة الرجال في الأوقات العصيبة .. ولم يرفض أشرف الفكرة التى أفضى بها جمـال اليه .. مشـددا عليـه أنه لن يتناول طعام الغذاء حتى يعود .. ومشددا عليه بعدم التأخر عليه .. ووافقه جمال مقسما .. ثم قفل راجعا الى مستودع الحاج سعد .. وأوقف سيارته بمحاذاة المستودع .. وهبط منها جمال وكله شـوق حقيقى لصديقه القديم الذى وقف معه في وقت الشدة .. وفرد جمال ذراعيه على آخرهما كفراشة .. وراح يصيح من على بعد خطوات منبها الحاج سعد في لهفة : كيف حالك يا حاج سعد يا حبيبى ؟

ونهض الحاج سعد مبهورا .. وغير مصدق ان كان هذا هو جمال فعلا أم لا .. لقد تطور مظهره تطورا كبيرا .. لقد تحول الى « بيـه » حقيقى .. ونظر الى السيارة .. وهتف في دهشة .. وسيارة (بيجو) أيضا .. ولكنه ترك هذا كله .. وأقبل عليه صائحا في شوق وترحاب : أهلا وسهلا .. كيف حالك ياجمال بيك أين أنت يارجل ؟ هل نسيتنا ؟ .. ألم يكن خبزا وملحا ذلك الذى أكلناه معا ؟ .. أليس لنا عليك حق ؟

وبعد القبلات والأحضان .. حمل كرسيه الذى كان يجلس عليه أمام مؤسسة المقاولات متلمسا لشمس الشتاء الدافئة .. واصطحب جمالا من يده في ترحيب كبير وحب ودخـل به الى الداخل فوجـد العامل يجلس على الكرسى .. فنهره .. وطلب منه احضار القهوة الزيادة لجمال (بيك) ..

ونهض العامل .. وهرول لاحضارة القهوة المطلوبة .. وأخذ الحاج

سعد يمسح الكرسى لكى يجلس عليه جمال (بيك) .. وهو يحدث نفسه قائلا : .. بعد البلوفر الصوف الكالح الذى كنت ترتديه ياجمال فوق البنطلون فى الصيف والشتاء .. أصبحت تلبس بذلة كاملة وكرافته .. سبحان المعطى بدون حساب .. ثم رفع عقيرته مرحبا ألف مرحب يا (بيك)

— وجلس جمال .. وكل آذانه شوق لسماع أخبار سعد وأخبار أهل الكفر .. وأول سؤال بدر منه هو : أين الشيخ مرزوق .. ؟ .. ألم يعد يعمل هنا ؟

فأجابه سعد بحزن : لقد توفاه الله منذ ما يقرب من عام ..

بدت على جمال علامات الحزن الحقيقى .. وقرأ الفاتحة على روحه .. وسادت لحظة صمت .. ثم جاءت القهوة .. وبدأ جمال يرتشف منها .. ثم استأنف الكلام مع الحاج سعد قائلا : وكيف حالك أنت ؟ .. وكيف حال الأسرة ؟ .. وكيف حال أهل الكفر جميعا ؟ أنا أريد ان اعرف وأسمع كل الأخبار ..

فقال الحاج سعد وابتسامة هادئة عريضة تفرش كل وجهه : مهلا .. مهلا .. فقطا سترح الآن .. واشرب قهوة حضرتك .. واليوم معنا طويل .. لأننا سننهض ونذهب معا الى الكفر .. أنت ضيفنا اليوم .. سنتغذى معا فى الكفر .. البنات وأم سعدية سيفرحن بك جدا جدا .. وكذلك أهل الكفر لن يصدقوا أعينهم ..

قال الحاج ذلك وبخبث وهو يعيد النظر ويدقق فى مظهر جمال الأنيق المبهر .. وفهم جمال مغزى النظرة وما توحى به كلمات سعد .. فابتسم .. ولم يعلق .. ولكنه أردف قائلا : سامحنى يا حاج .. رغم شوقى لكم جميعا .. الا أننى لن استطع الذهاب معك اليوم .. لأنى معزوم عند صديقى الأستاذ أشرف المحامى .. ولكن أعدك — ان شاء الله — فى المرة القادمة سآتى معك وساكون مستعدا للطعام .. غذاء وعشاء ..

فقال الحاج سعد مشددا ومؤكدا على الوعد : أهذا وعد يا أستاذ ؟

— نعم .. وعد .. ان شاء الله .. ولكن .. ماهى أخباركم ؟ .. وأخبار الكفر ؟

ابتسم سعد بأسف وألم ثم قال : والله يا أســتاذ .. منذ ان هجرت الكفر وتركتنا .. وكأنك أخذت معك الراحة والاستقرار .. وكل الهدوء ..

فقاطعه جمال مستغربا : أمعقول هذا ؟ .. ياستار .. لماذا ؟ .. ان الكفر كان دائما واحة حب وهـــدوء .. وجميـــع أهله ناس طيبين .. ماذا طرأ عليهم ؟

تنهد سعد فى مرارة وشجن : العمدة .. العمدة وأقاربه .. لعنهم الله .. لم يعد لهم أى هم أو شغل غير الكيد للحاج سعد .. لا لشىء الا للحقد .. فصعب على نفوسهم ان يروا سعدا وقد أكرمه الله وصار غنيا بفضل مجهوده وتعبه وتفكيره .. رغم أننى لا أدخر وسعا او ادبر جهدا لمساعدة اى انسان فى موقف صعب او محتاج الى المساعدة .

وفهم جمال بأن ســـعد يومىء اليه .. فقال مبتسما : طوال عمـــرك صاحب فضل على الجميع ..

فاستدرك سعد قائلا : لا .. لا .. عفوا يا أســـتاذ .. أقصـــد مع الفلاحين فى الكفر .. وكذلك انا ...

وأمسك عن كلامه لحظة .. تذكر شـــيئا .. ثم أردف ســـائلا : هل عرفت أننى أعمل الآن فى المقاولات العامة والمبانى ؟ .. لقد قمت ببناء مدرسة لأهل الكفر .. مدرسة اعدادية .. اسمها (مدرسة سعد الاعدادية المشتركة) .. وستبدأ فى استقبال التلاميذ ابتداء من العام الدراسى القادم .. كل ذلك يا جمال بيك خدمة لأهل الكفر ..

فرح جمـــال بتلك الأخبـــار وقال بفخر : ألف مبروك .. جزاك الله خيرا عن اهـــل الكفر يا حاج .. هذا هو الواجب .. يجب على كل انســـان يعطيه الله من فضله أن يمد يده للمســـاعدة والخـــير والمعاونة للآخرين .. وخاصة أهل بلده .. الأقربون أولى بالمعروف .

وسأل سعد جمالا : أظنك لم تكن موجودا فى الكفر عندما بنيت مصـــنع الطوب الأحمر فى الكفر ؟

— لا .. كان مجـــرد مشروع على الورق .. ولكن ألف مبـــروك .. ومدى نجاحه ؟

مال اليه سعد منتشيا فرحا .. وامسك بيده ويخفض صوته كأنه يفضى اليه بسر : الحمد لله .. فضل من الله .. كانت فكرة عسل .. فدان الأرض يكسبنى أضعاف ثمن شرائه ..

ابتسم جمال ابتسامة مخلصة وقال : الف مبروك يا حاج .. أنت جدير بكل خير ربنا يزيدك من فضله .

ـ هل كنت موجودا بالكفر عندما وقف العمدة وأقاربه ضدى حتى لا ابنى مصنع الطوب ؟

ـ لا ..

ـ حقا .. لقد حدث هذا .. بعد ان تركتنا .. لكن ربنا نصرنى عليهم جميعا .. وأنا بمفردى .. لا لشىء الا لأنى على حق .. وهم على باطل .. وكيل النيابة .. سب العمده وهدده .. وقال له لو وقفت قدام الحاج سعد مرة ثانية .. سأضعك فى السجن ..

ثم مال مرة أخرى مقتربا من جمال .. وهو يهمس اليه : بينى وبينك وكيل النيابة حبيبى جدا .. صديقى مثل حضرتك .. رجل ذوق، ويقدر الناس ..

ولم يهتم بما يحب أن يوحى به اليه الحاج سعد من انه له علاقة خاصة بوكيل النيابة .. وقال يحثه على اكمال حديثه : ثم ماذا ؟

ـ أبدا .. بعد ذلك انا قررت .. واقسمت أن اقف فى وجه العمدة وكل اقاربه .. وماداموا قد وقفوا فى وجه لقمة العيش التى أسعى خلفها لبناتى ويريدون ان يقطعوا رزق بناتى ورزقى .. فلابد أن أحاربهم .. وبكل ما أملك .. ولم ادع وسيلة الا وحاربتهم بها .. لدرجة أن العمدة صار الآن مثل الكلب .. يسير فى الطرقات .. مهدودا .. بعد أن هجمت عليه كل أمراض الدنيا نتيجة لظلمه للناس .. وأصغر طفل فى الكفر الآن يضحك على خيبته .. ولم يعد كما كان العمدة صاحب الصولجان .. المهاب من الناس .. ويمشى فى الكفر مفرع مثل شجرة الجميز .. سأنزع منه العمدية .. انا الآن أحق بها منه .. أنا أخدم الناس كثر منه .. اهل الكفر يحبوننى الآن أكثر منه ..

ولم يكن من طبع جمال ان يشمت فى احد .. حتى ولو كان قد أساء اليه .. فشعر بالرثاء والتعاطف لما وصل اليه العمدة .. طبقا لما قصه عليه سعد الآن .. وتذكر فضل العمدة عليه .. واكتشف أنه لم ينس هذا الفضل بعد .. فلقد وقف العمدة بجواره منذ أن تم تعيينه فى كفر مفتاح .. حقا .. ان تصرفهم معه فى موضوع زواجه من نسمة كان تصرفا غير مرض .. بل ومغضبا .. ولكن على اى حال .. لم يصارحهم بشىء .. وهم لم يرفضوا شيئا .. لقد خابت آماله معهم .. ولكن لا بأس .. فكل شىء نصيب ..

وواصل سعد ونشوة النصر تسيطر عليه قوله : ولقد أخذت على العمدة تعهدا بعدم التعرض لى هو وأقاربه .. ولم أتركه بعد ذلك يهدأ أو يستريح .. فرفعت عليه دعوى تعويض فى المحكمة .. لكى أقلق راحته وأتعب أعصابه .. وتابعته بالشكاوى الكيدية .. كل يوم شكوى .. لقد أرسلت شكاوى الى رئيس الجمهورية .. حتى جعلته يزهق من حياته .. ويصرخ بأعلى صوته مستنجدا .. يا ناس ابعدوا عنى سعدا .. أنقذونى من سعد .. و

ولم يوقفه عن هذا الكلام المباهى به الا ضحكة مجلجلة شامتة .. كشفت لجمال فى الحال ان فم سعد الواسع لم يزل كما هو .. وبدأ احساس بالامتعاض يتسرب الى نفسه من تلك الطريقة التى يتكلم بها سعد .. وهذا الفخر الممجوج الذى يتباهى ويفخر به .. فسأل سعد : ألهذه الدرجة .. وصلت الخلافات بينك وبين العمدة ؟ .. وهو ؟ ألم يرد عليك بشىء ؟

ــ بالطبع رد .. ولكنه رد الخائب .. كتبوا شكاوى كيدية أيضا .. وادعوا بأنى أتاجر فى المخدرات .. وعندى أفلام خليعة أجمع حولها الشباب من أهل الكفر .. وكانوا طبعا منزعجين لأن الشباب انضم الى ضد العمدة .. وخاصة عندما عرفوا أن العمدة قد طردك أنت وأمك من الكفر .. لأنك طلبت الزواج من ابنته نسمة ..

انتفض جمال بغتة كالملسوع .. وحملق فى سعد .. وعقد لسانه للحظة ثم صرخ مستنكرا : العمدة !.. طردنى أنا وأمى ؟! .. أنا طلبت

الزواج من نسمة والعمدة رفض ذلك ؟ .. من قال هذا الكـــلام الفارغ ؟ .. هذا كله كذب ..

وانتبه سعد لنفسه على التو .. وأدرك انه خلط الحقيقة بالخيال فى لحظة واحدة .. انه متاكد من أن شيئا من ذلك لم يحدث .. بل هو الوحيد فى الكفر كله الذى يعلم أن ذلك لم يحدث .. ولكنها كذبة .. لفقها هو للعمدة حتى يستعدى عليه أهل الكفر مســـتغلا حب الناس للأستاذ جمال .. وراح سعد يروجها ويرددها حتى صدقها هو نفسه .. ونسى أن الذى يجلس أمامه هو صاحب الموضوع .. وأنه اقســـم له ذات يوم بالمصـــحف الشريف على حفظ السر بينهما فقط ولن يعلم به أحد .. وارتبك الحاج سعد .. وتلعثم .. وأخذ يحاول ترتيب أفكاره التى تبعثرت على أثر هذا الســـقوط ثم قال بشفاة تختلج : لا .. بالطبع لم يحدث شىء من هذا .. هذا كله كذب .. اشاعة لست أدرى من الذى أطلقها نكاية فى العمدة .. وروجها فى الكفر .. ولكننى .. ورغم خـــلافى مع العمـــدة كنت أقول للناس أن شـــيئا من هذا لم يحدث ..

ولم يكن جمال من البلاهة ليخدع من رجل مثل ســـعد .. بل كان من الذكاء والفطنة ليدرك كل شىء .. وكل ما حدث واضحا أمامه .. كما لو كان يقع أمامه الآن .. لقد استغل ســـعد السر الذى أفضى به اليه ذات يوم من الأيام لكى يسىء الى العمدة .. وتحريض أهل الكفر عليه .. ولكن على أية حال .. لم تعد مثل هذه الموضوعات تهمه الآن .. فلقد ترك الكفر وما فيه ومن فيه الى غير رجعة .. وليكذب سعد الأقرع كما يشاء .. لن أخسر شيئا .. وهتف قائلا وقد جف الشوق على لسانه وفى داخله لسماع الجديد .. ولكن لاباس من الكلام حتى يكمل شرب فنجان القهوة : ثم ماذا ياحاج ؟

ـــ لقد جاءت الشرطة .. وفتشت بيتى .. وبالطبع لم تعثر على أى شىء .. وفى كل مرة أخرج منها منتصرا .. ويخرج العمدة وأعوانه خائبين .

ـــ وأخبار ســـعدية ؟

ـــ تزوجت .. بعد تمام طلاقها من فرج .. تزوجت دكتور بيطرى ..

الدكتور الذى كان يشرف لنا على المزرعة .. مزرعة الدواجن .. رجل طيب وغلبان ومنكسر ..

وتردد جمال كثيرا قبل أن يسأل عن أخبار بيت العمدة .. ولكنه تظاهر بعدم أهمية ما تحمله الأخبار من شحنات نفسية .. وهتف لنفسه مطمئنا لم يعد يهمنى أى شىء من جهتهم .. فتشجع وسأل متصنعا عدم الاهتمام : وأخبار بيت العمدة ؟ .. أعتقد أن نسمة عندها أولاد الآن ؟

أطلق سعد فى الهواء ضحكة عالية ساخرة مملوءة بالشماتة وروح التشفى عندما سمع جمالا ينطق بالجملة الأخيرة ..

وبهت جمال و .. اندهش لذلك التصرف المفاجىء .. والذى ليس له ما يبرره .. واستفسر من سعد عن السبب : ماذا ياحاج .. خيرا .. هل هناك شيئا يثير الضحك فى سؤالى ؟

— بالطبع .. لأنها لم تتزوج أصلا .. ولن تتزوج .. طالما أنا على قيد الحياة .. أنها هكذا ستظل مثل أرض الأوقاف .. لن تباع ولن تشترى .. لقد حصلت على شهادة كلية الزراعة .. ونائمة فى بيت أبيها .. وستظل هكذا ..

صعق جمال من هذا الكلام .. وذلك التهديد الواضح الذى يسمعه من سعد .. ينطق به بكل ثقة وبملء فمه .. كما لو كان الأمر واقعا صحيحا لا يمكن تكذيبه أو الشك فيه .. وأن مستقبل نسمة أصبح رهينا بقرار سعد الأقرع .. وصار بيده زمام أمرها فسأله فى دهشة كاملة : كيف ذلك ؟

— لقد تركها خطيبها الأول وهرب .. أستاذ الجامعة .. وجاء لها خطيب ثان وهرب بنفس الطريقة ..

وقاطعه جمال فى عجلة : اية طريقة ياحاج ؟

— عندما تحدانى العمدة فى بناء مصنع الطوب .. قررت أن أحاربه فى كل شىء .. حتى فى بيته .. وانتقم لك منه يا جمال (بيك) .. فذهبت الى كلية الزراعة .. وسألت عن الدكتور محسن .. وأخذت عنوانه .. وأرسلت له رسالة .. على أنها من شاب .. زميل لنسمة فى نفس الكلية .. وطالب

لنفس الدكتور .. وهددته فيها بالابتعاد عنها .. ويجب أن يتركها .. لأنهم يعيشان معا في قصة حب منذ فترة طويلة ومتفقان علىالزواج ولقد رضيت بك لأنك دكتور ومستقبلك مضمون .. ولا يستبعد بعد الزواج أن تدخل بيتك وتجدني على فراشـــك معها .. ولكي تتأكد من صـــحة ذلك وتعرف مـــدى ما وصلت العلاقة بيننا يمكنك أن ترى في ليلة الزفاف شامة مستديرة في حجم الترش فوق فخذها الأيمن .. وعلى الفـــور تركها الدكتور .. وذهب اعارة لدولة عربية بعد أن فسخ الخطوبة منها .. ولا يعرف أحد الســـبب في ذلك حتى الآن غيرى وغيرك .. ولقد فعلت ذلك كله من أجلك .. وكذلك فعلت مع العريس الثاني منذ أكثر من عام و ... و ..

وظل الحاج ســـعد يتكلم كثـــيرا .. بعدها .. ويسرد عن أمجـــاده وبطولاته .. ويحكي عن انتصـــاراته على العمدة وبنت للعمدة و .. و .. ولكن جمال لم يعد يسمع منه اى حرف .. بل ظل يحملق في هذا الفم الواسع .. وأسنانه الصفراء كأسنان الوحش المفترس .. لقد صـــدم صدمة كبيرة جدا .. ما هذا الذي يفتخر به سعد الأقرع .. أنه اســـلوب في الانتقام لم يسمع عنه حتى من أكثر أعداء البشر وحشية .. وتأكد الآن انه في مواجهة حيوان برى عديم الضمير .. فصرخ فجأة بانفعال بركانى مخيف جعل سعدا نفســـه ينتفض مزعورا : الســـت مســـلما ؟ .. الســـت أبا لبنات ؟ .. ألا تخاف الله ؟ .. ألا تخاف على بناتك ؟ .. كيف تجـــرؤ على تلويث شرف وعفة بنت .. ليس لها ذنب بخلافاتك مع ابيها ؟ .. كيف تسول لك نفسك أن تنتقم منبنت مســـكينة ؟ .. ألم تجد غـــير هـــذه الطريقـــة للانتقام من العمدة ؟ .. حرام .. حرام .. أين الضمير ؟ .. أين الخوف من الله ؟ ..

وصـــاح ســـعد كأنه يدافع عن نفسه بطريقة هوجاء في مواجهة تلك العاصفة الهوجاء التي فجرها في وجهه فجاة جمال : ليست مسكينة .. أنها ليست مسكينة .. أنها بنت الحية .. وبنت الحية لن تكون غير شعبان .. ومن يحاربني في رزقي احاربه في كل ما يملك .. وأحاربه في أعز ما يملك ..

وصرخ جمال في وجهه مستنكرا : يا رجل الأرزاق بيد الله .. لا يجرؤ أحد على أن يمنع قرشا واحدا .. أو لقمة قسمها الله لك .. انت نفســـك

تعلم ذلك .. ولكنك تبرر لنفسك الانتقام القاسى الفظيع لمرض فى نفسك .. اعوذ بالله .. أعوذ بالله .. الى هذه الدرجة يصـل انتقامك ؟!! تنتقم من العمدة فى شرف بنته ؟!!

ولولا أن جمالا قد عود نفسه .. منذ العمل فى المحاماة — على عـدم الانفعال وضبط النفس مهما كانت شدة المواقف .. ومهما كان هول المفاجأة .. لكان قد نهض وظل يضرب فى سعد حتى يتركه جسـة هامدة .. ولكنه استطاع أن يتصلد .. ويتجلد أمامه .. وأفلح فى الامسـاك بلجام ثورته وغضبه البركانى هذا .. ولم يستطع أن يكمل شرب فنجان القهوة .. ونهض مسلمان عليه سلاما فاترا .. بعد فترة صـمت يسترد فيها أنفاسـه ولم يستطع سعد من جانبه أن يلح على جمال بالجلوس .. أو بضرورة العودة لزيارته مرة ثانية .. وقد رأى من انفعال جمال ما أفزعه وأرعبه .. وجعله يحس بأنه لم يزل سعد الأقرع ..

وانصرف جمال مكفهر الوجه .. بعد أن سمع منه كلاما يكفيه للحزن والأسى والتفكير أيام عمره الباقية .

« الفصـــل السادس والعشرون »

قاد جمال سيارته بعد أن خرج من عند ســـعد الأقرع الى منزل أشرف بصعوبة بالغة .. فكره مشـــوش .. أعصـــابه متوترة .. كان كمن يشق طريقه فى وســـط الضـــباب الكثيف الخانق .. وتلك الأخبار التى فجعه بها سعد أغرقته فى بحر خضم من الضـــيق .. والحزن .. والاســـتهجان .. والكآبة .. وراحت روحه تصرخ محتجة ثائرة : كيف تجرأ هذا الحيوان على فعل ذلك ؟ .. يرمى أشرف وأطهر بنت على ظهر الأرض بهذا .. يرميهـــا بالدنس والعار .. يطعنهـــا فى شرفهـــا .. آه .. الجبـــان .. النذل .. (سبحانك يارب .. أعطيت المال لمن لا يخافك ولا يتقيك .. اســـتغفر الله العظيم .. لا اعتراض على قضائك يارب) .. الحيوان .. القذر .. لابد أن ذلك هو الذى جلب الأمراض للعمدة المسكين الذى لا يعرف من أين تأتى له الطعنات الجبانة .. والله زمن غريب وعجيب .. ســـعد الأقرع يخطط لكى يصبح عمدة كفر مفتاح ..

ووصل أخيرا وبعد جهد الى شـــقة أشرف .. وضـــغط على زر جرس باب الشقة .. وانفرج الباب عن فتاة صغيرة .. يبدو أنها تلميذة فى الرابعة عشر من عمرها .. ولكنها حلوة المحيا والقسمات .. لم تزل مرتدية لملابس المدرسة الاعدادية .. وسألها جمال : الأستاذ أشرف موجود ؟

فأجابت بابتسامة عذبة وصوت رقيق .. خففا من حدة ذلك البركان الذى يفـــور ويمور فى صـــدر جمـــال : نعم .. أخى أشرف موجـــود .. من حضرتك ؟

ـــ جمال .. جمال صفى الدين ..

فصاحت مرحبة كأنها تعرفه : أهلا وسهلا .. تفضل .. ســـأخبره .. الحمد لله على سلامتك ..

واندهش جمال لتلك الحفاوة وهذا الاستقبال الحسن .. وشعر بهذا الود وتلك الرقة تخفف وتلين من أعصابه المشـــدودة تلك .. وظهر أشرف

هاشا باشا وقد بدل ملابسه وارتدى بيجامة البيت .. واصطحبه الى حجرة الجلوس التى لا يخطىء جمال الطريق اليها .. وغمرت ابتسامة ووجه أشرف وهو يطالع صـديقه جمالا مرة ثانيـة .. وبامعان .. وقال فى صـدق : باسم الله .. ماشاء الله .. ماهـذا الاشراق .. ما هـذه الأناقة والذوق الرفيع .. لقد أصبحت مثل ممثلى (السينما) .. فى الحقيقة يجب علينا أن نخاف على بنات فاقوس منك .. يا أستاذ جمال ..

وانفجر الاثنان فى ضحك صافى مخلص .. ورد عليه جمال وهو يغالب ضحكه : أنا أعلم .. أنك تقـول ذلك لكى ابادلك المجاملة .. واقـول لك ما هذا الجمال وما تلك الأناقة .. الحقيقية يا أخ أشرف أنت طول عمرك انيق وظريف .. وصاحب ذوق رفيع فى كل شىء حتى فى حديثك ومظهرك وأخلاقك .. يعنى .. باسم الله ماشاء الله .. كامل من كله .. وبعد لحظات دخلت اليهم البنت اللطيفة .. التى قابلت جمالا على الباب .. والذى عرف جمال من أشرف أنها أخته تدرس بالصـف الثالث الاعـدادى .. وطلبت منهما التفضل بالتوجه الى حجرة الطعام .. لأن كل شىء جاهز ..

وصاح أشرف مرحبا : هذا نصيبك يا أستاذ .. لقد أتيت ووجدت كل شىء معدا وجاهزا سلفا .. ولأننا لا نعتبرك غريبا عنا .. فستأكل معنا من نفس طعامنا العادى .. ولا تعتبر هذه وليمة تحتسب عليك .. لأن الوليمة الحقيقة .. سـتحدد لها موعدا أنت نفسـك .. الموعد والوقت الذى يروق ويحلو لك ..

فرد جمال فى حياء ولباقة .. أرجوك يا أشرف لا تشعرنى بالحرج .. أنا لسـت غريبا عنكم كما قلت .. ولذلك .. فلا داعى لكل هذا .. ثم اننى لستجديدا على مائدتكم .. وأعلم جيدا .. أن الطعام العادى عندكم وهو .. بمثابة وليمة عندنا .. ورنت الضحكات الصافية النقية المخلصة من الصديقين مرة ثانية وهما يدخلان الى حجرة المائدة .. وسحب جمال الكرسى .. وألقى بجسده عليه .. والتصق بصدره بالمائدة .. كأنه يلوذ بها .. وصمت لحظة .. شرد فيها .. لا يمد يده الى الطعام ويغرف فى طبقـه .. فنبهه أشرف الى ضرورة مد يده .. ولا يتحرج والا سيضيع نفسه من طعام

الغذاء .. فالبيت بيتة .. ولن يلح أحد علية .. و (من يأكل على ضرسـه .. ينفع نفسه) ..

فابتسم جمـال .. ومد يده يغرف .. بينما كانت عيناه زائغتين .. وفكره ملتصقا بذلك الحوار الذى دار بينه وبين سعد الأقرع منذ وقت قصير .. وصرخ مسـتنكرا فى أعماقه المتاعة .. الكلب .. عديم الضـمير .. أسلوب خسيس .. الجبان يفخر بذلك .. لا يؤنبه ضمير .. أكيد هو رجل مريض .. لا يمكن أن يكون هذا تصرف انسان سوى .. مستحيل .. النذل .. يدعى بأنها لن تتزوج مادام هو على قيد الحيـاة .. الكلب ينصـب من نفسه الها .. بيده يقرر مصائر الناس ومسـتقبلهم .. يعنى هذا بأن كل عزيس يأتى لها .. سيرسـل له رسالة من نفس النوع .. آه .. الجبان .. وهذا ما كنت أظنه موسى .. اذا به يكشف عن أنه احط واحقر فرعون ..

ولاحظ اشرف عبوس وجه جمـال وتقطيب جبينه .. ويحاول ابتلاع الطعـام بصـعوبة شـديدة فداعبه قائلا : يبدو أن طعامنا لم يعد يعجبك يا أسـتاذ ؟!

فانتبه جمـال وحاول جاهدا فرد أسارير وجهـه .. وقال فى سرعة بديهه : كيف ؟!! انه أجمل طعام أكلته فى حياتى منذ أن ولدتنى أمى ..

فضـحك أشرف .. وهلل بمرح طفولى : الله أكبر .. الله أكبر .. ماشاء الله .. محام بارع مائة فى المائة .. (أمثالك يجب عليهم أن يركبـوا (مرسيدس) .. وليس (بيجو)) ؟؟!!

وابتسـم جمـال وهو يمسـح يديه .. منهيا طعامه : الحمـد لله رب العالمين ..

ــ انك لم تأكل شيئا يا أخى ..

ــ الحمد لله .. لقد كنت جائعا .. وأكلت كثيرا .

ــ على أى حال .. بالهناء والشفاء .

وعن لجمال خاطر جعله يسـأل أشرف فى التو : أعنـدك (تليفون) يا أشرف ؟

ــ نعـم ..

ــ أعندك .. دليل (تليفونات) ؟

ــ نعم .. عندى ..

واحضر أشرف التليفون والدليل الى حجرة الجلوس .. ووضعهم أمام جمال .. وبأدب جم .. استأذن لاحضــار الشــاى .. وذلك حتى يترك الفرصة لجمال كي يتصل بمن يشاء دون حرج .. أو احراج من أحد .

وعلى التو .. راح جمال يبحث فى الدليــل عن رقم (تليفون) العمدة الحاج أيوب مفتاح .. حتى عثر عليه .. وأدار القرص .. وقرب السماعة من أذنه .. ووجيب قلبه يرتفع ويرتفع .. ويوشك أن يسمعه .. وتوقعات كثيرة .. مئات التوقعات فى رأسه .. وعلى الطرف الآخر بدأ يرن التليفون .. وقشعريرة بدأت تلمس أطراف جمــال .. كما لو كان يســمع جرس امتحان الليسانس من جديد .. وما هى الا لحظات .. وارتفع (التليفون) فى بيت العمدة .. وزادت دقات قلب جمال أكثر .. وأكثر .. كأنها دقات الطبول فى غابات افريقيا .. لم يخف عليه صــوتها .. كل الرقة والعذوبة تجمعت فيه .. ولكأن الثلاث سنوات الماضية لم تغير أى شيء .. ولم تفلح فى أن تمحو حرفا واحــدا من كلمات وآمال كثــيرة حفرت فى وجدانه وأعمق أعماقه .. وكررت نسمة مرة ثانية : الو .. ؟

فقال باتزان كبير .. ومحاولا حجب اختلاجات صــوته .. وتهدجه المنفعل عنها : حضرة العمدة موجود .. لو سمحت ؟

ــ نقول له من يا أفنــدم ؟

ــ جمال صــفى الدين

وكأن نسمة لم تصدق .. فسألت مرة ثانية لتتأكد : من يا فندم ؟

ــ جمال صــفى الدين

ــ اهلا وسهلا .. حاضر .. لحظة واحدة .

وبعد لحظة .. كان صــوت العمدة على الطرف الآخر .. واهنا .. ضعيفا .. مثيرا للرثاء .. وكلمات الشــوق الحارة .. والعواطف الملهوفة الجياشة .. وحلف والقسم باغلظ الأيمان .. وبحيــاة الحاجة أم جمال أن يأتى لزيارته .. وخاصة عندما علم انه يكلمه من فاقوس .. وقال العمــدة

مصمما أنه سيرسل له سـيارته لاحضـاره .. وأحس جمـال بأن العمدة يستغيث به ويستنجد به .. لا يدعوه لزيارة .. ولذلك لم يجد جمال مفرا من ان يطمئن العمدة .. وبانه سيكون عنده خلال نصـف ساعة على الأكثر .. ولا داعى لارسال سيارته ..

ولم ينس جمال أن يتصـل بأمه فى المنصـورة ليخبرها أنه فى زيارة لصديقه أشرف فى فاقوس وقد يتأخر بعض الوقت .. كما اتصل بالمكتب .. وأخبر الحاج محمـد وكيل المكتب بأنه لن يحضر الى المكتب فى فترة ما بعد العصر وعليه أن يدبر أمور المكتب بطريقته .

((الفصـــل السابع والعشرون))

كان هذا الاتصال (التليفونى) من جانب الأستاذ جمال بمثابة التيار الكهربائى الذى سرى فى مصابيح نفوس ســكان وأهل (فيلا العمــدة) .. فأضـــاءها ..

وعقب المكالمة مباشرة ســيطرت على الجميــع أحاسيس مختلفة .. وغامضة .. وآثار لديهم توقعات متباينة ..

فعلى الفــور .. أسرعت نســمة الى حجرتها .. وأوصـــدت خلفها الباب .. وجلست .. مختلية بنفسها أن صوته جميل .. كله رجولة .. وحنان .. عميق .. جذاب .. كأنه يرتفع بسامعه الى ما فوق السحاب .. ويسبح معه فى الآفاق البعيدة البعيدة .. وتداعت ذكرياتها .. وتذكرت كل ما قيل عن ولعه بها .. وعن حبــه الحار لها .. وكيف أنه مرض بســـبب أنه ســيفقدها .. وهجر الكفر كله .. بعد أن تأكد من خطبتهـــا لغيره .. وكأنه كان يبقى على نفســـه حيا فى هذا الكفر من أجلهـــا فقط . وتنهـــدت بمرارة عندما استرجعت ما باحت به صـــديقتها سعاد أم حســـين .. عما يشيعه أهل الكفر من أن اباها قد طرد جمالا وأمه .. لأنه تقدم طالبا الزواج منها .. وعندما تجرأت وتجاسرت وسألت اباها عن مدى صدق كلام الناس فى هذا الموضوع ؟ .. أقسم بألف يمين .. بأن ذلك الكلام .. لا يوجد فيه حرف واحد حقيقى .. ولا كلمة واحدة فيه صادقة .. وأكد لها أن جمالا أو أمه .. لم يطلب أحد منهما أى شىء من هذا وأن هذه كلها اشاعات مغرضة .. لا تهدف الا الى النيل من شخصى أنا .. أنا الوحيـــد المستهدف من تلك الاشاعات .. من أطلقها يســـتغل حب الناس العظيم فى كفرنا لجمـــال .. ويجعل ذلك وسيلة للنكاية والكيد لى .. والحط من شأنى وسط الناس .. وأكد لها انه لو تقدم جمال قبل أن يتقدم الدكتور محسن .. لما مانع فى ذلك أبدا .. اذا هى وافقت عليه .. وأخذ يعدد محاسنه والصفات الطيبة النادرة

.. وكيف انه يشرف أى أسرة يصـــاهرها .. فهو شـــاب مثالى .. وعلى خلق .. ومهذب .. ويتقى الله .. وباختصـــار فهو ليس من شـــباب هذه الأيام .. انه أكثر من مثالى .. وأحســـت يومها بالعطف عليه .. ولكنها عادت فى نفس الوقت والقت عليه اللوم .. فاذا كان حقا يحمل فى قلبه هذا الحب كله .. فلماذا لم يصرح لى به ؟ .. لماذا لم يلمح بأى علامة أو أمارة تـــدل على ذلك ؟ .. لماذا كان يتحاشى الكـــلام معى .. كان كلامه مختصرا ومقتضبا .. سريعا .. فى أدب جم وحياء .. فهو اما يســـأل عن أبى او يسأل عن أمه ان كانت عندنا .. ثم ينطلق سريعا .. وكأن هناك ما يشغله .. رغم أنه لا يوجد اى شىء فى هذا الكفر يشـــغل أى انسان .. فليل الكفر أطول من نهاره .. ونهاره أطول من ليله .. وجميعها ملل فى ملل .. لا يوجد فيه ما يثير .. ولكنها لم تشأ أن تضيع وقتها .. فنهضت .. وهى تتســـاءل نفســـها : يا ترى هل تزوج الآن ؟ .. ومن تكون زوجته ؟ .. وكيف تم له التعرف عليها ؟ .. وداهمها خاطر .. ربما لم يتزوج حتى الآن .. وتمنت ذلك .. ومدت يدها الى دولاب ملابســـها حتى تنتقى أجمـــل فساتينها .. وجلســـت فترة طويلة أمام المـــرآة .. تحادثهـــا .. وتســـتمع اليها .. وتضبط زينتها .

بينما العمـــدة لفته احاسيس كثيرة .. أحاسيس الشوق الفياض .. أحاسيس الســـعادة والفرحة بعودة الابن الغائب .. غمره احساس جارف بالشعور بالذنب تجاه جمـــال .. لأنه لم يقدر هذه الجوهرة قدرها الحقيقى .. وأول وارجـــع ما أصابه .. من أمراض ونكبات الى تهربهم من تحقيق رغبة جمال فى الزواج من نسمة .. وادعائهم بأنهم قرءوا الفاتحة مع الدكتور حتى يقطعوا عليه الطريق .. ولكن لا يحيق المكر السىء الا بأهله .. وكان يكرر ذلك ويصرح به للحاجة صفية .. صاحبة الفكرة .. كلما جنت عليهم مصـــيبة ومشكلة .. وكانت هى تعارضـــه أول الأمر .. الى أن فســـخت خطوبة نسمة للمرة الثانية من الطبيب .. وبدون ابداء اسباب أيضـــا .. بعدها ايقنت تماما بان ما يقوله العمدة هو الصدق نفســـه .. وبدأت تلوم نفسها هى الأخرى .. وصـــارت تكرر الذنب هو ذنبى .. كنت اعتقد أننى

اختار لنسمة الاختيار السليم والزوج الذى يسعدها ٠٠ ولكن ارادة الأ فوق كل ارادة .. ربما كانت حياتها مع جمال أسعد من غيره .. واهنأ رغم قلة موارده .. لقد كان ابن حـــلال .. وطيبا .. وأمه ســـيدة طيبة ٠٠ ولكن الكلام فى الماضى لا يأتى من ورائه غير الندم والهم ٠٠ دون فائدة .

وشرع العمـــدة يرتدى جلبابه الذى يحب أن يقابل به جمالا .. وجهز عصاه التى أصبحت ضرورية له .. وجزءا منه بعد أن كانت من باب الأناقة والعياقة والأبهة .. بعد أن أصابه مرض البول السكرى .. ونقص من وزنه بأمر الأطباء .. وبدأ يحس بأن قواه صارت خائرة .. وحيله مهدودا ٠٠ واصبح يتنقل بصعوبة بعد ان أنشب (الروماتزم) اظافره فى ساقه اليسرى .. ولكنه كان يهمس لنفسه شاكرا الله : الحمد لله ٠٠ هناك ناس غير قادرين على السير والحركة مطلقا .

بينما الحاجة صـــفية .. غمرتها فرحة وسعادة .. وخالجها شـــعور بالخجل تجاه ما تصرفته مع أم جمـــال فى يوم من الأيام ٠٠ ولكنها سرعان ما اشاحت فى وجه هذا الاحساس العارض .. وخامرها احساس قوى وخفى ومريح .. أن جمالا سيأتى معه الخير .. وكأن احساسها الباطن بأن الخير والراحة والاستقرار فى حياتهم وفى حياة أهل الكفر قد ذهبوا مع جمال ٠٠ ولذلك فســـوف يعود كل شىء طيب مع جمال ايضـــا .. وعلى أثر هـــذا الاحســـاس بالارتياح الذى غمر كل كيانها .. نادت على الشغالة طالبة منها .. ومشددة عليها بسرعة ترتيب (الفيلا) .. وخاصة مكان الجلـــوس .. وتغيير الورد فى المزهريات لأن هنـــاك ضـــيفا عزيزا ســـيأتى لزيارتنا بعد قليل .. ونبهتها أن تكون مســـتعدة .. فقد يتناول معهم طعام العشاء .. وعندما ســـألتها الشغالة — من باب الفضول — عمن يكون الضيف ؟ .. فرحت الشغالة هى الأخـــرى عندما علمت انه الأســـتاذ .. وانطلقت تنجز ما أمرت به الحاجة صفية .. فى سعادة وهى تســـأل نفسها : يا ترى هل تزوج أم لا ؟

وشرعت تفيح وتنشر فى الفيلا عبيرا جديدا من الأمل والتفاؤل والسعادة .. وحامت فى أرجاء المكان الكثـــير من التوقعات المبهجـــة ترفرف بجناحيها

الخضراء فوق رؤوس الجميع بهــدوء ونعومة .. كأنهم فى حلم من أحــلام اليقظة .. وهمست الحاجة صفية لنفسها مطمئنة : ان مجىء جمال كله خير .. حتى ولو كان متزوجا .. لأنه سيكون أكبر صفعة على وجه سعد الأقرع واعوانه .. وســيعرف اهل الكفر جميعا مدى كذبهم فى تلك الاشــاعة التى روجوها .. وادعوا أن العمدة طرد جمالا وأمه .

وقبل الموعد الذى ضربه جمال للعمدة .. سمعت الآذان المترقبة داخل الفيلا هدير موتور ســيارة تتوقف أمام بوابة (الفيلا) .. وصــوت بوق السيارة .. وبعض الأصوات المختلطة .. والتى بدأت تعلو وتتجمــع .. وتتكاثر ولكأنهــا مقــدمة مظاهــرة .. ثم ســمعت بعض الزغاريد من نساء الكفر .

وعلى الفور .. خرج العمدة .. معتمدا على عصاه .. يستطلع الأمر على البوابة فوجد سيارة (بيجو) بيضاء .. وجمالا يحيط به أهل الكفر من كل جانب .. يحيونه .. ويرحبون به .. ويقبلونه .. ويعانقونه .. وهو وسطهم يتفجر سعادة ويفيض وجهه بالبشر .. وبعض النساء تجمعن على بعد خطوات منه للترحيب بالأستاذ جمال .. ولم تتمالك احداهن السيطرة على مشــاعر الفرح والنشوة والبهجة التى اســتولت عليها عندما رأت هذه الوسامة والأناقة والجمال البشرى الخلاب الساحر .. فانطلقت من أعماقها زغرودة .. معبرة عن كل تلك المشــاعر التى تأججت فى داخلها .. ووقفت بجوارها الباقيات مشــدوهات منبهرات بالأســتاذ جمال بعد أن أكرمه الله واصــبح (بيك) وكيل نيابة .. وهمســت واحدة منهن مداعبة صديقتها بخبث : خلى زوجــك يعمــل فى النيابة ولو فراشــا .. فربما رأينــاه جميلا يوما ما ..

فردت عليها الأخرى هامسة بخبث أكثر منها : أنا زوجى مثل البدر من غير نيابة .. لكن أنت .. لو شغلوا زوجك مستشارا .. فسيظل كما هو .. اخوف به أولادى .

وتساءل الناس فى غمرة ذلك بدهشة .. وارتسمت فى عيونهم الحيرة .. وهم يرون جمــالا يقف أمام باب (فيلا) العمــدة .. ولكأنه قادم اليه

خصيصا .. بعد ذلك كله ويأتى اليه ؟! .. بعد أن طرده هو وأمه من الكفر ثم يأتى اليه لزيارته ؟! .. وهمس أحدهم للآخر : الأصيل ما يعيب .. ورد عليه الآخر بأن المفروض الأستاذ جمال ما يعطى له أى اعتبار أو اهتمام .. وحملقوا مشدوهين .. عندما انتبه جمال لمقدم العمدة .. فتملص من الناس بلباقة ورفق .. وتقدم من العمدة معانقا .. عناقا طويلا .. حارا .. وضمه الى صدره .. واحس جمال بمدى نحول جسد العمدة وضـــعفه .. وسرى بينهما فى لحظة ما يشبه شعاع البرق .. احســـاس خاطف مفعم بالحنان والشوق الفياض والحب العميق المخلص .. ومرارة الفـــراق .. كما لو كان اللقاء المؤثر هذا بين أب وابنه العائد بعد سفره البعيد .. أو بعد أن اشـــيع عنه أنه مات فى حرب أو غرق فى بحر .. ها هو جمال يعود اليه مرة ثانية — يحتضنه .. لا يصـــدق .. ولم يتمالك كل منهما التحكم فى مشـــاعره .. والســـيطرة على عواطفه .. فخانتهما الدمعات .. وانحدرت ســـاخنة .. سريعة .. متدفقة .. مخلصـــة من العيون .. والابتســـامات ترتعش .. متهدجة فوق الشفاة المختلجة .. مما جعل كثيرا من الناس .. لحظتها .. يشكون فى مدى صدق ماروجه سعد عما صدر من العمدة لجمال وأمه .

واصـــطحب العمدة جمالا ممســـكا فى يده ويشـــد عليها بحرارة وود واعتزاز .. كما لو كان يخاف ان يفقدها مرة ثانية بعد أن عثر عليها .. وفى نفس الوقت كان مأخوذا بمظهره الجديد .. وتلك الســـيارة الخاصـــة .. وأدرك أنها ملكه .. ودخلا (الفيلا) .. ودعى العمدة كل الحاضرين من أهل الكفر وملحا عليهم بالتفضل بالدخول الى الفيلا .. مؤكدا بأن جمال (بك) هو أخونا جميعا .. انه فرد منا .. ونظر الى جمال .. وكأنه يريد أن يسمع منه تأكيدا على صحة هذا الكلام .. فأومأ جمال برأسه مبتسما قائلا : ان ذلك أمر لا يحتاج الى تأكيد ..

واحس الناس برغبة عارمة فى معرفة المجهول .. وكشف الغامض من الأمور .. فتزاحموا داخل الفيـــلا .. لحق بعضـــهم مكانا للجلـــوس على الأرائك أو الكراسى .. وبعضهم تفحص المكان فلم يجد كرسيا .. فأسرع بالجلوس على ســـجادة حجرة الجلوس .. زاعما — كأنه يتواضع — بأن

الانســـان لا يجد راحته الا فى الجلـــوس على الأرض .. فمنها خلقنـــا .. واليها نعـــود ..

والحقيقة أن أحـــدا منهم لا يهمه أين يجلس ؟ .. ولا اين يقف ؟ .. أو ماذا يشرب ؟ .. كل ما يهمهم هـــو أن يروى الأســـتاذ غليلهم ويشـــبع فضـــولهم .. ويفسر لهم ما اســـتغلق عليهـــم .. اين يعيش ؟.. وماذا يعمـــل ؟ .. وكيف حال والدته ؟.. وهل تزوج ؟.. هل ؟.. وهل ؟ : .. آلاف الأسئلة يحبون ويتمنون معرفة اجوبة لها ..

ولم يمهلم جمال مع حيرتهم وأشواقهم كثيرا .. اذ سرعان ما وضـــع لهم كل شىء باختصار .. فهو لم يسافر الى الخارج وأنه لم يتسلم عمله فى النيابة .. وأنه يعمل محاميا .. وله مكتب فى المنصورة .. وأنه لم يتزوج .. وامه بخير وتســـلم عليهم جميعا .. ورقص قلب الحاجة صـــفية فرحا وسعادة عندما كانت تسترق الســـمع من خلف الباب .. وأدركت أن جمالا لم يتزوج بعد .. واسرعت الى نسمة طالبة منها أن تهتم بنفسها أكثر .. لأنها ستسلم على جمال .. قالت لها ذلك وهى تدرك أن ابنتها ليســـت فى حاجة الى مزيد من الاهتمام .. فلقد خلقهـــا الله جميلة .. مشرقة .. فاتنة .. ولكنها قالت ذلك وكأنها لا تنوى أن تضـــيع منها جمالا مرة أخـــرى .. وابتسمت نسمة لأمها ابتســـامة ذات معنى .. وصـــمتت .. الآن تطالبها بذلك .. وهى التى خططت لابعـــاده من قبـــل .. ثم قالت فى مرح وتألق : وماذا أفعل يا ماما اكثر من هذا ؟ فعاجلتها امها مستدركة : لا شىء .. لا شىء انت هكذا بدر البدور .. وهتفت من اعماقها : يارب اجعل قدوم جمال علينا خيرا وســـعدا ..

وقبـــل أن ينصرف اهل الكفر الحاضرون .. الحوا على جمـــال .. وشددوا عليه محلفينه بكل عزيز وغال .. وخاصـــة الحاجة والدته .. أن يأتى لصلاة المغرب فى المسجد .. الذى يحين بعد ساعة .. حتى يتسنى لكل اهل الكفر وشبابه .. وكل الناس الذين يحبونه أن يروه ويسلموا عليه .. لأن معظمهم الآن فى الغيط .. وســـيحزنون كثيرا لو علموا انه زار الكفر ولم يســـلم عليهم .

ووعدهم جمـــال بذلك وهو يتطلع الى الساعة ليحسب الوقت الباقى على آذان المغرب .. وبدءوا ينسلون وينسحبون خارجين من بيت العمـــدة واحدا بعد الآخر متهامســـين بأنه من باب الذوق أن يتركوا فرصـــة لجمال والعمـــدة للحديث منفردين .. فقد يكون بينهما أمور خاصـــة .. فخرجوا سعداء فرحين بعودة الأستاذ الطيب الخدوم الخير .

وأخيرا خلت الحجرة تماما الا من العمـــدة وجمال .. وتكررت كلمات المجاملة والاطـــراء .. واذا بالباب الداخلى ينفرج عن الحاجـــة .. مازالت محتفظة بشبابها وحيويتها وجمالها كما كانت .. لم تتغير .. بخلاف العمدة الذى هده الزمن .. وقد حمل وجهها ابتسامة عريضة مخلصـــة .. وكلمات الترحيب تتدفق من بين شفتيها بحرارة وصـــدق شديدين .. وكأنها بذلك تكفر عن ذنب قديم .. ومدت يدها مسلمة عليه وهى مأخوذة بهذا (البيك) اللامع .. لقد تغير جمال تماما .. بدت عليه كل مظاهر العز والثراء .. لم يعد جمالا مدرس الابتدائى .. جسده النحيل الذى أوشك على التقوس صار الآن ممتلئا مفرودا فى رشـــاقة ممثلى (التليفزيون) .. خداه .. لم يعودا غائرين كما كانا .. لقد امتلئا أيضا وتوردا .. وجهه يلمع بصحة وشباب صارخ .. عيناه الخضراوان .. صـــارتا أكثر نقاء وصـــفاء .. كلامه .. نبرات صوته .. أناقته .. شعره .. وفى ومضة واحدة .. تمنت بإخلاص أن يكون جمال من نصيب ابنتها نســـمة ويتزوجها .. وســـألته عن حال (ماما) وخجلت أمام هذا المظهـــر الراقى أن تقـــول له أمك فأجابهـــا فى ود وأدب : الحمد لله .. والله تسلم عليك ياحاجة ..

وقالت فى عتاب : لماذا لم تأت مع حضرتك .. أنا مشتاقة لها جدا .. انها بالنسبة لى مثل الأخت وأكثر .. ويعلم الله .. كم أنا مشتاقة لكلامها ولجلستها ..

أجابها جمال والابتسامة العذبة مازالت تتراقص على شـــفتيه : والله نفس الشعور ياحاجة .. دائما تذكركم بالخير ..

وسألته من جديد .. وكأنها لم تسترق السمع من خلف الباب وتعرف كل شىء : وكيف حالك .. أتعمل فى النيابة الآن ؟

ـــ لا لم أتسلم عملى فى النيابة .. لقد فضلت العمل فى المحاماة .. وفتحت مكتبا فى المنصورة .. والحمد لله .. يسير سيرا ممتازا بفضل الله .. واعطانى الله أكثر مما كنت اتمنى .. الحمد لله ..

وقاطعه العمدة فى فرح ومرح .. كأنه يفخر به .. أو كأنه يشمت فى الحاجة التى رفضته فى يوم من الأيام لفقره : جمـــال (بيك) عنده ســيارة (بيجو) جميلة ياحاجة ..

فردت فى سعادة حقيقية كأنه ابنها : الحمد لله .. والف مبروك يا (بيك) انت طول عمرك طيب وابن حلال .. وتستاهل كل خير ..

وصمتت لحظة .. وترددت قبل ان تسأل فى حرج مصـــطنع : يا ترى تزوجت يا جمال (بيك) ؟

فقال وقد اعتراه مسحة من الخجل لمفاجأة السؤال : لا لم أتزوج بعد .. ليس لدى الـــوقت الكافى .. ولم أعثر على الزوجة المناســبة بعــد .. وربنا يســـهل ..

فقالت الحاجة باخلاص كأنها تتوسل : أنت ابن حـــلال .. وأى بنت تتمناك زوجا .. وانت تشرف أى عيلة تتقدم للزواج منها ..

واحس جمال بما حملته الحاجة صفية لكلماتها من ايحاءات .. فزادت ابتسامته شاكرا لها لطفها وثناءها عليه .. ونهضت الحاجة صفية وقلبها يزغرد من الفرحة عندما أدركت ان جمالا جاء اليهم مادا يده وفاتحا لهم بابه .. وقالت وهى تنهض : تحب تشرب قهوتك مضبوطة يا (بيك) ؟

ـــ لا تتعبى نفســـك يا خالتى الحاجة .. على أى حال .. فعلا .. هى مضبوطة .. حضرتك طول عمرك ذكية ..

وضحك العمد على هذا الاطراء لزوجته .. وقال مازحا من النشـــوة والفرحـــة التى ينعم بها .. اذن .. من الآن وصـــاعدا سأسميها الحاجة ذكيـــة .

وابتســـم الجميع ..

وما هى الا لحظات .. وانفرج الباب عن نســـمة .. حاملة لصـــينية القهوة .. وبتلقائيـــة بحتة .. نهض جمال مرحبا بها .. ولبرهة تلاقت

عيونهما .. التقاء كاملا .. اخضرار نقى صـــاف فى عينيه .. يعانق أجمـــل عينين رآهما فى حياته .. سواد داكن .. واسع يتوسط بياضـــا نقيا بلون الحليب .. محاطا بأهداب سوداء طويلة مكحلة تدف خجلا بين لحظة وأخرى فتزيدهما أنوثة ورقة .. وتشع بايحاءات كثـــيرة وتعبيرات متباينة أحس منها بالعتاب .. والود والحنان .. الاعجاب والانبهار .. وتحول كل ذلك الى ابتسامة واسعة صافية مرحة .. وظلت مأخوذة بهـــذا الشاب للحظات .. انه أجمل من رأت .. واكثر من رأت اناقة .. يشع جاذبية وسحرا .. لم تصدق انه يمكن ان يكون هو نفسه جمالا ..

واخيرا وضعت الصينية على المنضدة .. ومدت يدها لتصافحه .. فسرى بينهما ما يشبه التيار الكهربائى الخفيف .. ارتعشت يدها فى يده .. مما جعلها تحس بارتباك وخجل وخاصـــة فى حضـــور أبيها .. ولم تحس بدخول أمها التى رأت .. واحســـت بكل ما حدث فرفعت صـــوتها مرحبة بجمال .. حتى تعطى الفرصة لابنتها أن تتماسك وتنتشلها من هذا الارتباك الذى سقطت فيه .. ومدت يدها بفنجان القهوة الى جمال ..

وطلبت أمها منها فى ود أن تجلس معهم .. لأن جمـــال (بيك) ليس غريبا عنهم .. انه ابننا .. وأحست نسمة بالامتنان العظيم لأمهـــا من كل أعماقها على تلك الدعوة .. فجلست فى الحال .. وحياء أنثوى ريفى يلفها تماما ويجملها أكثر .. وبين لحظة وأخرى .. كانت تختلس النظرات اليه .. فتجفل عيناها خجلا عندما تجده منعما النظر اليها .. حتى وهو يتحدث الى ابيها او أمها .. « لقد تغير جمال تماما .. لم يعد كما كان يهرب بنظراته منى فى خجل .. لم يعد يختصر الكلمات .. أصـــبح الآن يشرح ويوضـــح ويســـهب فى الحديث .. وبثقة كاملة وخفة ظل ومرح وانطـــلاق .. كأنه عصفور رشيق فوق الأغصان يثب بخفة من غصن الى آخر .. لقد أصـــبح جريئا .. أصـــبحت أنا التى اخجل امامه .. واســـتحى واذوب من عمق نظراته » ..

وسألته نسمة عن خالتها ام جمـــال .. وعن حالها .. بنبرات حالمة عذبة رقيقة .. كأنها تغنى .. ولم يعد خافيا على الجميـــع .. وعلى جمال

نفسه أن نسمة مرتاحة اليه كثيرا وسعيدة به جدا .

وانبرى جمال يتحدث مع العمدة فى ود وشـــوق .. وعبر له عن حزنه وألمه لتلك الأمراض التى شرحها له العمـــدة .. وحكى له عنهـــا .. وكأنه يستعطفه الا يتركه .. وأنه محتاج اليه .. احتياج الوالد العجوز الى ولده الشـاب القوى .. وفى سياق الحديث .. ابتسم جمال ابتســـامة ذات مغزى وهو يقول للعمدة : لقد اشـــتغلت بالمحاماة يا عمى الحاج .. ولكن والله .. لم ولن يدخل جيبى أو بيتى قرش واحد من الحرام .. انى اذكر كلامك القديم عن المحامين .. ورأيك فيهم .. ولكن ليس كل المحامين كما يعتقد الناس .. فليس العيب فى المهنة .. ولكن العيب فى المحامى نفسه .. وفى تربيته ..

فضحك العمدة .. وكأنه يأســـف على ماقال من قبل وقال : يا جمال (بيك) .. انت معروف عنك طيب الخلق .. وأنت ابن حـــلال .. ومعدنك أصيل .. والذهب لو دخل النار هو ذهب .. بل انه يخـــرج منها أنقى من الأول .. انت لايمكن أن تتغير .. والمحـــاماة لايمكن ان تغـــير اى شئ فى اخلاقك او طباعك .. بل بالعكس .. انت القادر على تغيير مفهـــوم الناس الخاطئ عن مهنة المحاماة و ..

وسارعت الحاجة صفية مقاطعة العمدة ولكانها تنقذ الموقف .. وتعتذر عن كلام زوجها الذى أساء به الى جمـــال بيك من فترة طويلة دون قصـــد وقالت : عمك العمـــدة .. والله يا جمال (بيك) .. دائما يحبك ويعزك .. ويحب مداعبتك والمزاح معك .. ولم يكن يقصد ابدا .. والله دائما يقـــول ان جمالا هذا فى معزة ابنى ...

وكانت نسمة تنقل نظرها .. فى صمت بين المتحدثين .. من واحد الى آخر .. وخاصة لو كان هذا المتحدث هو جمال .. ان صوته الدافئ الحانى الرجولى قد غاص فى أعماقها تماما .. وتملك بحنانه كل كيانها .

وكان جمال يلمح تلك الأحاسيس واضحة .. جلية .. مرتسمة على وجه نسمة المشرق الفاتن .. فيزداد شعوره بالثقة بالنفس .. وتسيطر عليه نشوة دفاقة خلاقة .. فينطلق فى حديثه الشيق بسلاسة وعبقرية .. وسط هذا الحشد والكم الهائل الذى غمر المكان من المشاعر الفياضة من حب ..وود

.. حنان .. اعجاب .. انبهار كامل به وبحديثه ومظهـره المتالق .. ولو استمر جمال (بيك) فى التحدث اليهم دهرا كاملا لما شعروا بالوقت .. ولما تسرب الى نفوســهم الملل او الســام .. ولطلبـوا منه المزيد والمزيد .. فجميعهم يصغون اليه .. مسحورين .. مأخوذين بكل شيء فيه ..

ولكن ما أن جلجل فى ســماء الكفر أذان المغرب .. حتى نهض جمال مستأذنا .. وسلم عليهم مودعا .. لكى يصلى مع اهــل الكفر فى المســجد كما وعدهم آنفا .. ثم يتجه الى المنصــورة .. وعندما الحت عليه الحاجة ليتناول معهم طعام العشاء .. اعتذر لها بأن الوالدة بمفردها .. حتى لا تقلق عليه .. ولكن الحاجة صفية لم تتركه الا بعد أن أخذت منه هى والعمدة .. وعدا مؤكدا بأنه سيأتى هو وأمه فى يوم الجمعة القادم لقضـاء اليوم كاملا معهم .. من الصباح حتى المســاء .. حتى يعيدوا أيام زمان الحلوة التى ولت .. ورافقهم جمال وســط غبطة العمدة وســعادته بابنه الذى عاد .. وكلمات الاطراء والتقريظ من الحاجة صفية .. وابتسامة ساحرة متألقة من نسمة وسط صمت مفعم بالسعادة يثب من عينيها الرائعتين اللتين تشــعان بالفرحة والشوق والحب فاضحين كل ما خفق به قلبها البكر .

((الفصـــل الثامن والعشرون))

فى يوم الجمعة التالى .. عندما أوفى جمال بوعده .. واحضر معه امه لقضاء اليوم الكامل فى (فيلا) العمدة .. لم يجد كثير عناء فى التقدم للعمدة .. وطلب يد نسمة للزواج .. ولم يمهل العمدة جمالا فترة للتفكير كما يحدث فى مثل هذه المناسبات .. بل قال فى سعادة : أنا عن نفسى موافق .. فلن أجد لنسمة افضـــل منك زوجا لها فى كل العالم .. ولكن الشرع الاســلامى يحتم علينا أخذ رأى نسمة .. ولو ان شعورهم تجاهك معروف .. لكن على اى حال .. لحظة واحدة أسمع رأيهم ..

ونهض .. وخرج .. وبعد لحظات .. عاد يتهلل بالفرحـــة .. ويمد يده لجمال مهنئا : ألف مبروك .. على بركة الله ..

وقرأوا الفاتحة .. وانطلقت الزغاريد من (فيلا) العمـــدة تعلن للكفر كله عن هذا الحدث السعيد .. وكم فرح الناس بذلك .. وكانوا جميعهم فى انتظار يوم الجمعة هذا حيث وعدهم جمال فى زيارته السابقـــة عندما صـــلى معهم المغرب وقرأوا الفاتحة لروح الشيخ مرزوق .. الذى حزن جمال كثيرا لعدم سماعه يؤذن لهم ويقيم الصلاة كما اعتاد خـــلال فترة اقامته معهم لمدة عشر سنوات .. ووعدهم بأن يأتى لهم يوم الجمعة القادم ليصـــلى معهم ويخطب فيهم الجمعة .. فابتهجوا وهم يتذكرون خطبته السابقة ..

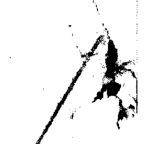
وفى هـــذه المرة .. صـــعد جمال المنبر .. تحيط به هالة من الفخامة والنور .. وبحماس وصدق شـــديد .. انطلق يحدث المصـــلين عن الكذب وعقوبته فى الدنيا والآخرة ..

وأدرك الناس بدون عناء ان المقصـــود فى هذا كله أيضـــا هو ســـعد الأقرع .. والذى لم يكون موجـــودا فى المســـجد .. انه منذ أسس شركة المقاولات .. وجعل مركزها مدينة فاقوس .. أمسى يقضى معظم وقته هناك .. واحيانا كثيرة يبيت هناك .. وردد البعض كلاما يفيد أن ســـعدا تزوج فعلا هناك .. ولكنه يخفى الأمر عن زوجته وبناته .

وعقب الصلاة .. نهض جمال .. مشيرا الى المصلين بالبقاء فى أماكنهم لحظة .. فجلس كل واحد منهم فى مكانه .. قبع فيه لا يبرحه .. واشرأبت الأعناق .. وساد الصمت المطبق الساحة الطاهرة .. ولكأنهم سيستمعون الى بيان عسكرى هام فى زمن الحرب ..

وخاطب جمال الناس مبتسما فى ثقة وهو يشعر بأنه وسط أهله واخوانه وأحبابه : لقد سمعت ـ للأسف ـ ان هناك من اشاع .. فى اثناء غيابى .. وبعد سفرى الى المنصورة للعمل فى المحاماة .. أننا خرجنا من الكفر انا وأمى .. لأن حضرة العمدة طردنا وهددنا وآذانا .. ولكن اقسم لكم بالله بأن هذا الكلام محض كذب وافتراء .. وان حضرة العمدة ظل معى الى آخر لحظة الأخ الأكبر .. بل اقولها صادقا الاب المخلص الحانى .. واقولها لكم واضحة صريحة .. ان الذى أشاع ذلك لم يسىء الى العمدة فقط .. بل أساء الى أيضا .. ولذلك اردت ان اقول لكم محذرا .. بالا تسمعوا لأى اشاعات من الكذابين واقول كما قال الله تعالى : « قتل الخراصون .. قتل الخراصون .. قتل الخراصون .. » وصرخ بها جمال ثلاث مرات بانفعال شديد .. حتى أقشعر بدن المصلين تأثرا بهذا الانفعال الصادق .. ورهبة من قوة وجلال كلام الله .. وهنا نهض العمدة .. ووقف بجوار جمال .. وراح يعانقه أمام الجميع .. وقال بتأثر وانفعال شديد : يا أخوانى .. الله يعلم ان جمال (بيك) .. ومنذ أن شرف الكفر .. للعمل فيه كمدرس لأولادنا ورأينا منه ما رأيناه جميعا من حب للخير والمساعدة وبدون مقابل .. .. وانا اعتبره مثل ابنى .. وعلاقتى به قائمة على الود والحب والاحترام والتقدير .. واليوم .. اراد جمال ابنى ان يحقق لى أمنية طالما تمنيتها من الله .. وهو أن يكون ابنى .. فلقد تمت خطبة الأستاذ جمال ابنى على نسمة بنتى .. وكلكم مدعوون للفرح فى الأسبوع القادم ان شاء الله .. وسيكون عقد القران هنا فى المسجد .. تيمنا بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والعقبى لكم جميعا ..

وتعالت صيحات الابتهاج والتهانى .. وسط موجة عارمة من الانفعال البالغ .. واقبلوا يعانقون جمالا والعمدة فى سعادة وفرحة منقطعتى النظير .. فى اخلاص وصدق من يبارك لنفسه .



تم الكتاب الأول .. بحمد الله

وتستمر احداث القصة فى الكتاب الثانى ان شاء الله